

الشيخ وعيال البحر

رواية

خيري حداد أبو عافيت

الطبعة الأولى

في ٢٠١١/٦/٩

رواية

"الشيخ وعيال البحر"

روائي/ خيري حداد أبوعافية

(الجزء الثاني)

ت / ٠١٠٨٨٣٧٨٥٩

ت / ٢٢٩٥٣٧٢٧

ت / ٢٢٩٨١٥٩٤

إهداء

إلى الراحل أبي..

الذي قال :

” أنا من عائلة إذا شِيعَتْ ظَلَمْتُ ”

ظلام وضياء

كانت أُمِّي تجدني دائماً في أوقات بالليل وبالنهار أجلس وحدي في الغرفة الكبيرة "المندرة" وهي غرفة بها خمس كنبات منجدة من أجنابها وتم تدبيسها بدبابيس ذهبية اللون وفوق كل كنبه مسندان كبيران تسند ظهر الجالس فوقها وتحميه من سدة الحائط، وفي وسط الكنبه وضعت مكدتان تزّين المقعد الفسيح وكى يضطجع الجالس بذراعه عليها، وفي منتصف المندرة وضعت منضدة بيضاوية الشكل لونها أسود تُلفها ستة مقاعد خيرزان ولمّا كنت أتأمل هذه المنضدة والكراسي التي تحتضنها أشعر بالفخامة في نفسي وأتذكر عم أُمِّي المستشار عبدالقادر فوده وهو يجلس فوق مكتبه الفخم في بيته وأمامه كتب القانون الضخمة، ولا أخفي شعوري الدفين بالغيرة من أهل أُمِّي جميعاً عندما كنت أذهب إلى بيت جدّي أو بيت عم أُمِّي، شعرت بأن هناك نظاماً ونظافة وترتيباً في داخل بيوتهم يفتقر إليها بيتنا، غير أن أُمِّي كانت تهتم باستمرار بترتيب وتنظيف المندرة والخزنة (الغرفة الصغيرة التي أنام فيها مع أُمِّي) وكنت دائماً في نفسي أقول هاتين الغرفتين مثل غرف جدّي .. لكن لماذا لا تكون بقية الغرف بهذه النظافة، ولقد كان يؤلمني أن تدخل الحمار أو بعض البهائم مارة بكل غرف الدار إلى الزريبة التي تقع في آخر البيت، حظيرة الحيوانات في بيت جدي خارج البيت وتقع في حديقة بجانب البيت والحيوانات كلها تدخل وتخرج بعيداً عن غرف البيت، والنفر أو الأنفار الذين يقومون بخدمة الحيوانات بعيداً عن حرم البيت ولا يراهم أحد من أهله، وكنت أقوم بحمل بعض الكتب والمجلات التي أهدتها لنا السيدة لظيمة وابنتها سميرة وأضعها فوق المنضدة وأجلس فوق المقعد وأمضي بعض الوقت في تقليب صفحاتها ولم أكن أفهم شيئاً ولكنني كنت أشبع رغبة في نفسي بأنني لماذا لا أكون مثل عم أُمِّي، وكنت أنتظر اليوم الذي أستطيع فيه القراءة الجيدة لأعرف ما في هذه المجلات وهذه الكتب، لكنه كان يستهويني أن أرى نساءً أنيقات في صفحات تلك المجلات وكنت أتأملهن وأتذكر ما رأيته في جسد سميرة وجسد العروس التي خلعت ملابسها لسميرة تحيكّ لها مثلها، ولمّا كان أبي يدخل عليّ المندرة وأنا منهمك في تصفح الكتب والمجلات كان يقهقه قائلاً:

- أياه الفائدة ما أنت لازم تقرأ..

فأقول له:

- بكره هاعرف أديني بشوف فيها إيه..

ويخرج ويتركني ويذهب لينام عند أمي لببيه وإذا لم يستطع النوم هناك لجلبة سعاد وعبدالعزيز كان يدخل القاعة المظلمة وينام فوق الفرن، وكان أبي يستريح في القاعة وكان يقول دائماً لزوجتيه إنني أنام نومًا عميقًا على فرن القاعة، فتقول له أمي لببية.

- ما هي دي أصلنا .. إحنا كلنا إترينا في القيعان..

وتقول أمي:

- وإحنا كمان طلعا لقينا القيعان والأفران .. بس كانت القيعان بتاعتنا ولغاية دلوقتي ليها شبابيك كبيرة تدخلها الشمس ويدخلها الهوا..

فيكمل لها أبي:

- على فكرة قيعان بلدنا ليها شبابيك إنت ما شفتيش الرزونة.

- بس ده مش شباك دي فتحة في سطح القاعة لا تدخل شمس وهواها شوية ومكتوم غير كده التراب اللي بينزل منها كل يوم لمّا نفتحها الصبح ونقلها آخر النهار بالشوال..

فيقول أبي:

- دا سلو بلدنا كل قيعان الناس فيها كده..

- قاعة الغموس أحلى حاجة فيها الشباك..

فيقول لها أبي:

- بس المشكلة إنه فاتح على ولاد هاده..

فتقول أمي لببية بعد صمت:

- الراحل ده ومراته ما يرتاحوش إلّا لمّا يشتموا بعض كل يوم الصبح..

فتقول أمي:

- هيّ مراته منين؟!!

فيرد عليها أبي:

- للأسف من أبو عافية لكن غجربة .. أبوها وإخواتها طيبين جدّا بس هيّ طالعة شردوحة..

فتقول له أمي لبينة:

- أبو عافية مليانة زي دول .. داحنا ربّنا راحمنا من شارع الخارجة ..
الندب هناك كتير..

وبعد أن سمعت حديثهم عن الجيران والقيعان قلت لأبي:

- وليه الزعيق والخناق والشردوحة يابه..

- من العيشة .. العيشة ضيقة على الناس..

- إنت عارف يابه في يوم دخلت الصبح الزربية لأسمع شجار هاده ومراته
كويس..

- أحسن ما تسمعوش..

- بالعكس أنا باستفيد عايز أعرف كل حاجة حوالينا

- وسمعت إيه..

- بلاوي وإزاي تبقه الحياة بين راجل ومراته بالعوكة دي..

- وبعدين إيه اللّي حصل

- الراجل شافني وأنا متشعلق في شباك الزربية إنت عارف قال لي إيه

- قالك إيه..

- جتك الغم بتبص على إيه..

- قلت له إيه..

- جريت على جوه .. على فكرة الراجل ده عينه حمرة ووارمة ومخيفة..
 - ماعلش يا بني والله لو عليّه لأسد شبابيك الزربية وقاعة الغموس
 - مش ممكن نبني بيت تاني في حته أحسن من كده.. ما فيش بيت في الكفر نشتره..
 - فيضحك أبي ملأ فيه ويهز رأسه:
 - إنت ليه بتحب الكفر..
 - فتتصرف أمي لبيبة إلى غرفتها وهي تضحك في خبث قائلة:
 - زي أبوك بتحب الكفر.
 - ويبدو أن ما قالتة أمي لبيبة عجب أمي فأكملت لها:
 - آه يا لبيبة منك
 - فيقول أبي لي:
 - شفت أهم جم عليّ يا حسن .. بلاش تجيب سيرة الكفر أدامهم..
- وكان الوقت نهارًا بعد الظهر فأخذ أبي الغداء للأنفار وركب حمارته وانصرف إلى الغيط، ولأول مرة لا أرغب في الذهاب معه إلى الغيط، لقد كان أول يوم أريد فيه أن أنفرد بنفسي داخل المنذرة ورحت أقلب في المجلات والكتب دون أن أعرف ما الذي تحتويه، وكان لتلك الأوراق رائحة فرحت أقبّلها وأشم رائحتها، بعدها قمت إلى شباك المنذرة الكبير وأخذت أرصّ الكتب مرة أخرى حيث وضعت الكتب وحدها في شباك، ووضعت المجلات في الشباك الثاني بعد أن فرشت تحت كل منها أوراق قديمة لتحميها من تراب أرضية الشباك.. وفتحت ضلعتي الشباك العلوية.. كانت شبابيك المنذرة طويلة لكل شباك ضلفتان علوية وضلفتان سفلية وكانت العادة أن نفتح الضلفتين العلويتين لكل شباك.. وكنت أسمع النساء اللاتي في التربة لكن صوت ماكينة طحين الدقيق كان أقوى من أصواتهن وبعد ذلك يأتيني صوت المارة على السكة الذين يذهبون إلى غيطانهم متخذين طريق رحيله أو الطريق إلى مريان ..

أحببت طريق رحيله لأنه يؤدي إلى بلد أمي، وأحببت طريق مريان لأنه يؤدي إلى حقولنا .. وكنت دائماً أحب كلمة الشرق لأن فيها تقع هذه الطرق ويقع بيتنا .. وكان الضياء الوحيد الذي بدأت أشعر به في دارنا هو المندرة .. فيها المجلات والكتب والمنضدة والكتب النظيفة .. فيها نافذتين كبيرتين تدخل منهما شمس الصباح ونور النهار، في المندرة أسمع حكاوي النساء على التربة وصوت ماكينة الطحين الذي يدب في داخلي كأنه طبل أو إنذار أو أن هناك شيئاً آخر في الحياة تريد أن تتفوه به فوهة الماكينة المرتفعة فوق سطح الماكينة .. كان صوت الماكينة هاتف يناديني وكنت أقوى داخلي بهذا الصوت بأن هناك شيئاً سوف يأتيني .. لكن ماذا يقول هذا الصوت ولماذا يسكن في داخلي .. كان هذا الصوت يحفر في أعماقي وكنت أبحث في نفسي عن شيء آخر يحدثه هذا الصوت .. وأشعر بحزن شديد عندما ينتهي العمل في ماكينة الطحين فيسكت الصوت فتخرس كثير من من المعاني في داخلي فأنقلب إلى رحلة الكتب والمجلات وأتي بها فوق المنضدة وأدس رأسي بين صفحاتها لأبحث عن أي شيء فلا أجد فأشعر بجهل شديد وأضع رأسي فوقها وأبكي .. ولمّا كنت أغفو في نعاس يقظ فوق الأوراق كانت رأسي يقظة وسمعت لأول مرة صوت لفتاة تكلم أمي لبيبة:

- يسعد صباحك يا خالة أم إبراهيم

- إزيك يا محاسن

- عايزين اللبة نمره خمستاشر ..

- قولي لأم حسن ..

كانت أم إبراهيم "أمي لبيبة" قد صلت الظهر متأخرة بعض الوقت وبعد صلاتها كعادتها تجلس فوق سجادتها الحصير التي فرشتها أمام باب غرفتها تسبح بحمد الله بمسبحتها الطويلة وكانت مندمجة في ذكر الله فجلست محاسن فوق المصطبة وقد ركنت ظهرها على الصومعة وراحت تتأملها قليلاً غير أن الجالسة تسبح أخرجتها من تأملها وقالت:

- نأديها .. قولي يا أم حسن

- لأ يا خالة باتكسف..

ضحكت أم إبراهيم وقالت لها مشجعة:

- قولي بس يا أم حسن وأنا هاكمل..

- يا ست أم حسن .. يا ست أم حسن..

كانت أمي قد أخذها النوم في غرفتها كالعادة بعد الظهر تنام قليلاً .. قامت إلى الصوت وطلت بوجهها من فتحة باب الوسط وقالت بعد رأت الفتاة جالسة:

- مين .. مين بينادي..

- صباحك ندا يا أم حسن..

- أهلاً .. محاسن..

- ياه إنت عارفاني..

- هو فيه غيرك بيجيلنا..

- والنبي عايزين اللنضه (اللمبة) نمرة خمستاشر علشان عندنا ضيوف الليلة

- أوي هاجيبها لك..

ملأتها أمي بالجاز وعدلت شريطها وركبت زجاجة اللمبة الدائرية فوقها وخرجت إليها:

- إتفضلي..

- ياه .. أم حسن كلها جايبة اللنضه..

- مانلاقيش أعلى منكم..

وانصرفت محاسن تحمل اللمبة إلى دار أبيها في الجهة المقابلة لبيتنا .. وهي ابنة زكي أبو شنب صاحب عدد من ماكينات الطحين وهي ابنة الست الوسط التي أنجبت له فتاة أخرى تُدعى حسنية وكان هذا الرجل قد تزوج من سيدة من الخضرة

أنجب منها عبده وستيته ولمّا ماتت زوجتيه الأولى والثانية تزوج من السيدة فتوح وهي شقيقة صبحي القطان .. هي سيدة بيضاء بدينة وهي بالنسبة لزوجها الحبيبة المفضلة الأمرة الناهية في البيت وكانت ابنتيه ستيته وحسنية قد تزوجتا ولم يبق غير محاسن وكانت زوجة أبيها تعاملها كالخادمة وهي بطبيعتها طيبة مطيعة تقضي كل حاجيات البيت من السويقة والبقال وغيرها .. فهي لا تكل مشاوير هنا وهناك حتى ترضى عنها زوجة أبيها .. كانت هذه الفتاة الطيبة كلّما دخلت بيتنا لقضاء حاجة سألت عني وكنت أسعد لذلك فإذا كنت في البيت خرجت إليها مبتسماً فتقول:

- إزيك يا حسن .. يا خبر أبيض إزيك..

وكنت أبتسم وأسعد وعندما كبرت قليلاً أقول لها:

- إزيك يا محاسن..

كانت كل بيوت القرية تضيء بيوتها بلمبات الجاز الصفيح المدخنة خاصة وسط الدار .. ففي كل دار عدة لمبات جاز .. لكن في البيوت المتيسر حالها تضيء الدار بلمبات نمرة خمسة بشريط ولها زجاجة وهي غير مدخنة وضياؤها ناصعاً .. وفي غرفة الجلوس أضوا بلمبة نمرة عشرة أكثر ضياءً ونورها أزهى من نمرة خمسة وإذا جاء إلى البيت ضيوف تقال أو منقولين من بلد أخرى أمر صاحب البيت بأن تضاء غرفة الجلوس بلمبة نمرة خمستاشر، غير بيتنا وبيت الصاوي وقرب شارع الخارجية توجد تلك اللمبة في بيت عمي محمود .. أما بيوت القرية الأخرى فجميعها تضاء بلمبة صفيح مدخنة وتلتف الأسرة جميعها حولها إذا تناولوا الطعام أو شربوا الشاي أو تمجلسوا للحكايات .. وتعمير لمبات الجاز بأنواعها يكون قبل المغرب بقليل وهو من الأعمال المهمة التي تقوم بها النساء كل يوم قبل المغرب حتى يضاء البيت طول الليل، وكان الذي يقوم بهذا العمل في بيتنا أم إبراهيم شرفة وكان قبلها مرات جبر صميده من قبلي البلد .. في الصالة الخارجية للبيت تضاء لمبة نمرة خمسة وتوضع فوق الرف، وفي غرفة أمي لبينة لمبة نمرة خمسة، وفي الخزنة (غرفة نوم) ونوم أمي لمبة نمرة عشرة) وفي المندرة لمبة أخرى نمرة عشرة، وفي وسط الدار الداخلية توضع لمبة صفيح مدخنة فوق ترابيزة قرب القاعة يطبخون

فوقها أحياناً، وفي الزريبة لمبة جاز، وفي غرفة الغموس لمبة جاز وفي القاعة لمبة جاز فإذا دخلها أبي قال:

- هاتو لمبة نمرة خمسة.

وإذا أخذ أمي أو أمي لبببة فيها قال:

- غيروا اللببة هاتو نمرة عشرة..

وكان أبي حريصاً على أن يرى زوجته بوضوح وهما معه، وفي هذا الوقت إذا دخلت امرأة قالت .. صلاة النبي البيت كله نور وخرجت تحكي على حرف الترعة أو وهي ذاهبة إلى الغيط أو وهي تملأ المياه النقية من حنفية خليفة الأكرت تحكي عن الضياء في بيتنا وكأنه أملة كبيرة، وسألت أبي في يوم لماذا لا تضع لمبة عشرة في غرفة أمي لبببة قال .. كويّسة أوي همّ بيذاكروا .. فأقول له أنا لا أذاكر وفي غرفتي نمرة عشرة فيقول حتى لا تتعب عيناك لأن الضياء الخافت يرهق العين .. فقلت له إن سعاد أختي في غرفة أمي لبببة وكذلك عبد العزيز فيسكت .. ولمّا ألح عليه يقول .. يا بني إنت جيت بعد شوقة .. وبعدين إنت حاجة تانية .. وكنت أندھش ويغمرنني شعورين .. سعيد بأنني غال عند أبي وشعور آخر بأن أبي يظلم إخوتي .. كان أبي يعلن عن حبه علناً لي فيداخلي هذين الشعورين، وكانت أمي توافق رأيه وتقول .. هو حد يكره النعمة .. والله يا حسن .. يا بني إنت حاجة وهمّ حاجة .. وكنت عنيداً مع أمي فأقول لها .. أفهم إن سعاد وعبد العزيز أولاد لبببة وأنا ابن حميده فتقول أهو كده .. إنت كده فهمت .. أهز رأسي وبداخلي الكثير في نفسي..

.. وفي يوم كان أبي ذاهب إلى عمي دردير في داره لمناقشة أمر من أمور الأرض .. كان الوقت بعد الظهر فاصطحبني وكان الكرم هناك دائماً صحن فته وصحن لحمه .. كان هذا كرم أمي منصوره مرات أبويا دردير .. وكنت أأكل اللحمه فقط بعدها تأتيني سعدية بنت عمي دردير الكبيرة بالبرتقال أو اليوسفي أو العنب .. وكان عبد المنعم ابن عمي في المدرسة وكانوا ينتظرون عودته إنهم يحلمون به إذا ذهب وإذا عاد وإذا نام .. ولو استطاعت أمه أن تطعمه كل ما في البيت لأطعمته ..

الحب عندها هو الأكل وكانوا كثيرًا ما يطعموه حتى يتقيًا .. وكنت حريصًا أن أنتظر مع أبي حتى يأتي عبد المنعم هذا الذي أراه لأول مرّة وهو عائد من المدرسة .. دخل الولد الصغير صاحب الكرّش الوفير والذي رمى بحقيته الخشبية بقوة فوق الأرض فانفتحت فخرجت مصارينها الكتب والكراسات وورك فرخة وحتة لحمة وشقتان مدهونتان بالزبدة والحلاوة .. راحت أمه في حسرة تلم ما تبعثر من الشنطة وتقول:

- يا شومي .. يا لهوتي .. دا إنت ما كلتش يا ضناي..

فيقول لها الطفل:

- كلت يا وليه والعيال كلو معايا كمان..

اندهش أبي وقال:

- يا منصوره عيّل رايح المدرسة تديله دا كله .. وبعدين هوّ فيه حد ياخذ لحمة وفراخ المدرسة .. كان كفاية شقة الحلاوة .. أو شقة الزبدة..

فتقول له:

- يالهوي يا حداد دا من الصبح في المدرسة..

- برضه دا كتير أوي .. وبعدين الواد رايح يسمع المدرس ويكتب ويقرأ ولأّ رايح ياكل ياناس مش كده .. الواد كده مخه هايخن..

ويرد عمي دردير باقتضاب وبزعل وكأنّ أبي تفوّه بشيء كريه:

- حداد كل واحد حر في عيّله..

- يا نهار إسود يا دردير فعلاً إنت طول عمرك فحل..

فتلحق أمي منصوره زوجها قائلة لأبي:

- معلش يا حداد ما انت عارف أخوك جرى إيه يا دردير حداد قلبه على الواد..

فيرد دردير بغشومية أكثر وهي يخرج من الغرفة غاضبًا:

- كل واحد حر في داره

فيضحك أبي قائلاً:

- طيب يالّهِ يا حسن..

وقمت وأنا أرقب بنطلون عبد المنعم قبل أن يخلعه وقلت له:

- مفصّله فين يا عبد المنعم..

- عند مصطفى القاضي

- بتاع الجاليب..

- دا بيعمل كل حاجة..

.. بعيد عنكم بنطلون زي الشوال وسطه زي رُكبه زي فتحته من تحت .. والجاكت عبارة عن نص جلابية بس ليها جيوب أربعة ومقطوعة من النص وكل جيب كأنه سيّاله .. وبعد أن شبع في داخلي من اندهاشي لملابسه المدرسية قلت له:

- الجيوب كبيرة أوي..

- يا سيدي إسأل أمي..

- كبيرة أوي يامّه منصوره..

- علشان لو الشنطة ما كفتّش الأكل نخط له فيها بقيته..

- يالهوي..

.. وراحت أمي منصوره تضحك لاندهاشي وكانت سعدية التي تكبر عبد المنعم بسنوات تقف ضاحكة ولكنها قالت بعد شوط كلامنا:

- هوّ كده عاجبهم أمي وأبويا..

فقام أبي ووقف وأخذني في يده وهمّ بالانصراف قائلاً لزوجته أخيه:

- مش كده الأكل .. خلو الواد ينفع يا ترى فيه إيه بعد كده .. بعد كده ياخذ الحلل معاه..

وتضحك أُمي منصوره بطيبة:

- هانعمل إيه يا حداد .. هوّ إحنا حيلتنا غيره..

.. وكان دائماً عمي دردير يريد أن يهيج من أي مكان تعب أو زهق منه .. لقد تعب وضجر من أخيه حداد لأنه يتدخل في أمور ابنه عبد المنعم .. ليس عنده روح للمناقشة ولا أخذ ولا عطاء إنه رجل يمشي بهواه إلى أي مكان يرغب فيه .. لا يبالي بأحد .. يمشي زي ما تمشي .. فالأرض عنده كثيرة والدار مليانة زبدة وعيش ووز وخميرة وجيبه فيه الفلوس بدل الجنيه ميّه .. خرج من بيته تاركًا أخيه حداد وابنه حسن في بيته دون إذن أو استئذان .. إنه رجل لا يبالي وترى على ذلك والكل يعرف عنه أنه لا يهتمه شيء .. هو الرجل الذي يجلس بالصدفة ويغادر بالصدفة ويذهب إلى الغيط بالصدفة .. وكان الجميع وكل من قابله في الطريق المؤدي من بيته إلى دكان زهران يسمعونهُ وهو يشوّح بذراعه ويقول .. هوّ ماله .. أنا حر في داري .. هوّ ابن مره (ابن امرأة) وأنا ابن مره .. هوّ حد بيقوله حاجة في غرفة التبن .. وكان الناس يضحكون على دمه الخفيف ويعرفون أنه يتكلّم عن أخيه حداد ولم يبالي بكلامه أحد إنه رجل في حال والناس كلها في حالهم ولمّا قابله قريبه صلاح سالم عند ناصية شارع الخارجة قال له:

- مالك يا حاج دردير

فقال له:

- وأنت مالك واحد بيكلّم نفسه .. روّح يا صلاح..

فضحك صلاح وانقلب نحو بيته..

.. كان الرجل لا يعجبه أي دكان في ناحيته .. بجانب بيته دكان فهميم مطر ودكان الغندور ودكان شديد البكل. وكل هذه دكاكين تقدّم ما تحتاجه كل من في الناحية في النهار والليل من عمل شاي وتقديم الجوزه بكل أنواعها وكافة طلبات البيت ويجلس فيها أعيان القطاطنة في الليل أو النهار شلل وثنائيات وفرادى مثل دكان عبده أبو سعده الذي يرتاده أخيه حداد .. إنه يترك كل هذه الدكاكين وهؤلاء الناس ويذهب إلى

دكان زهران في درب الخوله قبل المسجد الذي يخطب فيه الشيخ سليمان أبو دخان .. وهناك يجلس دردير على حصيرة بالأرض فلا يعجبه أن يجلس على دكة من الدكك .. إن راحته في الأرض وكان دكان زهران معظم زبائنه من المدرسين الابتدائي بالبلدة .. فوزي أبو سعدة، عفيفي أبو خليفه، الشيخ سليمان، عبد الحميد البكل، الشيخ سيد زهران .. وهناك يحبون عمي دردير وكان الناس في هذا الوقت سواءً كانوا فقراءً أو مدرسين أو متوسطي الحال يحبون أن يناقشوا أصحاب الأرض ليس لشيء ولكن لأنهم أغنياء .. طالما عندك أرض وبهايم وبتشبع بالفتة وبتدبح وز يبقه الراجل ده يتحب آخذين المثل القائل .. جاور السعيد تسعد .. كان عمي دردير هوائي يحب كما يريد ويكره ما يريد ويذهب إلى الغيط كلما راق له ذلك، ولم يكن يشارك الناس في السراء والضراء كما كان يفعل أبي وإذا ذهب مضطراً فإنه يجلس قلقاً وكان ثعباناً يقرصه ثم يغادر وهو يلعن الوقت الذي قضاه في أداء الواجب ..

.. عُدت وأبي إلى بيتنا وقابلنا في أول الدار أُمي لبيبة وجلسنا على المصطبة وجلست في مقابلتنا قائلة:

- كنتو فين ..
- عند دردير ..
- وجاي زهقان ليه
- الواد عبد المنعم بيزقوه زي دكر البط ..
- عارفة .. الواد بيتته لَمَّا يُطرش من كتر الأكل ..
- حاطّين له لحمة وفراخ ونص مشنة عيش في شنطة المدرسة
- مجيدة مرات أخويا عبد الحميد بتروح عندهم كثير بتقول .. وسكتت ..
- سكت ليه ..
- حاجات كثير
- زي إيه

- في الليل وهو بيتعش بيتنهم يأكلوه لمّا الواد ينام وهو بياكل ولمّا يشيلوه ويحطوه في فرشته ينام هات يا ألف شخير شخير متغمّس من كتر الأكل يجيب اللّي على مسقة رحيله ..
- أضحك ويضحك أبي ثم يقول:
- شوفتي بنطلون عبد المنعم
- لأ
- نص جلابية ..
- يا يوم الشوم .. ده ما يلبّس بنطلون ولا قميص ..
- همّ عايزينه بيقه أفندي ..
- هيّ الجلابيب وحاشتها إيه ما كل العيال بيروحوا بجلابيب ..
- يعني شوف حسن ما هو غال زي عبد المنعم هايروح المدرسة بإيه ..
- بالجلابيب زي ولاد البلد دأّمه شايّلة له هدموم جديدة ..
- إنت عارفة مين اللّي عاملها ..
- لأ ..
- هيّ حميده ما قلنكيش ..
- لأ حميده بتقول اللّي يعجبها بتخبّي عليه حاجات كتير ..
- يا لبيبة ما تدخلنّيش في حاجة تانية بطّلي ضرب ..
- طيب قول يا حداد .. اسم الله عليك بتدافع عنها ..
- هاقولك .. الهدوم دي من عمايل ثلوانة من ستّه شلبية
- إمتى جم
- مع جده لمّا كان هنا الأسبوع اللي فات .. ومعاهم جزمّتين ..
- جزمّتين برضه من ستّه ..

- من خاله عبد الغني شبايك..
- دا ابن خالة حميده..
- أيوه .. دا مدرس في مصر ومتجوّز بنت الشيخ طه الفشني مقرئ القرآن..
- يالهوي جزميتين
- دا العيال بيروحوا حافيين وعيال بتروح ببراطيش وشباشب زحافي والله فيه عيال بتروح بالققباب .. وعيال غلابة بتروح حافيه..
- علشان العيال تطرّع ..
- وكنت أضحك وعلا صوت ضحكاتي على ما أسمع، ولمّا سمعتني أمي أقهقه قالت وهي تقف خلف باب الوسط:
- مالك يا حسن بتضحك على إيه
- فقال لها أبي:
- تعالي يا حميده .. من الصبح واحنا في مسخة ..
- وجاءتنا أمي مبتهجة وجلست بجانب أمي لببية التي قالت لها:
- بقه حسن يجيله هدم وحاجات من سته وما شفهاش..
- لأ والله أبدًا قلت إنك هاتشوفها يوم المدرسة
- هوّ أنا مش هفرح لحسن
- عارفة والله .. تعال .. تعال ..
- وأخذتها أمي إلى دولابها .. في غرفتها وأخرجت لها البوّة وأفردت لها الجلايب واحدة بعد الأخرى وكذلك الحذاءين وكانت جد مبهورة وهي تقلّب في الجلايب والجزم ورقعت زغروده تلتها بزغرودين ثم قالت:
- ليك حق الولد يتحسد ما توريش الحاجات دي لحد..

- حاضر يا لبيبة..

.. وكنت قد تركت أبي وتبعتهما ووقفت بباب الغرفة وكنت ممتنًا بحب وخوف أمي لبيبة .. وشعرت بأن أمي لبيبة من معدن طيب ولكن عندما تختلط بأهلها وتتأثر بكلامهم تنقلب على أمي، وداخلني اطمئنان عميق تجاهها ولمّا تقدمتهم وهما خلفي خرجت من باب الوسط فلم أجد أبي ولمّا انقلبت إلى الزريبة وجدتها دون الحمار فأيقنت أن أبي هرب منّي إلى الغيط .. وسمعنا صوتًا عاليًا خلف شبابيك الزريبة .. وكانت أمي لبيبة تهوى سماع ما تقوله زوجة هاده فهرولت قرب فتحة الشباك وأمسكتني من كتفي وقالت في همس اسمع:

- هوّ الفرّح على طول في دارهم.

- هوّ في إيه يا خضره

- زغاريت .. زغاريت .. يا ترى جابت ولد تاني

فغزرتي أمي لبيبة وهمست:

- دي بتتكلم مع شوق مرات عسر..

فقالّت لها شوق بصوت عال وهي تقف فوق سطح بيتها..

- دي زغروده لبيبة .. أم حسن ما بتعرفش..

- هيّ الدنيا اتقلبت بقه لبيبة بتزغرت معقولة فرحانة لضرتها..

- لا يمكن الدنيا تبقه على حال واحد

- إزّاي يا شوق..

- يا بو الدقيق يا بو النخال .. انزل يا عم اركب يا خال..

- مش فاهمة إنت معايه ولاّ معاهم..

- سيبي الناس تفرّح يا خضره

- عمر الفرّح ما دخل دارنا..

- إنت وجوزك بتوع غم..

- إلهي تتهد دورهم..

- ليد كده يا خضره .. اسكتي أحسن حد يسمعك..

.. وفي عنف صفقت أُمي لبببة ضلفة الزربية وزعقت .. روحي يا خضره جتك مصيبة..

فقال شوق:

- شوفي جالك كلامي .. الرزعة دي رد على كلامك .. سمعوك يا خضره

- تلاقىها اللي تنتص في نظرها لبببة..

وانقلبت أُمي لبببة تحكي لأُمي عما سمعته كلمة كلمة .. ف قالت لها أُمي:

- هانعمل إيه ساكن ورانا ناس غجر..

.. ولما جاء أُمي في الليل حكيا له فقال .. ما يجراش حاجة غصب عنهم معذورين..

ومرّت أيام فيها وعيت لما يدور في بيت عمي دردير من حبهم الغريب لابنهم، وفيها تألمت لكراهية الجيران لنا بلا أية أسباب وفيها داخلني شعور قوي بأنه لابد أن أحتمي من هذا المجتمع .. فيه الكثير والكثير الذي لا أستطيع فهمه وما هي أسبابه ولماذا يقدّم الحب في طشت ولما لا يقدّم في كوب نظيف، لماذا الشطط والتقلّب والتمرد والكراهية ومعاملة الناس بعضهم لبعض في خشونة ولماذا الكلاب وكثرة نبجها وكيف يتم إعدامها في مشاهد قاسية مؤلمة ولماذا لا يقتني الناس في بيوتهم لمبة نمرّة خمستاشر، ولماذا اللمبات الصفيح المدخنة التي تركّ الأنوف وتسد الرئة وما هو البديل، ولماذا إذا وجد الأطفال في قريتي طفل أبيض أو نظيف نعتوه بأفطع الصفات .. لماذا هذه النفوس الضعيفة الضائعة .. لماذا كانت قطيفة زوجة جدّي تقدّم لأبي الطعام في حراسة من في البيت وأمام جدّي، وكيف لها بهذه القسوة تضع الطعام لأبي في بقوشه من الفخار مثل التي يضعون فيها الطعام للأوز والبط .. وكان أُمي يأكل برضا وصبر .. وكان أُمي يحب أخيه دردير مثل عينه ولو كان أحد

مكانه لكره أخيه لأن أمه قتلت أخته الوحيدة .. ربما تكون إشاعات وكلام وليست حقيقة .. إلى هذه الدرجة خاف جدّي على ابن أخيه محمود من أولاد عمه أولاد مخيون أن يقتلوه فأخذه وهو في عمر الثالثة عشر عامًا إلى الحجاز ليحج معه خوفًا عليه، ويقولون إنه خاف عليه من أولاد مخيون وخاف عليه أكثر من قطيفة ويقولون .. لماذا شقيقتا دردير السيدة وشفقة يحبون أبي أكثر من أخيهما دردير .. أشعورهم بأنه مظلوم أم أن حداد ودود وحنين عليهما .. ولماذا يحبني عمي محمود بهذه القسوة .. لماذا لا يقترب مني ويحتضني في صدره إن كان يحبني حقًا .. لماذا هذا الجحود في الحب .. آه كم أحببت عندما جاءت زوجة أبي محمود وأمها أم إبراهيم البكلييه إلينا في زيارة لنا وأنا في عمر بعد الرابعة وجلسا في غرفة أُمي يحكون ويضحكون حكايات لم أسمعها من قبل وكانت أُمي تستمع إليهما في شغف ومن ضمن الحكايات حكايات عن حب ابن عمي عبد المنعم ومقداره في قلب أمه وأبيه .. ويحكون عن الغيظ وأحواله والأكل والشرب والحلابه، وكان من أكبر الأحداث التي أحببتها في حياتي هو سماع حكايات الست مجيده القطان وأمها أم إبراهيم البكلييه عن البلدة وأهل الخارجة ودار إبراهيم القطان .. كنت أعمل كأني نائم تحت فراشي وأملأ أذني من حكاياتهما اللذيذة والجميلة التي أضافت إلى قلبي ونفسي كثيرًا من البهجة والأمان، وكم كنت أتمنى أن تأتي زوجة أبي محمود كل ليلة هي وأمها عندنا لأسمع منهما كل الدنيا اللتان تعرفانها .. وأجمل ما في زيارتهما لنا أنهما يكلمان أُمي في ود وحب وكانا يظهران لها أنهما معها قلبًا وقالبًا وكانا يدعوان لها كثير من الدعوات خاصة وهما ينصرفان لا تتقطع أي منهما في الدعاء من باب الخزانة وحتى يخرجان من الباب الخارجي للبيت:

- ربّنا يخليهم لك، يا زينة يا منورة شنشور، يا غالية عندنا، يا أم حسن ربّنا يخليه وبيبارك فيه، جيتي مليتي الدار خير والدار بقه لها حسن وبقه فيها ناس صبرت ونلت يا حاج حداد .. ولمّا كانا يجدا لببية صامطة يجاملانها .. ربّنا يعوّض عليك يا لببية..

سر قاعة الفرن

في بيتنا الكثير من الغرف وكل غرفة لها خاصيتها .. في المندرة نور وصالون الكنب ونافذتان كبوابتي في عصر الممالك، وفي شباك الكتب وآخر المجالات هدية لطيفة وسميرة لنا وفي هذه الأوراق معارف ومعلومات وثقافات وخلف شباك منهما توجد الطرنبة (الطلبة) وحوض أسمنتي يُصب فيه ماءها وفي آخر الحوض تظهر فوهة ماسورة طويلة تمر من تحت سور البيت والسكة وقد غطيت بطبقة سميكة من طين وتراب الأرض وتصل نهاية الماسورة في الجهة الأخرى إلى الترعة الكبيرة ليتم تصريف مياه حوض الطلبة مباشرة إلى الترعة، حيث تمتلئ ترعة البلدة بمياه النيل من مصبها في قرية يسمّان وتختلط طول الطريق بمياه أخرى من باقي مياه الري في الأراضي الزراعية والتي تزيد عن حاجة الحقول يقوم الفلاحون بتصريفها في مياه الترعة ومياه الطلبات الخاصة في البيوت مثل مياه طلمبة بيتنا، وللترعة الكبيرة فوائد كثيرة فتصرف مياهها في فروع كثيرة (ترع صغيرة) لتمد الكفور والنجوع والبلاد البعيدة بمياه الري على جنبي طريقي امتدادها .. وعلى برّي الترعة تُسقى الحيوانات ويتم نطل المياه لرش الزراعية في مدخل كل قرية ويقوم موظفون مثل موظفي البلدية برش كل زراعية (مدخل البلدة) بواسطة جرادل وكيزان حتى يكون مدخل القرى نظيفاً وجميلاً وخاليًا من التراب، ونساء القرى أول من يفرح بمياه الترعة حيث يهلعون إلى شواطئها لغسل المواعين والهدوم وغسل القمح ومنهن من يتدارى من المارة ويستحمن .. إنه عالم يكتظ بالنشاط البشري حول المياه في قريتي وكنت أشعر دائماً أن عالم الترعة ومياهها عالم كبير يتم خارج بيوتات الفلاحين، وأنه بدون الترعة تموت الحياة في الحقول والقرى والكفور، ونسيت أن أقول على الترعة ياما نشوف من الخبايا الكثير ومن الجمال أكثر حيث تتعري النساء، وكم كان إنبهاري بعريهن وأنا صغير وشعوري بأنه لا يوجد أجمل من عري النساء على حرف الترعة، ولكن بعد ذلك تركت حرف الترعة لتمرّدي على كل النساء البلدي في قريتي عندما رأيت ساق سميرة وجسد العروس .. فإن خيرُوك أن تأكل باذنجان أو تأكل تفاح فماذا تأكل، في غرفة أمي لبيبة لا أطيق الجلوس فيها وكنتُ أخاف منها نفسياً وأهرب إلى داخل البيت وكان يَكفيها وجود سعاد وعبد العزيز فيها بصفة دائمة، وفي

الخزنة (غرفة نومنا أنا وأمي والذي رافقنا فيها بعد ذلك أخي محمد) في هذه الغرفة النوم الجميل وحكايات أمي اليومية بما حدث كل يوم في البيت، وإذا لم تحك لي ونامت قبل أن تحكي أو نامت وهي تحكي من كثرة التعب أنام على صوت شخيرها واستمتع به، وفي غرفة الغموس التي يوجد بها كل مؤن وتموين البيت لم أكن أدخلها إلا قليلاً وكنت أخاف دخولها لأنهم كانوا يقولون لي إنها منشعة وجدارها متهرئ حتى بعد سطح الأرض بمتر لوجود بئر شرش أقاموه تحت الأرض لتخزين شرش معمل الألبان الخاص بحسين ابن عمتي، وكنا نتحمل ما أصاب جدار بيتنا من هلاك قرب هذا البئر ولم يكن أبي يستطيع أن يقول له شيئاً أو يشتكيه لأنه ابن بنت عمه .. وكان حين يشعر بأن أبي متضرر من هذا البئر ولم يكن يقبل هو على نفسه أن يتآكل جدار بيته في غرفة الغموس ولكن كان حسين نهائياً للفرص من أجل مصلحته واستغل كل أخواله خاصة خاله محمود الشقيق وكان عمي محمود يعطيه فرصة أو فرص كثيرة لكي يتمعيش حسين، وفي القرى تنتشر هذه التقاليد والأعراف حيث يتيح الأخوال لأبناء شقيقاتهم فرص للحياة، وكنت أهرول إلى داخل الزريبة لأسمع خناقات وشتيمة دار هاده لبعضهم البعض، وكم كنت أمقت هؤلاء الناس حتى عندما كبرت وكان هذا جانب خلفي سيء لبيتنا ويضاف هذا السوء بئر الشرش الذي ظل طيلة حياتنا تهديداً لجدار بيتنا خاصة جدار غرفة الغموس، وكان هناك جزء هام في البيت أحبه وهو الجلوس قرب الكانون بجوار أمي وهي تسلق أو تطيب الأوز والفراخ واللحم فوق عيونه المشتعلة (فوته) حيث كانت أمي تضع ما طاب من كبد وقوانص الطيور وقطع من اللحم في صحن (طبق) وتناولته لي كي أتصبر به لأنها كانت تقول وهي تعطيه لي .. اتصبر .. اتصبر .. وكانت هذه لذة الكانون، وإذا رأيت أمي لبينة أو أم إبراهيم جالسا بجوار أمي وألثم ما في الصحن تذهب كل منهما بعيداً لإعطائي الفرصة لأكل براحتي وكانت أمي قد أعطت لهما تعليمات بذلك حيث قالت لهما مراراً .. دا ابني جه بعد مرار ما بحبش حد يشوفه وهو بياكل ..

.. وكم أحببت الجلوس عند الفرن (فرن الخبز) خلف أمي وهي تخبز وكان أبي يلازمني إذا كان في البيت لأنه يهوى أكل الخبز الطري والفطير أو البتاو السخن

بطبق العسل الأسود مخلوطاً بزبدة، وكنت أشاركه ما استطعت ذلك، وكان كل من سعاد وعبد العزيز يأتیان من غرفتهما ليأخذا من أُمي خبيز الفرن وينقلبان بسرعة إلى غرفة أمهما، وكانت أُمي تتراح لذلك حيث إنها لا تحب أن يراني أحد وأنا أأكل وحتى إخوتي تخاف عليّ منهما خاصة وأنهما يأكلان قليلاً..

.. ولكن ما لم أستطع كشف سره هو القاعة .. لماذا يحب أُمي القاعة .. لماذا يعشق لقاء زوجتيه في القاعة .. لأنه تربى فوق الفرن ونام على قبتيه في الشتاء أم لأنها غرفة داخلية أم أنه يفضل لقاء زوجتيه فوق أرضية ناشفة فيكون ذلك فيه عدلة أنسب وأضبط للقاء يكون أقوى من لقاء المرأة فوق مرتبة لأن القطن يهبط فيغطس اللقاء معها .. كل هذا لم أقتنع به لكن أكيد هناك أسباب أخرى لسر القاعة في اللقاء .. ورحت أتذكر لمّا قاله لي أُمي مرّة عندما فاتحته في علاقته بلظيمة وأنا صغير:

- نفسي لظيمة تيجي تعيش في البيت مع أمك وأمك لبينة
- كده هاتبقه مشكلة ثلاثة ضراير في بيت واحد..
- تعرف أنا نفسي في إيه يا حسن
- قول يا به ما تداريش عليّ حاجة..
- نفسي لظيمة تيجي هنا وأخذها وأدخل بيها القاعة
- أده كده إنت مغرم بيها..
- آه لو تعرف جو وريحه وضملة القاعة بتخليني أد إيه مبسوط ..
- بس هيّ عندها غرف كتير نضيصة مش هاترضى بالقاعة
- طيب ما حنا عندنا قَوْض كتير نضيصة بس القاعة دي بتاعتي..
- يبقه أكيد فيه سر
- يا بني إنت لسه صغِير لما تكبر هاتعرف حاجات كتير..
- قوليّ على موضوع القاعة دلوقتي وخليّ الباقي بعدين..

- كان سني خمستاشر سنة .. كنت يدوبك بالغ، كنت ساعات باوصل البيت قبل المغرب وكان عندنا في البيت ثلاث قيعان وكل ليلة قبل المغرب لازم تتحمي القيعان، وكل قاعة تحميها واحدة من الشغالات .. كنت دايمًا أحب أبقه بعيد عن وش قطيفة وأهرب للقاعة الكبيرة اللي بنام فيها مع أبويا .. دخلت القاعة أمدد جسمي على ما يجي أبويا وإخواتي من الغيط .. لقيت الحماية شغالة في الحطب والفرن مصهلل والدخان شغال على فوق .. طلعت فوق الفرن ونمت على ظهري وقلت للشغالة لمّا أبويا يجي صحّيني .. ما نمتش وبصيت في البحرايه وقلت للست:

- بالراحة شوية الدخان جامد

- حاضر .. عيني .. إنت غال والطلب رخيص

- وبعدين

- بصّيت تاني لقيت الست عريانة كلها من تحت .. قلتلها اتغطّي .. ضحكت وقالت الدنيا حر أوي ما تبصش وضحكت تاني .. يا نهار إسود ولكني قلت حاجة .. كانت رجليها وط .. وك .. حلوه أوي وملظظه .. والله يا بني لقيت نفسي راجل جامد أوي ولأول مرّة وصهد الفرن والدخان وسخونية جسمي من النار اللي أدت فيّه .. وبعدين لقيت نفسي بقولها:

- فين قطيفه

- عند الكانون الجوّاني

- وشفيقه والسيد

- معاها

- جوزك ميّت من كام سنة

- من عشر سنين

- ما تجوزتيش ..

- لأ .. من ساعتها وأنا عندكم آكله شاربته نايمه ..
- طيّب اقللي القاعة بالترباس
- والدخان
- بطلي دس حطب وتعالى ..
- يالهوى ..
- تعالى فوق خلّصي ..
- وبعدين ..
- طلعت ونامت معايا ولا حد في البيت داري .. وفجأة سمعت صوت أبويا داخل الدار ومعاها جماعة الغيط .. جريت هيّ وفتحت الباب وقعدت تدس الحطب وعملت كإني نايم بشخّر ورايح في ستين نومه ..
- يعني
- أيوه يا بني غصب عني دي أول مرّة وفي القاعة ولا يمكن يبقه مزاجي مزاج إلا في القاعة ..
- وبعدين اشتغلت معاها على طول ..
- خفت بعد كده وما تكررّتش تاني في البيت ..
- خدّتها برّه البيت ..
- بقت تروح بيتها وتحمي قاعتها ومن ليلة للتانية أروح لها ..
- وبعدين ..
- عرف أبويا ومسكني بنفسه عندها وقال لي بقه كده يا حداد تخسر دينك
- جوّزني يا به ..
- ليك حق هاجّوزكم .. بس إنت أزهرى اتعلّمت في الأزهر سننتين ليه تعمل كده خلّي الكلام ده لدردير أو محمود ..

- دي حاجة ودي حاجة.. ما كنتش أعرف إن النسوان حلوه كده يا به..
- .. ضحك أبي كثيرًا وقال:
- عايز تتجوز مين
- لبيبة بنت خالي محمد..
- ودردير..
- إسألّه ..
- وعبد الحميد
- إسألّه..
- مين عبد الحميد..
- عبد الحميد خليل الهلالي ابن أختي السیده لمّا مات أبوه .. أبويا جابه هوّ وأمه البيت وبقه له أبوه وجده
- ودردير اتجوز مين
- منصوره من البكل
- وعبد الحميد
- اتجوز بنت عفيفي النوبي حميده أخت الشيخ عبد الرزاق اللّي كنت معاه في الأزهر..
- وأبويا محمود اتجوز مين..
- اتجوز تقيده بنت عبدالله قبلهم بكتير..
- واتجوزت أمي لبيبة على الفرن..
- مارضيتش .. قالت حرام عليك لازم تفرّح السرير..
- وبعد كده رحت الفرن..
- بعد أسبوع بقيت أروح القاعة وأقول لها تعالي ورايا..

- وسمعت كلامك..
- حلفت عليها بالطلاق .. بقت زي السريح والزيت وبقت تسبقني وتروح
توضّب القاعة كل ليلة ..
- حبّت القاعة ..
- هيّ نفسها شافت إني في القاعة فارس وانتبسطت أوي في القاعة وقالت يا
ريتنا ما جنبنا سرير ..

كان سر القاعة كبيرًا وسرّه مع أبي منذ صغره، ولم تكن القاعة فقط وقت لقاء، لكنها كانت مكانًا لكثير من الحكايات والخبايا .. كنا نستقبل ضيوفنا في القاعة خاصة وقت الشتاء .. يأتي لزيارتنا عمي دردير وزوجته وأولاده وعمي محمود وزوجته وأولاده، وعبد الحميد ابن عمتي وزوجته وأولاده، وعبد اللطيف أبو حربة زوج الحاجة أم سلامة بنت عمتي أخت أبويا محمود .. حكايات وضحك وحواديت وذكريات زمان وشاي وحلبة ومص قصب وبرتقال ويوسفي وعنب وفول سوداني .. في القاعة وفوق فرنها وصهد دفنّها، وفي ليالي أخرى تأتينا سيدات صغيرات في السن تجلس الواحدة منهن على مصطبة القاعة لتحكي شكوها أو حكايتها لأبي إذا كانت مع أبيها أو شقيقتها أو زوجها ويقترح أبي الحلول لها ولا تغادر الواحدة منهن إلا وقد اتفقت مع أبي على حلّ يرضيها مع خصومها .. وقد لا يصدّق أحد أنني أتذكر هذه الحكايات والشكاوى وآلام النساء ودموعهن لأبي وبالاسم .. كم كنت في قمة نشوتي وأنا أسمع تلك القضايا والمشاكل لهؤلاء النسوة وأسمع باستمتاع يفوق الوصف .. وكانت هناك سيقان أجمل من سيقان التربة وكنت أراها في كل امرأة شاكية وكأن النساء كانت تتلذّذ في تعرية جزء من ساقها وهي تحكي حكايتها لأبي .. كل واحدة على أد شبابها وعلى أد ميوعتها وطراوتها وكنت في كل الأحوال وأنا أرى شاطئ السيقان على مصطبة القاعة كل ليلة مع أبي .. لدرجة أنه إذا قام زوجها بضربها على مؤخرتها أو عضها في صدرها أو أصابها في ظهرها أصرت المرأة واحدة بعد الأخرى أن تكشف عن جسدها ليرى خالها الحاج موضع الضرب والوجع .. يالهيوتي

على بدع الستات، وكنت أقول في نفسي أنه يجب على هؤلاء النسوة أن يرحمنني من شدة الإغراء لكنني في داخل نفسي أتمنى أن تتعري النساء أكثر من ذلك لأرى ما تظهره أجسادهن من أسرار، وفي ليلة كانت إحداهن شديدة الهزار مع أبي وكانت تشكو من قلة لقاء زوجها بها فقال لها أبي:

- يعني هيّ الحاجات دي لازمتهن إيه يا فوزية..

فراحت في الضحك ثم قالت وكأنها تعترف بحقيقة:

- والله يا خال أهو ببيل الريق برضه ما حدش يقدر يستغنى ..

وراح أبي معها في ضحك طويل وقال لها:

- والله صدقتي يا فوزية دي حقيقة..

فقالت له فوزية وهي تنصرف:

- شوف لك صرفه يا خال الحاج فيه دا حنا كلنا عايشين علشان اللقمة والهدمة و ..

- خلاص يا فوزية عرفنا ..

وكانت أمي وأمي لبيبة يسمعا حكايات النساء لأبي في الراحه والجاية أمام باب القاعة، وكانت كل منهما تتعمد قضاء حاجيات المنزل كشيء من الذوق لتحكي الواحدة منهن لخالها الحاج بلا خجل .. غير أن أمي لبيبة كانت تودّع كل واحدة منهن عندما تخرج من عند أبي كأن تقول للواحدة منهن:

- يا ختي روعي كفاية عليك العيال

- جتك عزا يا بت يا .. دانت وشك مكشوف..

- جته نيله أبوكي عايز ياكل حقك..

- كده جوزك سبعة إردب ثمانية إردب..

- جاتها نيله أمه بكره تموت .. اصبري ..

وكانت أمي تضحك على تعليقات أمي لبيبة لهن .. وكأن بيتنا ينام في جدرانه
وخلف أبواب غرفه حكايات التاريخ الاجتماعي لكل القرية، حكايات كل النساء في
قريتي سمعتها في قاعة أبي، اقتراحات أبي لحل كافة أنواع المشاكل وعيتها ..
سيقان نساء قريتي على حرف التربة وفي قاعة بيتنا وفي بيت لظيمة رأيتها
واستمعت بها .. على حرف التربة سيقان كفروع شجرة جميز وبعضها توت وأخرى
جذوع نخل، وفوق المصطبة كانت السيقان أرقى مثل عود شجرة كافور أو فرع
جزورينه أو عود قصب، أما سيقان بيت لظيمة فهي مثل قطع من الجاتوه أو هي
بالأحرى مارون جلاسيه أرقى أنواع الجيلاتى .. غير أنه في معظم الليالي وما كان
يعكنن مزاجي هو مجيء امرأة تدعى رُمّانة العكله تأتي لأبي لتحكي له مشاكلها مع
أبنائها .. وهي أول امرأة تقول لأبي يا حاج حداد وكان أبي لا يؤاخذها لأنها امرأة
كبيرة في السن وكانت متزوجة من واحد من ولاد مطرفي أبو عافيه ومات رجلها
عنها وهي صغيرة وترك لها أربعة أولاد ذكور وقطعة أرض صغيرة، ولم تكن حلوه أو
جميلة أو حتى مقبولة ليتزوجها أحد بعد زوجها، وعند باب السور تهرول وتقول
مناديه يا لبيبة .. يا لبيبة وكانت أمي لبيبة تجزع منها فتقول لها خُشّي يا رمانة
وتدخل حتى إن لم يقل لها أحد خُشّي فتهرول نحو القاعة حافية القدمين وتقول:

- سالخير يا حاج ..

وتقف في البحرايه أمام فوهة الفرن ليلتهمها الصهد والحرارة فتقول:

- هوّ دا اللّي يطلّع الوجع من جدّتي (جسدي)

فيقول لها أبي:

- إنت زي الباجور هوّ فيه حاجة تقطع فيك ..

- والنبي يا حاج حوش عني العيال قرايبك .. أنا خلاص خلصت ..

فيضحك أبي ويقول:

- لو كنت مش نكدية كنت اتجوزتك يا رمانة ..

وتضحك ملئ فيها مجرد أن سمعت سيرة الزواج فتتدلّل وتقول:

- والنبي يا حاج دانا فطيرتي زي المشنة وبتاوتي عجب ولا بتاوة القطاطنه

..

- لا مهما تقولي دا إنت تسمي البدن..

وتضحك رمانة وتقترب من حرف الفرن العلوي وتشلح هدومها وتمسكها بيدها عند صدرها فتلتصق بطنها بفوهة الفرن الساخنة فتستكين للحرارة التي تمتص البرد من بطنها ثم تستدير وتعطي ظهرها للفرن لتسحب فوهة الفرن البرد من إلتها وظهرها، ورأيت رمانة بساقيها المكروعتين وركبها المفككة مثل شقافة زلعة تهشمت فوق الأرض وكرهت النساء لحظات لما فحصت بطنها وصرتها وحتى إلتها وظهرها وساقيها وركبتيها .. وقلت في نفسي دي حاجة نيله وآه من سروالها (لباسها) الذي يتدلى طرفه حتى قرب ركبتيها في شكل كورنيش وكان هناك طرف من التيل يتدلى أمام ساقيها ولما أمعنت النظر تأكدت من أنه الحبل الذي ربطت به سروالها في وسطها بديلاً عن الأستيك، وجال في خاطري لحظة أنها ممكن تكون رمانة هي أم الشعور التي تقعد عند البحر في منزل عامر .. وكان أبي لا يرى ساقيها ولا سروالها ولا شيء من جسدها لأنه كان يجلس في داخل الفرن ولم يكن أبي في حاجة لأن يرى شيئاً أكيد هو يعرف دهاليز جسدها المهين فلماذا يرى، إن أبي مثل كل الرجال مهما كان تقياً يحب أن يرى ما في المرأة من جمال، ولو لم يكن أبي جميلاً في نفسه لما كان له مزاج في لقاء المرأة في القاعة أو في غرفة التبن أو لقاء المرأة التي لقاها فوق فرن أبيه لأول مرة في حياته، إنه رجل يتناول النساء في تذوق ومزاج وحرفه، إنه رجل في النهاية يتزوج من المرأة التي تأخذ لبه .. وهو رجل جامع للنساء فهو يحب أن يذوق طعم المرأة العاملة أرملة النفر فيتزوجها وامرأة الطبقة من طبقته مثل أمي لبينة وأمي والمرأة الراقية مثل لظيمة وحتى آخر مطافه بهن أنه تزوج من عكيلة رغم أنها نحيفة الجسد لكنها حركه (جذابه) هي المرأة الحركات ولم يكن أبي طيلة حياة رجولته قد مرّ بامرأة حركات، إذا أبي يقابل كل النساء ليحل مشاكلهن ..

شبت رمانة من تدفئة جسدها في نار الفرن وقرفت أنا من بشاعة جسدها ثم
افترشت البحرايه (هي الدائرة المواجهة للفرن والتي عادة ما تكون غويطة عن باقي
أرضية القاعة .. جلست القرفصاء وراحت تنادي:

- يا لبييه يا لبييه ..

وجاعتها أُمي لبيبة وهي تبسم:

- عايزه إيه يا عرّة العكل ..

ولم تبال بما وصفتها به وقالت:

- عندك أكل إيه ..

- إنت عايزه إيه ..

- شوية ملوخية ما تجيبيش بتا ..

ثم طوّحت التربيعة التي كانت تداري شعر رأسها المنتوف فوق المصطبة وراحت
تنكش في رأسها بأصابعها فقال لها أبي:

- بلاش يا رمانة قمل دلوقتي .. الله يرضى عليك القاعة نضيفه

- ما عنديش حاجة راسي بتاكلني ..

- تبقى استحمي وبعدين إنت هاتاكلي روعي إغسلي إيدك من الطرنه ..

وهرولت إلى السور الخارجي تغسل يديها وسرعان ما انقلبت لتجد الملوخيه والعيش
القمح وراحت تأكل في شراهة وقبل أن تنتهي قالت بصوت هامس وهي تشير
بذراعها نحوي:

- اسمه إيه النبي حارسه

فقال لها أبي:

- حسن .. ما شاء الله حسن ..

- أحسن يا حاج إنك جبت عيالك من برّه

- يعني إيه يا رمانه..
- كل ولاد أبو عافيه من أب وأم ملحوسين .. لكن..
- فهمت يا رمانه..
- هي فين الست..
- جوّه..
- شفتها مرّة واحده ..
- يضحك أبي ويقول لها:
- تلاقى بتخاف منك..
- إنده ليها يا حاج عايزه أشوفها..
- يا رمانه كُلي وروحي..
- طيب مش لما أحكيك عن العيال واللّي بيعملوه فيّه..
- إنت لسه ها تحكي..
- والنبي إنده الست..
- مش معنى دي ست ودي لبييه..
- دي زينة الستات جبتها إزّاي دا إنت نمر..
- ويضحك أبي:

- يعني لبييه مش عاجباك..
- لبييه منّا وزينا ما تغلّطنيش يا حاج..
- .. وراحت تقضم اللقمة من رغيف العيش مباشرة ثم ترفع الصحن بكفي يديها لتشره، وكان حسن يتأملها من فوق الفرن وشعر بأن هذه الرمانة صدمة وهذه المرأة سوف تبعده عن التفكير في النساء فقال لأبيه هامساً:
- هيّ قريبتك يا به..

- كانت مرات راجل قريينا، ومن غير كده يا بني طالما الإنسان دخل بيتك
بيقه قريبك..

وكانت رُمّانة تسمع فقالت:

- يا سي حسن مالناش غير الحاج وياما حلّي مشاكل وأنا قرييته قبل ما
تجوّز قرييه .. مش كده يا حاج..

- كده يا رمانة .. خلّصتي أكل..

- أيوه هاروح أشرب من الطرنه..

ولمّا عادت قالت لأبي:

- هاجيلك يوم تاني صحن الملوخية كبس على دماغي وهارّوح أنا..

- طيّب رّوحي والمره الجايه هاتشوفي الست..

- سبتك بالخير يا حاج..

وأمسكت بها أُمّي لبيبة في وسط الدار الخارجي وقالت لها:

- طول عمرك مرّه (امرأة) ناقصه .. بقه أنا مش عاجباك يا عُكله يا عرّه..

- إوعي يا لبيبه .. سيبيني أروح دا إنت حبييتي والله..

- طيب هاسيبك هوّ إنت راجلك مات بدري من شويه..

.. أم سلامه حب جديد ..

كنت أحب أبي محمود كثيرًا من بعيد .. كنتُ أحبه لاستقلاليتّه عن الناس فهو رجل
ساكت لا يتكلّم إلّا قليلاً ويعتني بزراعته وفلاحته للأرض وكان أنفاره يخشونه لجديته
معهم، هذا عكس الأنفار عند أبي وعند أبي دردير فهم جميعًا نصف عمل ونصف
بلطجه وكانت أرضنا تنتج نصف ما تنتجه أرض أبي محمود وكذلك أرض عمي
دردير وكانت أُمّي تقول لأبي .. بيت المهمل يخرب قبل بيت الظالم .. وكان يقول

لها أنا ما قدرشي أدّي وقت أكثر من كده للأرض أنا عندي مصلحة الناس أهم من مصلحتي، فتقول له أُمّي هوَ إنت قاضي البلد وكان ردّه دائماً .. الصلح بين الناس خدت عليه وما تعرفيش أنا ببقه سعيد أد إيه لَمّا باصلح بين اتنين .. فتقول له أُمّي بس إنت معظم زباينك حريم وأنا بغير عليك .. فيضحك كثيراً ويقول .. إنت بتغيري عليّ طيب كويس على الأقل تغيري على طول ..

.. وكنت بيني وبين نفسي أشعر بأن أبي يقوم برسالة كبيرة وأن هذا هو المفروض في بلدي، فأبي فلاح ويقرأ القرآن في الكتاب ويقرأه وهو ذاهب إلى الغيط ويسمعه من الراديو صباح مساء، إنني أريد أن أكون مثله وأتزوج كثيراً من النساء وأقرأ القرآن حتى أكون دائماً في النور كما يكون أبي، وتأكدت بزيارة رمانه العكله لنا أن أبي يشارك الناس جميعاً مشاكلهم الجميلات والقبيحات والفقراء والبسطاء ومتوسطي الحال، وتعوّدت على شيء أن يزورنا الناس في المساء وأن أسمع حكايات الست أم إبراهيم البكلييه حماة عمي محمود .. وحكايات الست مجيده مرات عمي محمود عن الأكل والشغالات والأنفار وشُغل البيت .. أخذت منها ومن أمها النبتة الأولى في سماع الحكايات والعادات في البلد ولولا هما لما نبت حبّي وشوقي لأن أسمع المزيد من الحكايات ولا أن أعرف أشياء أخرى عن الناس في بلدي وزاد حبي لزيارتهما لنا لأنهما أيضاً كانتا تحبّان أُمّي .. وكانت هذه أول حكاية أو بداية حبّي للمجتمع ككل وأن هناك أمل للحياة الجميلة في قريتي وأنه رغم كل هذه الأحقاد والحجم الكبير من الكراهية في البيوت هناك كلّوبات من الحب حولي، وكان ذلك يسعدني كثيراً ويسكن ألمي من أهل درويش ورحت أتخذ من الحب حولي سلاحاً للتغلب على جوانب الألم في داخلي، وكانت تزورنا كل فترة سيدة سوداء مثل أهل السودان قصيرة منحنية الظهر تزورنا هي وزوجها عبد اللطيف أبو حربه، هذه اسمها أم سلامه عرفت أنها ابنة عمتي فاطمة وهي حفيدة جدي السيد والد أبي محمود وكانت غير جميلة أو حلوه أو حتى فيها لمسة من لفتات النساء .. لكنني وبالتدريج أيقنت أنها جميلة في روحها وفي كلامها وفي حكاياتها والأهم أنها كانت تتودّد إلى أُمّي وتحبّها .. مات جدي السيد صغيراً قبل أن يصل إلى سن الثلاثين عاماً، فتكفّل جدي على أبناء أخيه وكان لجدي السيد ثلاثة من الأبناء .. خضره أم حسين وعبد العال وفاطمة أم

الحاجة أم سلامه وعمي محمود .. وكان لجدي علي أحكام وأقوال وأفكار جميلة وواقعية .. حيث أنه لما بان له أن ابنة أخيه فاطمة أم الحاجة أم سلامه ليس فيها مسحة حلوة يقبل عليها رجل يتزوجها فأخذ الرجل يفكر كيف يزوج ابنة أخيه هذه .. وفكر في سلامه .. وكان سلامه هذا يبلغ من العمر أربعين عامًا ولم يتزوج بعد .. وسلامه هذا آخر سلالة العبيد عند جدي .. عبد مطيع أمين كلما ذهب جدي في مكان كان معه في خلفه يخدمه ويطيعه ويقضي حاجاته .. وكان جدي يعامله معاملة الابن ويحنو عليه دائماً .. ولما قرّر جدي أنه لابد عليه أن يزوّج ابنة أخيه فاطمة قرّر أن يزوجه لسلامة فهي بالنسبة له أمله وهو بالنسبة لها رجل وهي توقن تمامًا أنه ليس في مقدور إمكانياتها أن تتزوج أفضل منه .. كان أبي يجلس وسط أبنائه في الحقل محمود ودردير وحداد وبعد أن انصرف الأنفار داخل الغيطان قال لأبنائه:

- مافيش وجب عليّ أجوّزه غير فاطمة بنت أخويا .. وسكت ..

فقال له محمود:

- ما باليد حيلة يا به الحاج علي أختي مش حلوه .. هانعمل إيه ما فيش

حد من العيله عايز يقرب منها ..

- مش لازم من العيله .. وسكت ..

فقال له حداد:

- وهانعمل إيه يا به .. والله أنا بفكر زيّك مش لاقى حد ..

وسكت الجميع ثم راح دردير يضرب كفًا بالأخرى فقال له أبي:

- فيه إيه يا دردير ..

- مش لازم نجوّزها واحد عنده أرض .. إن شا الله نجوّزها حد من الأنفار ..

ينفعل عمي محمود ويزعق في عزّه:

- إزاي إيه الكلام دا يا دردير .. لأ مش ممكن .. تقعد كده طول العمر
وبلاش الجواز إلى هابوطينا كده ..
- ويتدخل حداد في رفق قائلاً وهو يشير بكف يده إلى محمود:
- طوّل بالك .. بالراحة يا محمود لما نشوف إيه اللي عند أبويا..
- فيسكت جدي علي ويهز رأسه وينكش بعصا في حصى الأرض وكأنه يرسم شجره
ويقول في همس عميق:
- طيّب يا حداد خد دردير وسيبوني مع محمود شويه..
- انصرفا إلى داخل الغيط وشدّ محمود من قميصه ليكون في جواره وقال وهو مازال
ينكش في الأرض:
- يا بني هاقولك أنا عايز إيه .. بس خد كلامي وفكّر فيه..
- قول يا به أنا سامعك..
- سلامه .. سلامه ما فيش غيره..
- مش فاهم..
- سلامه بيصلي وولد محترم وفي وأمين وسلامه مش نفر .. سلامه دا
أعتبره ابني الرابع..
- وأمسك محمود رأسه بكلتا يديه وقال:
- يعني سلامه هوّ الراجل .. اللي إنت شايفه..
- وايه الغلط يا محمود..
- لأ ما فيش غلط يا به هوّ سلامه ما فيش غيره .. ما فيش تفكير يغلب
تفكيرك يابه الحاج علي
- .. ربت عمه علي كتفه وقال وهو يتفحصه ملياً:
- صحيح يا محمود يعني أنا مش غلطان لما أفكّر فيه وأجوزه بنتي..

- اعمل اللّٰي إنت عايزه يابه .. والله دا كان رايح عن بالي..
- طيب روح هات سلامه هاتلاقيه قاعد في الزريبه..
- والله يابه أنا بين روحين .. الناس هاتقول جوّزوا العبد والتانيه أختي مش حلوه وقليل جوازها..
- طيب خلّينا شويه يا محمود..
- خلّينا دا إذا جالها حد هاييقه تعبان وفيه أنفار من العيله لكن تعبانين العبد أحسن منهم..
- شوف يا محمود أنا مخليّتش حاجه إلّا وفرزتها وفكّرت فيها .. سلامه لو حظيته في ميزان هوّ أحسن من أي واحد في أبو شاطيه أو حتحوت أوهاده..
- هوّ أهم حاجه يكون فيه صفات أصيله زي الصدق والأمانة..
- على فكرة أصل العبيد دول من أحسن الناس في السودان ومعظمهم من أصل في بلدهم وهّمه هربوا من بلادهم لأن الاستعمار نخر عظامهم وجاب لهم الذل والفقر بدري.. هجّوا من السودان وجم على مصر الواحد منهم هايعمل إيه بيسلّم نفسه لنخّاس يبيعه .. وعلى فكره الناس دي هربت من الفقر والذل يعني همّ أصلاً عايزين الحرية ويمكن يكونوا لقوا بصيص من الحرية في مصر حتى ولو كانوا عبيد والمثل بيقول "إيش رماك على المر اللّٰي أمر منه"
- ما كنتتش عارف كل ده عنهم..
- وبعدين يا بني دا إنسان زُيه زَيْك لَمّا تكرم الناس دى ربّنا هايكرمك ويوسّع عليك..
- إنت عارف يا محمود يعني إيه واحد أصيل .. يعني واحد صادق وأمين وعمره ما يخون .. وأبو سلامه كان أمين وجده وكلّهم كانوا مخلصين وخدمونا كتير أوي طول ميت سنة فانتت..

- خلاص يا به .. إنت فتّحت مخي على حاجات كتير على البركه جوّزها
يا به لسلامه..

- طيب روح هاته..

.. كان دردير وحداد يرقبان والدهما ومحمود من بعيد وهمّا يجلسان في شريحة الذرة
الأولى من الغيط ولمّا وجدا محمود يتجه نحو الزريبه راحا ينتظران في شغف لماذا
يتجه إلى الزريبه .. محمود وقف قرب الباب وراح ينده:

- سلامه .. سلامه

كان جالسًا يغفو .. نطّ واقفًا وأسرع نحو الباب فوجد سيده محمود فتوقف عن هرولته
وقال:

- أأمر يا به محمود

استدار محمود ناحية السكه وقال:

- تعال ورايا..

.. كان عمه يمسح عرقه من شدة الحر فلمّا جاءه محمود بسلامه ابتسم وقال
لسلامه:

- اقعد يا سلامه..

- اقعد اقعد أدامك يا جدي .. لأ لأ ..

شخط فيه وقال:

- بقولك اقعد .. طيب ناولني كوز ميّه من القله

.. ارتبك سلامه ولكنه راح يملأ الكوز من القله وقدمه لجده قائلاً وهو ينحني قليلاً:

- اتفضّل يا جد ..

أخذه منه وراح يتجرعه بصوت كأن شخولاً من الماء ينزل جوفه ثم تكرّع وهو يضع
كف يده على فمه وقال له:

- مش عايز تقعد..
- عيب..
- طيب إنت عايز تتجوز..
- عمري ما فكرت في الجواز..
- ليه هو إنت مش راجل..
- بس دا موضوع صعب .. أتجوز إزاي ومين ها يجوزني بنته أنا عبد يا سيدي أقول نعم وحاضر وآكل وأنام .. ودا كويس أوي وفضل من الله..
- طيب يا سلامه أنا عايز أجوزك ..
- هو فيه حد يكلم العبد عنده بالحنّيه دي..
- أنا طول عمري حنّين عليك
- بس تجوزني دا بيقه كتير عليّ أوي .. وبعدين أنا ما حلتيش اللضه..
- هادّيك فلوس..
- يا نهار مطيّن..
- ليه بتطين النهار
- أقصد إزاي دا بيقه الدنيا ها تنزلزل بكره..
- إنت عارف فاطمة بنت جدك السيد..
- تاج راسي..
- إيه رأيك فيها..
- يا نهار إسود .. وأمسك وجهه بكفيه .. ثم همس تاج راسي ست بنت جدّي خدامها طول عمري يا جد .. حتى الحمير في الزريبه أنا خدامها .. دانا ماليش رأي في الحمير والكلاب .. بيقه إزاي في بنت جدّي..
- يا سلامه يا عبيط أنا خطبت لك واحده..

- يالهوري .. يالهوري..
- بيقه إنت مش راجل وخايف من الجواز..
- لأ والله يا جدي راجل بس تجوّزني..
- هاجوّزك فاطمة بنت جدك..
- يالهوري يالهو الشوم وراح يضرب رأسه بذراعيه..

فشخط فيه سيده:

- مالك إنت اتجننت .. بطلّ لطم..
- .. وجرى على السكه ناحية البحر وهو يلطم رأسه .. يالهوري .. يالهوري.. وكأنه أصيب بلوثة فهرول خلفه محمود وهو ينادي:
- ارجع يا سلامه .. رايح فين تعال كده جدّك هايضربك ويزعل منك..
- توقف سلامه وقعد فوق بريح وانخرط في بكاء شديد وأمسك رأسه بكفيه.. وقف محمود عند رأسه وأمسك بذراعه وقال اهدى .. تعال معايا .. وأخذه عند أبيه علي ثانية وكانت قدماه ترتعش فقال له جدّه:
- إنت مش مصدّق .. أنا ها جوّزك فاطمة .. يا سبحان الله .. اهدى يا سلامه ..
- طيب روح الزريبه دلوقتي .. خده يا محمود ودّيه الزريبه .. عشان إنت غال يا سلامه عندي هاجوّزك بنت أخويا
- .. وأمسكه محمود من كتفه وقال له:

- تعال ورايا هاودّيك الزريبه وأقفل عليك..
- ما تخافش يا به محمود مش ها جري تاني..
- اقعد ورّيح نفسك شويه يا عريس..
- يالهوري .. يعني إنت موافق يا به محمود ..
- إنت زينة الرجال يا سلامه..

- يالهوري يأمه .. يادي النكسه المطبله .. إنتم بتتكلمو جد يا به محمود
- إنت غلبان أوي يا سلامه .. أد كده إنت طيب ..
- أنا خدامكم يا به محمود .. أنا تحت البلغ (الجزم)
- لأ مش ها تبقه تحت ها تبقه فوق البلغ لما تتجوز فاطمة
- إذا ربنا أكرمني بيها .. ها تبقه تاج راسي..
- خلاص يا سلامه .. مبروك عليك
- وتركه في زريبه البهائم يكلم نفسه والدموع تملأ وجهه في ذهول .. وخرج كل من حداد ودردير من الغيط حتى وصلا السكه وتحت الشجرة وجدا محمود يجلس قرب عمه فألقيا السلام وقال أبوهما:
- كيزان الدرہ صاحيه ولأ الدرہ خايب
- فأجابا في صوت واحد:
- كويسه يا به..
- وهز الرجل رأسه وقال لمحمود:
- خد إخوانك يا محمود وسيبوني شويه..
- .. ولمعت عينا جدِّي عليّ بما غشاها من الدموع .. كان الرجل فرحاً وقراره حكم عدل في حياة يحكمها السيد للعبد..
- وراح يحدث نفسه وهو يفرد جسده فوق حصيرة قديمة .. نحن قريبين من تحت فلماذا لا نحكم بالحق .. نحن نعيش مع العبيد والعبيد قريبين منا .. فما بالكم بالقصور التي يمتلك أصحابها مئات الأفدنة والعبيد عندهم تحت وهم فوق فوق، إنني لا أملك غير ثلاثين فدائاً فنحن من طبقة وسطى أو أعلى قليلاً فكيف نتكبر على العبيد، إننا نعيش مع العبيد في أعراف متواضعة يحكمها كثير من العقل وخاب من قال أنا سيد وهم عبيد وهو لا يملك إلا ثلاثين فدائاً أو خمسين .. إننا لسنا سادة ولدتهم أمهاتهم سادة في قصور .. إننا أبناء فلاحين كادحين ولدنا فوق قبة الفرن وتناولنا طعامنا

في البحرايه وقلنا حكاياتنا فوق المصاطب وجلسنا في الدكاكين نشرب الشاي وندخن
الجوزة مع عامة الناس .. إننا الطبقة الوسطى الموسرة .. حلقة الوصل القوية التي
تربط قمم الأغنياء والفقراء .. أو التي تربط واسعي الثراء بالأجراء .. فلماذا نتكبر ..
ليس هناك داعي لأن نتعالى ونتكبر، وكل من في بلدنا مثلي من أولاد القطان وأبو
سعدته واليكل .. فلماذا نتكبر وحالنا جميعاً من حال بعض .. فلماذا لا نزوج بناتنا
من العبيد .. أقصد وعلى الأقل لماذا لا نزوج بناتنا الوحشات من العبيد، أليس في
هذا خلاص .. أتظن البنت الوحشة عانس طيلة عمرها أم تتزوج من عبد يبل ريقها
وتدوق طعم حلاوة الدنيا .. أين الظلم في خلاص مثل هذا .. أليس هذا من العدل
.. أليس هذا هو قمة العدل أن ندع الناس تعيش فقيل من العدل والحرية يتم الإفراج
عن الوحشات وتتم الفرحة على العبيد .. وراح الرجل يفكر ويفكر إلى أن وصل في
كل جوانب تفكيره أنه سيقوم بعمل كبير لابنة أخيه وعبدته سلامه ..

.. وفي اليوم التالي كان جدّي يرغب في نشر الخبر ليرى بنفسه آراء الناس فقال
لأولاده اعلنوا الخبر .. فكان التعليق عليه في داخل البيت وخارجه:

- يا نهار إسود الرجل اتخبل ..
- يعني بيقول لنا كلنا جوّزوا العبيد ..
- الحمد لله ما عندناش بنات وحشه علشان نتحوج للعبيد ..
- الرجل ده طول عمره بياخذ قرارات غريبه ..
- والله دا راجل بيفكر صح ..
- عاش الحاج علي في أبو عافيه
- ما فيش حد في البلد كلها زي الرجل ده ..
- دا راجل جاموسه .. هو فاكّر نفسه مفتي الديار ..
- عدل إيه وحق إيه اللي بيقول عليه ..
- يعني لو أخوه السيد عايش كان هايرضى بكده ..

- الرجل عايز يزيج ولاد أخوه من البيت..
- لأ يا جماعة بصراحة هوّ عمل لأولاد أخوه قبل ولاده .. الحق يتقال ..
- دا ها يخلّي العبيد يطمعوا فينا..
- على فكرة هوّ فرّح راسين عمرهم ما كانوا ها يفرحوا..
- على فكرة العبيد من كتر الكبت في بلد جنب بلدنا مسكوا العبد بيلب مرات سيده .. جوازهم حلال أو عتقهم حلال
- وسيده يعرف إن العبد شغال مع مراته ..
- كان السيد راجل كبير في السن وخلص .. عمل نفسه مش شايف حاجة وقال يا واد أستر على نفسك وساييه شغال وأدّام الناس عبد بيركع لسيده ومن وراه هايص وراكب سته..
- والله العبيد في الأول والآخر مالهم لازمة في البيوت..
- والله دي كانت عادات من زمان ويامه ليهم زواريق بسيطة في كل بيت وهمّ قربوا يخلصوا
- عمر العبد ما يؤتمن على بيت .. ولكن أكل عيش وعادات وتقاليده وكله سببه الظلم والذل في بلد هنا وبلد هناك..
- والله أحسن عمل عمله أبوك الحاج جوّز بنته وفرّح داره وأخوها موافق وأكيد أخوه في تربته بيدعيه..
- أكيد بس هوّ في الآخر راجل عمل الصبح .. ما يعملوش غير الرجالة الكبيرة..
- .. وفي ليلة جلس جدي وسط أبنائه على مصطبة الدار الخارجية وكان الجميع ينتظر منه ماذا سيفعل بعد قراره هذا وبعد أن شرب الشاي عدة أدوار معهم قال وهو يخرج أوراقاً مالية من جيبه:
- خد يا محمود دول عدّهم ..

أخذهم محمود من يده وعدّها ثم قال:

- خمسة وعشرين جنيه..
- روح أشمون عطرّ أختك .. هات سرير ودولاب والنحاس والقطن
- يا به علي أنا ما بفهمش في الحاجات دي خلّي حداد..
- إنتم حرّين مع بعض .. إدّيله الفلوس..
- حداد شاطر وها يجيب أحسن منّي..
- خد سلامه معاك يا حداد علشان يحس إنه بيتجوز ويفرح..
- يبقه أحسن يا به .. هاروح بعد الري ما يخلص..
- روح الخميس الجاي..
- آخد دردير..
- لأ .. دردير ها يوضّب القوضه الجوانيه ويطلسها ويجيب المبيض يبيضها..

ويظهر على وجه دردير علامات الضجر:

- هوّ ما فيش غيري للشغلانه العفّرة دي..
- ما فيش غيرك يا دردير من بكره تشتغل في القوضه..

وعلى مضض قال:

- طيّب خلّيني أروح مع حداد أشمون ..
- إيه لازمتهك معاه..
- عايز أكل فول وطعميه من أشمان .. يقصد أشمون ..
- وراح جدّي يضحك بصوت عال ثم هرّ رأسه وقضم غيظه ثم طفق:
- جتك نيله عليك وعلى أمك..

لو رأى الناس كيف كانت البنات تغني وترقص بعد أن يقفلوا باب الغرفة عليهن، يرقصن ويغنين ويصفقن حول العروس .. أختها خضره التي تزوجت السيد عبد العال وشقيقاتها من بنات عمها على السیده التي تزوجت خليل الهلالي وشقيقة التي تزوجت من عريبي .. وكانت شقيقة تبدأ حفلهن الصغير كل ليلة بتصفير شعر العروس القصير الأكثر بفلاية خشبية في شكل كف الجمل وكانت تدهن شعرها بالجاز حتى يلمع ويسهل تسريحه وهات يا طبل وزغاريد وغنا حتى قُرب منتصف الليل .. وكانت العروس في جسدها مثل الكرنبه فأهم ما يميزه صدرها المنتفخ وأردافها العالية وهي قصيرة عندما تمشي كأنها تتدألج، ولم يكن عمها علي يحب الغناء كثيراً ولكنه أحبه هذه الأيام من أجل ابنة أخيه فاطمة الذي تولى أمرها وأمر زواجها بإيحاء من الحكمة والدهاء .. وكان من فرط سروره أنه كان يطرق الباب على بناته ليرى الفرحة في عيونهن وخاصة يرى البهجة في وجه العروس فاطمة ويبتسم ابتسامة تملأ وجهه ويقول:

- مبسوطة يا فاطمة ربنا يتمم عليك ..

.. وكانت البنات تخجل من أن يراهم أبوهن علي وهن يرقصن ويغنين ويطنن .. فعندما يفتح الباب عليهن تجري كل واحدة منهن إلى ركن وتتدأري فيه .. وفي كثير من الليالي كانت أم العروس تجلس على حرف مصطبة الغرفة لتصفق للبنات وتردد معهن الأغنيات ثم تذهب لتنام في غرفتها مع ابنها محمود ..

.. ذهب حداد ومعه سلامه إلى أشمون ليجهزاً عطر عريس وعروسه كاملاً وحملته عربة نقل من أشمون إلى بيت عمها في بحري البلد .. وخزنوا عفش العروس في غرفة خالية في البيت وأحضرت النساء الزغبي المنجد الأول في القرية ليقوم بتتجيد المراتب والمخدات والذي نصب عدته وسط البيت الداخلي في قلب بهجة الرجال والنساء الذين أحاطوا أيام التتجيد بالزغاريد والطبل وعمل الشاي للزغبي وصبياناه، وتأخر ددير في توضيب غرفة الدُخله لأنه كان يترك العمال ويذهب إلى دكان

زهران من أجل مزاجه في الشاي والجوزه هناك، وكانت أمه قطيفه تسعد به كلما
دخل وخرج من البيت والتي دائماً ما كانت تقول له:

- يا محفّض .. اسم النبي حارسه دردير .. بكفايه دخلتك وطلعتك عليّه يا
زين الرجاله يا دردير .. وكان دردير يشعر بكلمات أمه بأنه فعلاً زينة
الرجال وأنه لا بعد و لا قبل فيه دردير تاني .. وكانت شقيقتيه السيده
وشفيقه تلومان أمهما على هذا الدلع الزيادة فيقولان لها واحده بعد
الأخرى:

- هوّ ما فيش غيره .. عمرك ما قللتنا كلمه حلوه ..
- يا عيني يا حداد مالکش أم تقولك..
- هوّ دردير بيعمل لنا إيه .. عمره ما قال لبنت مننا كلمه حلوه ..
- خديه يا مّه واقفلي عليه وأكليه أكل البيت كله .. يا خسارة مخّه تخين
وهابئل وتخمان شويه شويه ويريل على نفسه من كُتر الزق ..
- إعدلي يا وليه شويه طول النهار عمّاله تقرّضي لنا زي ما يكون ولدتنا
واحده غيرك ..

.. كان هذا مّوال كل يوم يصّور مدى غضب شفيقه والسيده على أمهما من التدليل
الزائد عن حده لدردير ..

وكانت أمهما قطيفه عندما تزهق منهما تدعي عليهما قائلة:

- إلهي تتكسر رقابتك منك لها ..
.. في يوم دخلة فاطمة على زوجها سلامه ذبح جدّي عجلاً كبيراً وعزم كبار
رجالات بحري وتم توزيع الشربات على الناحية كلّها وتم تفريق جزء من الذبيحة على
الفقراء والأقارب، وشعر الجميع بالهيصة والفرحة والخير اللي كان في هذا اليوم ..
كان الرجل يريد أن يفرح لابنة أخيه فاطمة وسلامه الذي في محبة أبنائها الثلاثة فهو
من اليوم رابعهم .. ورقص أبناؤه بالشومه وسط الرجال .. ودخلت العروس في ليلة
فرح لم يكن لها مثيل من قبل ..

هنأت الزوجة بزوجها وحملت بعد شهور قليلة وبعد شهور أخرى ولدت أنثى .. ولدت أم سلامه .. لقد أطلقوا عليها هذا الاسم رغم أنها بنت سلامه وليست أم سلامه .. لكن الجميع اتفق على هذا الاسم لحبهم لسلامه وكأنهم يشعرون بأن سلامه سوف يموت بعد سنوات قليلة من ولادتها .. كُبرت أم سلامه وزوجها عُمها من رجل طيب تقدم لخطبتها وهو عبد اللطيف أبو حربه .. لم تتجب منه وكان حبها لأولاد زوجها كثيرًا وهما محمد وعلي ثم كان حبها لأبناء أحوالها محمود وحداد ودردير لا يضاهيه حب ..

.. كانت أم سلامه كومة من الحب فهي من سلالة آخر العبيد المخلصين في دار جدّي .. وتعلّم كل أبناء أحوالها حسن والسيد وعبد المنعم وعبد الرحمن وعبد العزيز ومحمد وعادل الحب من كلماتها وودّها ودعائها .. تربي كل أطفال هذه الدور بعد أن حملتهم كثيرًا فوق صدرها ودعت لهم ملأ فيها من روحها وحكت لهم من الحكايات ما لم تحكي كل أمهات البلدة .. وكنا جميعًا فخورين بها حيث كنا نسبق اسمها دائمًا .. بنت عمتي أم سلامه .. وفي المواسم والأعياد كان أولاد الخال جميعًا يتسابقون على من يحمل الموسم إلى أم سلامه في دارها .. الموسم يتكون من لحمه نيه وخبز وزبد .. يوضع في طبق وتحمله الفتاة فوق رأسها وتذهب به إلى قريبتها في دارها إنه من يقولون عنه .. كل عوده وإنت طيب .. وكان موسم عمي محمود إلى أم سلامه أكبر حجمًا ونوعًا من موسم دردير وحداد وكان محمود يرسل لها زيادة فاكهه موز أو برتقال ..

.. دخلت أم سلامه بيتنا وأنا صغير لم أبلغ الرابعة بعد وعندما سألت أُمي من هي المرأة السوداء هذه التي تأخذني في أحضانها قالت:

- دي بنت عمّك فاطمة أم سلامه متجوزه في دار ورانا من واحد اسمه عبد اللطيف أبو حربه .. وكان أول الحب من أم سلامه وأول جملة وكلام اسمعها منها وتنطق به وهي تغني وأنا أنام في حجرها مستسلمًا لحنانها:

- يا حسن يا خولي الجنينه إدّلع يا حسن ..

- حسن يا حسن يا قشطه القربه يا زبدّه يا حسن ..

- اتعودنا نقول يا مطرة عبد العال أمطري أمطري لمّا تملي الفنجال..

- دلوقتى نقول يا مطرة يا بحر يا نيل السودان إنت يا حسن..

- يا حسن يا حسن يا خولي الجنينه عيش واذّلع واتهنّى يا حسن..

وتقول وتعيد وتكرّر وهي تضرب بأصابعها على جسدي في رفق .. في رفق حتى
أنام .. وكانت أم سلامه هي المرأة الثالثة بعد أم إبراهيم البكلييه وزوجه عمي محمود
في رواياتها وحكاويها وحواديتها والثلاثة في ذلك كن الوعاء الأول الذي رضعت منه
الحب والحنان وعشقي الذي لا ينتهي لسماع حكاويهن وحواديتهن .. وكان هذا هو
السر في قوتي هو السر الذي نما في داخلي .. هو الحب الذي هو أكبر من كل
هذا العالم حولي ..

"أيام الاثنين والخميس"

كانت العادة في وجبات الطعام الأسبوعية أن يكون في بيت كل صاحب أرض وجبة طعام شهية، ففي يوم الاثنين تقوم النساء في البيوت بعمل فطير مشلتت أو مخروطة بالسمن أو اللبن، وفي هذا اليوم يكون كل أهل البيت فرحين وكذلك أنفار الغيط لأنهم سيتناولون وجبة دسمة، ووجبة يوم الاثنين هذه يكون وقتها بعد الظهر (غداء)، ذهب سعيد متولي أوفي الأنفار في بيتنا وصاحب الدم الخفيف، وكان كعادته يرقص على الحمارة وهو يركبها وأمامه وجبه الفطير والعسل الأسود والجبنة القديمة، كان يرقص بكتفيه وبذراعيه ماستطاع ويقول فطير .. فطير حتى يصل إلى الشجرة الكبيرة الظليلة التي يجلس الجميع في ظلها طيلة النهار إذا أرادوا الراحة أو تناول الطعام أو عمل الشاي، ثلاثة رجال إخوة .. محمود وأنفاره وعياله، دردير وأنفاره وابنه عبد المنعم، حداد وأنفاره وابنه حسن .. ثلاثة دوائر تتناول الطعام، لكنها دائرة واحدة عند تناول الشاي وشرب الجوزه .. لم يكن أبي محمود مدخنًا وكان أبي دردير حريّف جوزه وكان أبي يشرب الجوزه على خفيف ما استطاع سواءً كان في الغيط أو في دكان عبده أبو سعده، وكان أبي حريصًا على مداعبة الأنفار واحدًا بعد الآخر وفي هذا اليوم كنت قد كبرت واقتربت من عمر السابعة، وراح أبي يقهقه ويداعب حسن أبو طنش قائلاً له:

- وانت يا حسن عامل إيه دلوقتي .. لسه بتجيب سبعة ..

ويقهقه جميع الأنفار منتظرين رد حسن:

- كان زمان يا حاج هيّ السّنات بتتعب في حاجه

- برضه راضيها يا حسن .. أحسن تسبيك وتتجوز غيرك ..

- لأ والله يا حاج هيّ .. إذا قدرت كان وإذا ما قدرتش نامت جنبي طول الليل.

ويضحك محمود ودردير ويقول محمود:

- آه يا حسن جتك الغم كنت بتجيب سبعة صحيح ..

فيرد حسن في زهو:

- والله يا به محمود كنت بجيب سبعة في اليوم بليلة والمصيبة كانت بعدها
تقولّي عايز حاجة ثاني يا حسن قبل ماستحمة..

.. وبقهقه الجميع وصينية الشاي بأكوابها الصغيرة تلف على القاعدة واحدًا بعد
الآخر وكذلك ثلاث من جوزه المعسل في ثلاث دوائر صغيرة تجمعت كل دائرة منها
في مزاج حول كل جوزه .. فيتصاعد الدخان من أفواه وأنوف ملفوفًا بنكهة الشاي
الثقيل الذي يتولى عمله دائمًا سيد مرسي وهو أحد العاملين العجائز عند عمي
محمود .. ويعلو صوت سيد حجاج وهو أحد العاملين باليومية هنا وهناك رغم أنه
يملك قطعة أرض صغيرة وبهايم وغنم إلا أنه كان شديد الكفاح ويقول حاسدًا عمه
حسن:

- يا نهار إسود يا به حسن دانا ما بقدرش إلا واحد بالعافيه

فيرد عليه حسن:

- علشان الجوزه قاطعة نفسك .. دا أنت من صغرك من ساعة أبوك ما
مات وانت بتاكل في الجوزه أكل ..

ويعلن عمي دردير بصوته الجمهوري مخاطبًا سيد حجاج:

- ما فيش حد في الملاء بيشرّب جوزه أد السيد حجاج..

ويقول عمي محمود:

- أرحم نفسك يا سيد أحسن هاتموت بدري .. بالراحه على صحتك..

فيقول السيد:

- هاعمل إيه يا به الحاج أمي منكده عليّ عيشتي..

- أمك أحسن منك وحرام عليك بطلّ ضرب فيها..

- بتزهقني..

- يعني أمك قلبها عليك وعلى معاشك ومن غير قلبها عليك هو فيه حد في الدنيا يضرب أمه..

ويكمل شعبان فرج الحديث مع السيد:

- دا إنت بتضربها وانت بتضرب الجاموسة .. أمك عصا والجاموسة عصا .. حرام عليك

ويقول منصور سو أده وهو أحد الأنفار الذي يعمل عند أبي محمود:

- كل يوم تضرب البهايم وتضرب أمك وأمك كل يوم صوات منك .. أنا خايف عليك أمك بتدعي عليك ..

ويتدخل أبي في الحديث حاكياً له عن مكانة الأم في القرآن وعند الله.

ولكن السيد حجاج كالأصم .. كل ما يرد به على الناس:

- هانعمل إيه .. أمي دي مره (امراة) بنت كلب ..

ويقول عمي دردير:

- حرام عليك أمك من كتر الضرب جسمها ورم.

ويتدخل رجب الذي يعمل في غيطنا:

- على فكرة أنا كنت باجري الأول عليك وأنت بتضرب أمك .. لكن في مره جت العصا على دراعي..

فيرد عليه سيد في برود:

- إذا ما كانش عاجبها ترؤح البلد ..

وينهي أبي الحديث بقوله:

- ربنا يهديك وعلى فكرة أمك نظرها اتحاش من كتر الضرب..

بعد ذلك يسكت الجميع وينهمكون في تناول مزاجهم من الشاي الثقيل وشرب الجوزه، ثم ينقل أبي الحديث مع سيد مرسى:

- أيوه يا سيد هانتتكَ طول عمركَ من غير جواز دانّت قرّبت تموت..
- هاعمل إيه ..هاتجوز منين لا دار ولا غيط وأنت سيد العارفين أنسي مرسى أخويا طردني من زمان ولولا غيطانكم وزرايكم كنت هاروح فين"
- ويناغشه عمي دردير:
- لكن إنت إزاي بتاكل الفيران والقنافد..
- عادي يا به دردير .. فيران الغيط نضيفه عن فيران البلد .. وبعدين دي لقمه زياده باشبع بيها
- سمعت إنك بتشويها على الراكيه..
- أمنية حياتي آكل كل يوم فار أو قنفد لكن فين وفين لمّا أصيد فار .. على فكرة دول لحمهم ولا الضاني..
- لكن إنت كده بتقرفنا وأنا خايف العيال الصغيره ولادنا تعمل زيّك..
- لأ ما تخافش عبد المنعم بيتقرف ويجري وعبد الرحمن بيشتمني وحسن بيقولي أد إيه إنت وسخ إطمّن يا حاج دردير..
- هيه ربّنا محليّ نفسك..
- ويهز شعبان فرج رأسه كأنه يحزن على سيد مرسى ويقول:
- أخوك أنسي خد أرضك وكرشك وطول عمركَ متبهذل..
- إنت عارف أول ماكرشني ماكنتش باكل اللحمه خالص وعلشان كده نزلت على الفيران والقنافد.
- طيب ما أنت دلوقتي بتاكل لحمه وفطير ومخروطه ليه بقه الفيران..
- آه يا شعبان اللّٰي ياكلها ما يسلهاش .. ضاني .. اسكت بقه أنا نفسي في فار دلوقتي..
- لأ الله يرضى عليك بعد ما نروّح .. خليّك بالليل مع نفسك

.. وكان أحد الأنفار ويدعي محمود الفيومي يعمل بالأجرة طيلة النهار وفي الليل ينام في زريبه أو جرن أو تحت الشجرة ..

وعندما ينتصف الليل يفوق ويقوم إلى البحر ويخلع ملابسه وينزل إلى المياه باحثًا عن السمك في شباك وجبى الصيادين .. أول ما يبدأ بتنفيض شباك شوقي الهلالي ثم شباك الحاج حسن بعهدا شباك مصطفى عثمان ثم ينتهي بشباك الحاج حسين وعبد العال .. وكان ينقل ملابسه من جولة لأخرى على البر في مقابلته ومعها مقطف كبير يضع فيه السمك وعند آخر جولة من الشرق يرتدي ملابسه ويأخذ مقطف السمك إلى حيث يرقد، وفي شمس الصباح يأخذ السمك الذي سرقه ويعدّي إلى بر تلوانه ليبيعه لرجل يشتري السمك من الصيادين اسمه علاّم، وكان علاّم هذا فاسقًا يعمل كل الموبات كان أقلّها أنه يشتري السمك المسروق .. كان علاّم هذا من شياطين الإنس حيث كان يمارس الجنس في محارمه .. ويعود محمود الفيومي بفلوسه إلى برشنشور ليرقد في أي أرض تداريه عند حداد أو دردير أو محمود ..

وكان محمود الفيومي مطرودًا من دار أبيه بعد أن ماتت أمه حيث طردته زوجة أبيه الجميلة من دار أبيه .. وكان له أخ يدعي عبد العزيز والذي هاجر إلى مصر ليعمل هناك منذ صغره، أما محمود هذا فقد فضّل أن يبق في بلده ليعمل أجريًا بالنهار ولسًا في الليل، ولم يكن محمود الفيومي هذا هو الوحيد الذي يسرق في الملاء فهناك الكثير مثله ولكن لم يكن هناك مثله في حرفة سرقة السمك ولم يكن أحد من الصيادين وأصحاب الشباك يستطيع الإمساك به لأنه يختار الأوقات المناسبة للسرقة من ليلة لأخرى .. ولم يكن محمود يسرق السمك فقط لكنه كان يسرق كل شيء تطوله يده، وكان حلمه أن يبني بيتًا ويتزوج ولكنه لم يستطع لأنه كان مسرقًا في شرب السجائر الف وشراب البيره وكان لا يعمل يوم الخميس .. السويقه .. وينزل السوق ليأكل الكبده في سوق البهائم ويشتري من الطعام والفواكه ما استطاع .. وكان أبي يقوله له دائمًا:

- ليس في مال سرقائك بركة لأنها حرام ..

فيقول لأبي في بجاحه:

- وهوّ فين الحلال ..

فيقول أبي:

- الحلاب بيّن عن الحرام..

وبكل بجاحه:

- مش أنا من أبو عافيه .. جوّزني واعملي بيت مانا زي ابنك..

- أنت ملعون وبجح وما عندكش دم .. وهانتتك طول عمرك حرامي..

- أنا زي سيد مرسي أخوه محاه من على وش الدنيا وأنا أبويا محاني
وقرايبي ما بيعملوش حاجه للغلبان اللّي زيّي..

- هوّ فيه حد يعمل حاجه لحد .. ربّنا اللّي بيعمل بس إنت كدّ وا تعب وربّنا
يديك وعيب إنك تطلب حاجه مني أو من غيري..

- طيّب جوّزني اخطب لي..

- ما قدرش أخطب لك أي واحده لأنها هاتبقه في وشي .. بطلّ سرقه
وصياعه وكن أمين وصلّي وأنا ساعتها هاجوّزك من مالي الخاص..

- دي صعب أوي يا به الحاج بعدما شاب ودّوه الكتّاب .. ما أنت جوّزت
ناس كتير كانوا عندك ..

- أنفار محترمه غلابه ماشيين مع الله وتلاقي الواحد منهم اشتغل معايا
سنين..

وانتهت قاعده هذا الاثنتين بحكاية محمود الفيومي بعدها قام الأنفار إلى غيطانهم
ليستكملوا أعمالهم وهم يتغنون بالمواويل المتداولة في الغيطان..

.. وفي أيام الخميس .. السويقه .. تكون وجبة مدّ ايدك كما يسمونها وقت العشاء
في البلدة، حيث يُشترى اللحم من الجزارين في السوق أو تذبح الأوز والبط والدجاج،
والطبيخ المتداول في بلدنا يوم الخميس هو الملوخية والياميه والبطاطس والقلقاس
والفقراء يطبخون الخبيزه ولحم الخبيزه هو الكرشه، وكان شارع حسين حنضل وشارع

شعبان فرج أحرف أهل العزبة البحريه في طبخ الخبيزه وتنظيف الكرشه والمصران وطبخها لتكون المنابات لأهل البيت بعد أن يتجمعوا حول صحن الخبيزه .. والبتاو المقمر هو خبزهم وراكيه الشاي عند عتبة بيتهم هي التي تجمع الجيران ليحتسوا الشاي والرجال يشربون الجوزه حتى منتصف الليل يتسامرون ويتحاكون وتجمعهم عند منتصف الليل حنفية خليفه الأكرات حيث تذهب النساء إليها بالحلل لتستحم المرأة مع زوجها فلا تجد في ليلة الخميس هذه أعلى من صوت الطشوت وتخبيط الكيزان في الحل وفي السطوح تجد الكثير من مغامرات شباب الفقراء مع بنات ونساء السطوح المجاورة، ويحكى أنه في ليلة من ليالي الخميس كانت امرأة أرملة قد زوّجت ابنها الوحيد من فتاة قريبة لها .. وكان ابنها في ليلة الخميس يذهب للسهر مع أصحابه على حرف الترعة قرب كفر البلده وكان هذا الولد يربط ساق زوجته عند القدم بمنديل لتكون علامة له عندما يعود مسطولاً في الهزيع الأخير في الليل خوفاً أن يلاقي أمه وهو في هذه الحالة لأن أمه من حبها له كانت تنام بجوار زوجته ..

وفي هذه الليلة استيقظت الزوجة بعد أن ربط ساقها بالمنديل واندحشت لماذا ربطها به .. فكّت الرباط من قدمها وربطت قدم أمه به .. جاء الولد فوجد المنديل في رجل أمه فجامعها دون أن يدري أنه ولجه في أمه .. كانت أمه تدري واستيقظت على إيلاج رجل لها وكانت تظن في أول الأمر أن هذا الرجل هو جارها الذي يلقاها منذ أن مات زوجها من وقت لآخر .. مرّه على السطح وأخرى تحت في غرفة الفرن .. تركت الرجل الذي يرفع ساقها ويلقاها اعتقاداً أنه الجار .. لكنها بعد وقت قليل أدركت أنه ولدها .. ولمّا شعر الولد أنها ليست زوجته فزعق:

- يا لهوي أمي .. يا لهوي..

فقال أمه وهي في قمة نشوتها:

- خلاص يا بني كمّل ربّنا يكملك بعقلك..

.. وكان ولد عائلة حرب السّناط يجول ويصول ليلة الخميس هذه ولا يستطيع اللحاق بأصوات النساء العالية هنا وهناك وكان هناك كثيرون في البلده مثله هنا وهناك

ولكن ليس في شهرته وحرفته، وكان هناك خفير درج يدعي عدوى أبو أحمد قد اعتاد التسنيط منذ أول عمله في النقطة أيام كان شابًا صغيرًا، ولمّا كان يمسكه أحد يقول:

- هو دا شغلي .. النسوان بتسوّط حقي أعرف ليه ولاّ أسيب جوزها يموتها..

وفي ليلة كل سيد ابن عمي يلعب مع أقرانه أمام مدرسة أبويا دردير وفجأة سمعوا أصواتًا وكلامًا بصوت عال وكأنه عراك .. فقام من بينهم واحد قريينا يُدعى سعيد الهاللي واتجه ناحية الدار التي يصدر منها تلك الاستغاثات .. وضع رأسه على حائط يسمع وزملاؤه يرقبونه مندهشين فقال أحدهم:

- إيه اللّي جرى لسعيد دا عمل زي معوض حرب وخط رأسه على الحيطه..

وكانوا ما يزالون يسمعون الأصوات وانجذب واحد آخر من بينهم إلى نغمة الصوت المثيرة فتبعه ووقف بجواره وركن رأسه بالحائط مثل سعيد ونسى نفسه .. وكان الشباب الجالس في دائرة بالأرض يتابعون في شغف ماذا يحدث في الدار فقال أحدهم:

- ما حدّش يروح تاني لأن شكلنا هايبقه وحش..

فرد عليه واحد منهم ثم تتابعت الحوارات بعده:

- النغمة مغريه ربّنا يكفينّا شرها ..

- وليه شرها .. دي أحلى حاجة في الدنيا..

- يا سيدي آدي النسوان بصحيح..

- أحسن من اللّي منكده على جوزها..

- بس مش بالشكل ده..

- أصلها من قبلي حركه أوي..

- ياخويا ولاّ َ فيه بحري أنقع منها..

- مين ..

- قريبتنا ..
- مين ..
- مرات أبويا عبدالرؤوف الزلباني ..
- يا نهار منيّل دا أبوها كان شيخ ..
- همّ ولاد الشيوخ اللّي صوتهم عال من الكبت اللّي اتربوا عليه ..
- يا نهار أبيض .. بس المفروض بنات الشيوخ تخشع وصوتها يبقه واطي
- الواحده منهم لمّا بتتبسط بتتسى أبو أبوها ..
- بس على فكرة الحاجات دي بتعمل حس للبلد ..
- والله الواحد لمّا بيسمع عن الحاجات دي بيحس إن الحياة حلوه
- معوّض حرب مش غلطان دا فنان ..
- يا نهار إسود دا عاوز قطع الرقبة ..
- روح اقطع رقبة الغفير اللّي المفروض يحافظ على الأمن بقه أنقح من أبو حرب ..
- بقول لكم إيه .. سيبوا الدنيا ماشيه زي ما هي ماشيه ..
- هيّ الدنيا كده في بلدنا
- والنبي يا خويا الحاجات دي في كل بلد ..
- وبعدين يا ناس مالكم معقدين الدنيا .. زي ما فيه صوت عال وخرافات على الأكل والشرب لازم هاتلاقي دا في ليلة الخميس ..
- يا عم الناس غلابه خليّهم يتبسّطوا .. انتوا عارفين لو رحتم حارة حسين حنضل ولّا حارة شعبان فرج هاتلاقي الشغل دا علني والصوت على الجانيين حيّاني ..
- انتوا رحتوا غرب البلد وشفتموا وسمعتوا اللّي هناك ..

- يا عم من زمان غرب البلد مهرسة..
- الله يرحمه واحد من عيلتنا هوّ اللّي بدع حرفة التسنيط في العزبة البحريه كلها..
- مين هوّ .. مين هوّ .. مش معوّض حرب أول واحد ..
- يا عم دي حكاية كل شارع وكل عزبة وكل بلد من يوم الدنيا ما تتشأت ..
- مين هوّ قول مين اللّي قبل معوّض حرب..
- حسانين
- حسانين مين..
- حسانين تنكّ مؤسس حرفة التسنيط..
- بس دار راجل شيخ..
- هو الشيخ نبي .. الشيخ واحد زينا ومننا..
- يا عم اسكت دا الشيوخ دول وراهم بلاوي ..
- انت عارف تنكّ دا ليه سموه تنكّ..
- دي حكاية طويلة .. حكاية تهلّك من الضحك..
- .. وجاءهم سعيد الهاللي ومن معه وهو يضرب كفّا بالأخرى .. فقالوا له في صوت واحد..
- إيه الحكاية ..
- .. ويقعد سعيد الهاللي وسطهم وراح يهزّ رأسه وقال في قناعة:
- والله معوّض حرب ليه حق..
- فيرد واحد منهم في حماس:
- يعني إنت بتشجع الحكاية دي..

- أبدأً مالناش دعوه .. مش عايزين نقعد هنا تاني .. دا الموضوع صعب
لوحد اتعود على كده عمره ما يسلاه..

.. في قريتي غرباً وشرقاً وقبلتي وبحري إذا شبع الناس بالطعام انصرفوا إلى مزاجهم وهواياتهم .. انصرفوا إلى سطوحهم وغرفهم السرية لينالوا من نعم ما بعد شبعهم، فهل عليهم أن يجوعوا حتى تستقيم أمورهم ..

.. إن الحكماء والأشراف في كل قرية لا يعدُّون على الأصابع وهناك منهم بعيداً عن أعين الناس من يسرق متعة أو يجني خطأً وقع بين يديه .. إن قضاة قريتي وعقلائها ليسوا أنبياء أو معصومين ولكنهم يحاولون جاهدين الوصول إلى أي بر أمان ينجيهم من نزواتهم التي تظهر إلى السطح من وقت لآخر .. في قريتي كل العقلاء والذين يتخذهم الناس مثلاً من أبناء الموسرين وليس في قريتي رجلاً فقيراً دخل في ذمة العقلاء .. إن الحكماء قريبون من الفقراء ولو لم يكونوا قريبين من معاناة الناس ومشاكلهم لما كانوا حكماء أو قضاة .. إن عقلاء قريتي ليسوا شيوخاً أطلقوا لحاهم .. إن من أطلق لحيته من الشيوخ منذوين خلف عوراتهم إن كانت فقراً أو كانت نصباً أو كانت نفاقاً .. إنهم لا يقدرّون على مواجهة الناس ولا يستطيعون التقرب منهم لأنهم في داخلهم نشأوا من ضعف إلى ضعف .. إنهم في داخلهم أصحاب نفوس ضعيفة وأطلقوا لحاهم ليضحكوا على الناس أو يهربون من ضعفهم وفقرهم ويدعّون العلم والتقوى وفي بيوتهم تمارس كل الموبقات، وإن فقر بلادي وعدم توفير الأعمال الشريفة للناس وانزواء العدل كان سبباً حقيقياً وراء كل منحرف ومتطرف في بلادي .. ولو توفر العدل ولو قليلاً في قريتي لذهب كل مارق وفاسق ومدّعى إلى الجحيم .. ولكن هل يصل طفل صغير عمره سبع سنوات إلى الحكمة .. إنه من حكايات أمي وحكايات أبي وصراعات أهل أبي وكراهية جدّتنا قطيفه وسروال رمانة العكلة وحكاوي أم إبراهيم شرفه وشنطة عبد المنعم ابن عمي دردير وحكمة أبي محمود وحب ابنة عمتي أم سلامه وحقد أم الرزق الورك وزوجها عبد الرازق، وبعد ذلك حب وود جدة عبد الرحمن ابن عمي وأمه السيدة الكريمة مجيدة القطان لي ولأمي وعطفها عليّ مثل ابنها .. وحتى قسوة عمي دردير علينا ونحن أطفال وحكايات آل درويش وحمائيتهم لأبي وهو صغير وبعد ذلك حكاياتهم في نهب أبي عندما كبر .. وشطارة جدي أحمد فوده في تلوانه وبيوت أهل أمي النظيفة وكيف أن هذه البيوت فيما بعد قد خرّجت كبار رجال القانون، وطيبة وأخلاق عمي

قطب شاويش وتقوى عمي عبد الحميد عبد العال من قلتي وعلاقة بيوت الصاوي
والقطان الطيبة معنا .. وغم ونكد عبد النبي هاده وزوجته كل صباح خلف بيتنا
وحكايات زكي وإسماعيل أبو شاطيه من عراق وشجار وشتيمة بجوار حقولنا في
الملاء .. وحلّبات اللبن وغرفة اللبن وحبي البرئ لسميرة وعلاقة أبي بلظيمة البدري
وأسرار غرفة التبّين وعلاقتي الوفيه مع كلابنا الثلاثة في الغيط وكيف تقدّم الكلاب
الحب والحراسة والوفاء لأصحابها .. كل ذلك وعيته وأدركته وتأمّله وعاشته وحلمت
به ومعّي أُمّي في غرفة النوم الصغيرة "الخنزة" واستطعت وأنا أكمل نصف العام
الدراسي بالسنة الأولى في مدرسة صبحي أن تتشق الأرض من تحتي ولا أرى ولا
أدري بما يحدث في مدارس الزرائب في قرّيتي وشعرت بأن ما في رأسي من معرفة
وإدراك بكل ما حولي في هذه العمر المبكرة أفضل وأقوى وأكبر من كل من في هذه
المدرسة من مآسي وخيبة أمل ..

"والمدرسة حاجة نيله"

كنت في السنة الأولى الابتدائية أو الثانية لا يهم .. نفس الفوضى والصوت العالي من التلاميذ والمدرسين والفرّاشين ..

إن لم تتكلم بصوت عال فأنت لست رجلاً، التلميذ حسن جمال فوزي رجل عن المدرسة .. أخذه أبوه إلى مصر وسمعت بعد ذلك أن أبيه مجاهدًا ومناضلًا من أجل العدل والحرية هكذا قالوا .. لكن أنا لم أتعمّق في معنى هذه الكلمات، وكان علي مختار يشمئز من المدرسين والتلاميذ مثلي وجاءني في يوم وهمس في أذني:

- عارف الأستاذ بدر
- أيوه
- لَمَّا بيخلص سندوتشات الفول والطعمية بيرجع ورا في الفصل ليه
- ما عرفش..
- أول حاجة يَقوم الواد ابن الجّمال يقرأ بصوت عال
- أيوه ..
- بتسمعه لَمَّا بيقول ما فيش حد يبص ورا .. اللّي يبص وراه هياخد خمس عُصِي ..
- أيوه باسمعه
- إنت عارف هوّ بقه بيعمل إيه ..
- بيعمل إيه..
- بيهوّي ..
- يعني إيه..
- بيرقع ..
- يعني إيه..

ومن رفته همس في أدني خجلاً ففهمت ودهشت وقلت له في همس أشد:

- علشان كده بيبقه فيه ريحة وحشة ..
- إنت عارف جرف الترعة ريحته أحسن منها..
- طيب وهو دا كلام..
- دا عندهم عادي
- المفروض نقول للناظر
- ما يمكن يكون الناظر زيّه..
- والعمل ..
- نطلع من الفصل
- المفروض نطلع من المدرسة دي كلها ..

وكان المدرس بدر رغم أنه يرتدي بنطلون وقميص وكنا نحسبه رجلاً متحضرًا دون المدرسين الذين يرتدون جلابيب وجبه وقفطان، وقلت في نفسي إذا فالجميع يرقعون .. وكان هذا المدرس يأخذنا نصف اليوم الدراسي كل يوم .. ورحت أرقب هذا المدرس فيما يفعله في الفصل بعد تناوله الفول والطعمية فتأكدت بأمر عيني وبفتحتي أنفي كيف يسيء هذا المدرس للجميع ولاحظت أن هناك تلاميذ يلاحظون معي هذه العادة وكانوا يرفعون درج التخته ليخفوا وجوههم وهم يضحكون ويتغامزون.

.. وعدت إلى البيت هذا اليوم وأنا في منتهى الأسف على ما يحدث وتناولت طعامي على طبلية صغيرة قرب الفرن خلف أمي وهي تخبز، وكانت أم إبراهيم تراقبني وتتنظر إليّ في كثير من الاندهاش لأنه ليس من عادتي الصمت الدائم فقالت لي:

- مالك يا سي حسن
- وسمعتها أمي وهي تعدل الرغبة بالعصا الحديد فقالت وهي منهمكة بحال البلاطه:
- ماله يا أم إبراهيم ..

- ساكت أوي النهارده

.. كان الحديث أقوى من أي شيء وكأنه فاجعة وكنت غير قادر خجلاً من أن أقوله، وتركت أُمي الأرغفة في بلاطة الفرن تستوي وانقلبت خلفها لتراني وقالت في حنو:

- مالك يا حسن فيه إيه..

- المدرس..

- عمل إيه..

- عمل عاملة سوده..

- يا نهار الشوم ضريك..

- يا ريت

ضربت صدرها بكفي يديها وقالت:

- عمل إيه .. عمل إيه..

- بياكل الفول والطعميه..

- وبعدين

- يرجع ورا في الفصل ويرقع ..

- يعني إيه يرقع

- إنت مش عارفة يرقع دا كل العيال عارفاها..

وراحت أم إبراهيم تضحك محاولة كتم ضحكتها وتقول يالهوي حتى المدرس .. طيب كل البلد بترقع بس ما حدش يحس بيها..

وهزّت أُمي رأسها واستدرات نحو الفرن لتخرج الأرغفة بعود الحديد ولمّا انتهت استدارت نحوي فلم تجد أم إبراهيم التي خرجت إلى وسط الدار الخارجي لتضحك على راحتها وكنت أسمع ضحكاتنا وأمي تبتسم وتقول:

- معلش يا حسن .. معلش .. هو إنت فاكّر إيه..

ثم زعقت بصوت عال:

- تعال يا أم إبراهيم كفاية ..

.. وجاءتها وهي تمسك صدرها بذراعيها ويقولون وهي مهسّكة من الضحك وراحت وهي كذلك تفرش حصيرة كبيرة نظيفة في وسط البيت الداخلي لتضع (ترص) عليها الأرغفة الساخنة حتى تبرد .. ولما انتهت جلست خلف أمي وقالت:

- إنت عارفه يا ست أم حسن بدر ده ابن مين..

- ابن مين

- ابن محمد السبكي..

- محمد السبكي مين..

- دا بيبيع الولعه..

- مش فاهمه..

- دا اللّي كان بيلف البلد زمان ويقول أصلح بواجير الجاز..

- طيب ومالو عادي .. بس ليه ابنه بيعمل كده..

- دا وارثها عن أبوه .. أبوه ما كانش بيبطل..

- أبوه كان بيصلح البواجير أكيد في الشارع..

- أبوه .. كانت الدنيا واسعة..

- طيب بس دي مدرسة

- مش عارفة والله يا ست

وطفق حسن وهو يدعك كف يديه في بعضهما:

- لما ييجي أبويا ها قوله..

- اسكت يا بني الله يرضى عليك..

وفهمت أم إبراهيم وانحنى فوق رأس أمي وهمست قائلة:

- هوّ الحاج بيعملها برضه .. وهي مهسكة من الضحك..
- تشهد عليه القاعة
- وأنا باسمعه في الزريبة
- طيب والحل إيه .. الناس كلها بتعملها بس مش في المدرسة وأدّام العيال .. العيال كده ها يتعقدوا من المدرسة
- يا ست أم حسن خلاص قللي للحاج يروح للناظر..
- هيّ المشكلة إن حسن ما لعبش مع العيال في الشوارع..
- لو لعب كان الموضوع دا ها يبقه عادي..
- على العموم نقوله..
- أمّال فين لبينة والولاد..
- راحت بيت أخوها وخذت سعاد وعبد العزيز معاها..
- معلى يا حسن تعيش وتاخذ غيرها..
- وقمت إلى الحنفية وغسلت يدي وقلت لأمي وأنا أدخل غرفة الخزنة:
- هانام شوية يا مه..
- طيب يا حبيبي ماتا خدش في بالك..
- .. ووصل الحاج إلى بيته ليأخذ الطعام إلى الغيط فأخبرته أمي بعد أن تناول بعض طعامه خلف أمي وكان الرجل من كثرة ضحكه على الحدث يمسح ما يسيل من أنفه بكم جلبابه وبعد أن هدأ قال:

- حكاية الرقع دي طبيعة وما حدّش يكسف الطبيعة أو يحوشها..
- شوف يا حاج أنا عارفه إن الحكاية دي زي العطس .. هوّ فيه حد يعطس في وش حد .. الواحد يكتم عطسته بإيده أو يقوم بعيد ..

- زي التفاف (البصق) هوّ فيه حد يبصق أدّام حد أو يبصق وهو بياكل مع
ناس
- وزى نبش المناخير (تنظيف الأنف) هوّ فيه حد ينضف مناخيره أدّام
الناس
- هو فيه حاجات كتير أوي من الطبيعة بس الإنسان منّا يعملها بعيد عن
عيون الناس وعن سمع الناس..
- لازم بيقه فيه ذوق بين الناس وبعضها وإن ما كنش الواحد بيقه نضيف
بيقه ما فيش فرق بين الحمار والبني آدم ..
- المدرس لازم يعلمّ التلاميذ الأصول والآداب للنظام والنظافة والشكل العام
قبل ما يتعلموا القرايه والكتابة..
- على العموم ابننا واخذ الأمور برّقه وحساسية زيادة عن اللزوم وعلى فكرة
الحاجات دي بتمر عادي أمام التلاميذ الآخرين .. لكن إحنا بندور عن
الأصول العامة التي يجب أن تكون ..
- هيّ المشكلة في ابننا..
- إزّاي ..
- إحنا ربّناه تربية بعيد عن الناس وكان لازم يلعب في حارة أبو سمك ..
هات أي عيل في الشارع ده شوفيه ها يعمل إيه في حكاية رقع
المدرسين..
- طيب أنا معاك هوّ ما سمعش حد بيعمل كده أدّامه .. والله أنا عمري ما
سمعت أبويا ولا أمي ولا إخواني عملو كده أدّامي .. وأنا لمّا باكون تعبانة
لازم أجري على الحمام .. همّ الناس سمّته بيت الراحة ليه ..
- طيّب دلوقتي ها نعمل إيه لحسن..

- واجه المدرس ده وقْلُه على جنب إن الأولاد بيسمعوك .. وخلي بالك يا أستاذ بدر العيال بتقرف وها تفضحك..
- أروح للناظر ولأ أروح للحاج عبد العاطي السبكي أهو يعتبر شيخ غرب البلد..
- روح للشيخ عبد العاطي الأول ..
- هاروح له بالليل .. يالَه حظي غدا الأنفار علشان أمشي..

وقمت من نومي عند المغرب فوجدت أمي تصليّ فصليّت معها بدون وضوء فأخبرتني بعد الصلاة بأنني كبرتُ الآن ويجب أن أتوضأ أولاً ووافقتها على ذلك على أن يكون في صلاة العشاء، وقامت أمي لتجهّز لي طعاماً وتركت غرفة النوم ودخلت المندره بحثاً عن متنفس وفتحت شباك المندره ليدخل هواء التربة النقي وأسمع بوضوح صفارة مكنة الطحين لصاحبها حسن أبو شنب، أخذت بعض المجلات التي أهدتها لنا سميرة ورُحت أقلب فيها وسرعان ما قفلتها واحدة بعد الأخرى لأنني لا أستطيع قراءتها بعد .. لكن إلى أين أذهب بما في رأسي ..

إنني أشعر بأن ما في رأسي أكبر من كل هذا العالم حولي وهذا العالم حولي ضيق وقاصر وخائق .. وأنه يجب عليّ أن استبدل هذا العالم أو أذهب أنا إلى عالم آخر .. وشعرت بالعجز لأنه ليس في مقدور طفل أن يخرج عن حدود قريته، وأنه إذا كان كل ما في القرية عاجز على أن يفعل ما يجب أن يكون .. إن القرية كأبي بلد في بلدي عاجزة على أن تكون شيئاً آخر، إن بلدي عاجزة على أن تفعل ما يجب لأن أهلها يتوارثون الغلظة وأن كل واحد فيها يتناول الأشياء كما هي ولا تغيير، إنني أشعر بالحمي شديدة في رأسي كلما تذكرت رُمانة العكلة تلك المرأة العجوز وهي تلك المرأة التي قلبت موازين المرأة في رأسي وأيقنت أن هناك نساءً يملأن الدنيا نكدًا وغماً وقبحاً، وأنه يجب علينا أن نتعامل مع الناس جميعاً لا من خلال جمال سيقانهم أو ووجوههم أو قوة أبدانهم أو من خلال ما يملكون من أراضي وبهائم، وأن أبي هذا يتعامل مع الجميع، الفقير قبل الغني ويحل قضايا رُمانة العكلة قبل أن يحل قضية أي جميلة ..

.. لم أكن أعرف أن أمي قد طهت وزه لأننا تعودنا يوم الخبز أن تعمل أمي فطيراً أو نأكل الخبز الطري بالعسل والحلاوة والبيض المقلي، ويبدو أنها في هذا اليوم أشفقت على حزني وألمي في المدرسة، وكانت تعرف أنني أشتهي عزابيل الوزه (الكبد والقونصه والرأس والرجول الملفوفة بالمصارين بعد تنظيفها)

كانت تريد أن يكون البيت خالياً فصرفت أم إبراهيم بعد أن أعطتها خبزاً طرياً وطبق عسل، وكانت تتمنى أن لا يصل البيت أمي لبيبة وسعاد وعبد العزيز إلا بعد أن

ألتهم وجبتي المفضلة، دخلت تحمل طبقًا به العزاويل ورغيفًا طريًا ووضعتهما على المنضدة قائلة:

- كل بسرعة قبل ما حد يجي..

- الله يا حبيبتي .. إنت روح قلبي..

وقفلت باب المندره حتى أنها قفلت باب البيت الكبير وراحت تطبخ الأوز والملوخية فوق الكانون إلى أن يأتي بقية البيت فيتم توزيع الوزه على الجميع بما فيهم حسن .. ولم تمر ساعة حتى وصل وفد أمي لبببة فوضعت لهم أمي الخبز والعسل والحلاوة وراح ثلاثتهم يأكلون فقالت أمي لأمي لبببة:

- باين عليكم ماكلتوش طول النهار..

- يا أم حسن ها ناكل إيه .. بتاو مقّدد وخبيزه .. أنا نفسي ما بحبّش الخبيزه ..

ونطق عبد العزيز لأول مرّه:

- دول ناس ما عندهممش أكل ..

وراح الجميع يضحك بما فيهم أمي لبببة التي قالت:

- منين يا بني .. هوّ ينفعكم غير بيت أبوكم مش انتو اللّي اتشعبطوا فيّه

فردت سعاد قائلة:

- إحنا لازم نروح معاك هاتسيبينا في البيت لوحدنا..

- يا نهار أبيض يا سعاد مانتو هنا مع أمكم..

فسكتت سعاد لكن عبد العزيز قال:

- إحنا معاك مطرح ما تروحي..

- وأمّك ..

- أمي مين..

- أمك .. أم حسن ..

- هيّ سايبانا ليك .. هيّ ما تعرفش غير حسن..

وسعدت أمي لبيبة بكلام عبد العزيز فقالت له:

- يا نن عيني يا ضناي..

وقمت إلى سريري لأنطوي مع نفسي ودفست رأسي كعادتي تحت الغطاء ورحت أفكرّ فيما سيفعله أبي بعد المغرب، ورحت في نوم حلمت فيه بمدرسة نظيفة غير مدرسة صبحي وبمدرسين لا يأكلون في الفصل ولا يسيئون إلى سمعتهم، وقبل المغرب بقليل قمت من نومي لأجد أمي تطعم محمد الصغير وحده لأنه لم يتناول أي طعام هذا اليوم وكان راقداً في القاعة يئن من وجع في رأسه ولم تخبرني أمي بذلك حرصاً على تجنب آلام أخرى غير آلام المدرسة خاصة وأنها تعرف أنني أرتبط مع محمد بعلاقة خاصة، ومراً قليل من الوقت فيه سعدت برؤية الصغير وهو يأكل من يد أمه ويشبع، وراحت أمي تفرش لتناول الطعام وساعدتها في نقل الطبلية الكبيرة إلى فرشه الطعام (وهي عبارة عن قياس مجدول من الحصير الأبيض) بعدها قالت لي أمي:

- روح صحّي أمّك لبيبة والعيال

ورغم أن محمد تعدّي العامين بقليل إلا أنه كان يتصرف من نفسه تصرف الأطفال الأبرياء ولم تكمل أمي قولها لي حتى هرول إلى غرفة العيال وطرق بابها قائلاً:

- يآله الأكل .. يآله ناكل .. (بلكنة طفل يتعلّم الكلام)

وضحك من في الغرفة كما ابتسمت أمي وتقدّمت نحوه وأمسكته من ذراعه مشجعة:

- برافوا برافوا .. الله .. الله ..

فسعد الطفل وقال كما يتفوه الصغار في عمره:

- أنا كويس..

- برافوا كويس أوي أوي ..

ولمّا كنت أساعد أمي في وضع الطعام على الطبلية كانت أمي لبّية وسعاد وعبد العزيز يملأون القل من مياه الطرنه .. سعاد تمسك بيد الطرنه وتضغط عليها إلى تحت لتخرج المياه وعبد العزيز يصرصع كعادته ويتزاحم بقلة بعد الأخرى وكأنه يملأها مع أمي لبّية .. وانتبه أهل الدار جميعاً إلى نحنحة الرجل وهو قادم من الغيط فوق حمارته .. تتحنح أبي من عند دار الحاج أمين فسمعناه وابتهجنا لقدومه وكذلك سمعه كل أهل دور شارع الترعة وكالعادة علم الجميع أن الحاج يعود من غيطه .. هرولت إلى باب السور وفتحته وأصبحت في مواجهة سكة الغيط لأرى أبي وهو قادم .. وعند دار عبد الواحد الشاذلي القريبة من دارنا رأيت أبي راكباً حمارته وأمامه مقطفا به من خيرات الزرع ماستطاع وكانت تمشي خلفه امرأة من أهل الغيط تتكلم معه ولمّا اقترب أبي منّي قال للمرأة وهي تودّعه ذاهبة إلى دارها:

- خلاص يا أم الهنا .. هاكلّمه وما تخافيش الموضوع بسيط..

- يخلّيك يا به الحاج..

.. نزل أبي من فوق دابته عند فاتحة الباب وهو يمسك بالمقطف، ودخلت الحمارة مختزقة ساحة البيت الخارجية فإذا وجدت باب الوسط مقفلاً نطحته برأسها فانفتح ودخلت إلى الزريبة بيتها الذي تعودت عليه في الدار .. وكالعادة يقفل أي واحد من أهل الدار الباب عليها ..

وكما تعرف الحمارة طريقها إلى داخل الدار حيث مرقدتها، تعرف أمي لبّية طريقها في مقابلة الحاج عند الباب في بهجة وحمل ما يحمله في يده لتخفّف عنه عناء جهده طيلة النهار في الحقل، حملت المقطف عنه ووضعته كما تعودت فوق المصطبة بجانب صومعة القمح .. وكالعادة الثالثة تفتح أمي المقطف لتخرج ما به من خضر وفاكهة وكان هذا اليوم مملوءاً بالعنب والطماطم والخيار، حملته أمي إلى قاعة الغموس تفرغه في أوعيته ثم انقلبت إلى حلّها فوق الكانون لتكمل غرفها، لطعام العشاء، وكان محمد الصغير قد جلس حول الطبلية وهو يمسك بشجرة قطن يشوّح بها للقطط حتى لا تقترب من أطباق الطبلية .. وكان أبي قد دخل الكنيف كعادته عندما يعود إلى البيت دقائق وخرج من بيت الراحة إلى حوض الطرنه فغسل

يديه بالصابونة ثم توضأ ليكون جاهزاً لصلاة العشاء بعد تناول عشاءه مع أهل بيته .. وزّع أبي الوزة علينا ويبدو أن عبد العزيز كان يريد المزيد فقال:

- أنا عايز كبده .. عايز كبده..

رمقته أمي بنظرة امتلات بكثير من الغيظ :

- هوّ دا مش مقضيك..

- أنا عايز كبده..

زغدته أمي قائلة:

- كانتها القطه .. كلتها القطه..

وفجأة فزع الجميع من عبد العزيز عندما قام ليضرب القطط بأي شيء تجده يداه..

هزّ أبي رأسه وقال مشمئزاً منه:

- اقعد يا صرصوع..

فلم يقعد وواصل جريه خلف القطط حتى أنه طلع إلى سطح البيت ليطارد القط الكبير، وفي لحظة ألتهم القط الوسط منا به من فوق الطبلية وهروا القط به إلى خارج البيت ..

ولمّا عاد منقطع الأنفاس لم يجد منابه فصرخ فأمسك به أبي وقال له:

- كفاية هديّ خذ بدلاً منه .. بطل بقه اسكّت ..

.. وكانت هذه أول بادرة مزعجة لعبد العزيز وقد راق لأمي ليبية أن يطالب عبد العزيز بحقه في الكبده وتمنّت أن يفعل باقي الأولاد مثله حتى يأخذ كل منهم مثل الآخر .. غير أنه لم يكن لدى أمي بعد ذلك أن تقوم بتغيير عاداتها معي، كان من الصعب عليها أن تغيّر عاداتها مع حسن وكان أبي يوافقها ضمناً على ذلك فاتفق معها أن تذبح بعد ذلك وزتين حتى تقضى طلب عبد العزيز وغيره وقال الرجل لها في يوم:

- على فكرة الواد ده سيبه يلعب في الشارع .. خليه يروح شارع أبو سمك..

- فعلاً يمكن نعمل كده لأنه عجري ومشاغب .. إنت بتقول عليه إيه..

- صرصوع

.. صليّ أبي العشاء في المسجد ولمّا عاد قال لي:

- إلبس الجزمة وتعالى معايا..

فرحت وجريت إلى غرفتي وتناولت حذائي من تحت سريري وارتديتها وقبل أن أقول لأبي هاتروح فين سبقتني أمي:

- على فين العزم

- هو إنت ناسيه هانروح للشيخ عبد العاطي

.. كان الظلام يكسو الشوارع غير أن أبي وغيره قد اعتادوا أن يمشوا في الشوارع المظلمة مهتدين بالضياء التي تسقطها النجوم فوق ليل القرى، فإذا كان القمر تبدّد الظلام .. كنا نرى البيوت تتبعث منها أنواراً باهتة من لمبات الصفيح أو لمبات زجاجية نمرّة خمسه ومررنا بدكاكين كثيرة مضاءة بلمبات زجاجية نمرّة عشرة فكانت أنصع ضياءً، وكانت رائحة الشاي والسجائر ودخان الجوزه يعمر الشوارع بالحياة ورائحة الدخان بالذات كانت تبعث في داخلي معنى أن هناك رجالاً في قريتي يفهمون ويشعرون ويعيشون وكنت أحلم عندما أكبر سأذهب إلى الدكان وحدي لأشرب الشاي وأشرب الجوزه وسوف يكون لي جلاباب مثل جلاباب أبي ولكن لن أرتدي العمامة مثله وسوف أدّخر المال في محفظة جلدية كبيرة أضعها في جيب الصديري وساعة في يدي بدلاً من ساعة الجيب التي يقتنيها .. مررنا بكثير من الشوارع وكثير من الدكاكين حتى تركنا العزبة البحرية خلفنا ومشينا في شوارع الناحية الغربية .. كانت شوارعها ضيقة والظلام فيها أشد والناس يتكلمون بصوت عال وكثير من النساء جلسن أمام بيوتهن فوق المصاطب أو قالب من طوب أو حجر أو كومة رتش ..

فإذا ما رأون أبي قلن قبل أن يلقي عليهن السلام:

- اتفضل يا به الحاج
- منور يا عم الحاج
- مرحبه بيك في غرب البلد ..
- غير أنني دهشت لمّا وجدت رجلاً شديد البياض يجلس أمام كومة كبيرة من البطيخ ونور زاهٍ أبيض يملأ الشارع حوله فقلت لأبي:
- مين ده
- دا فهمي عمارة تاجر البطيخ
- وبعده بقليل تجلس امرأة بيضاء حلوه تتادي وهي تضع كف يدها أمام فمها:
- الأمهات والعنب البناتي
- مين دي يا به..
- دي مرات حسن القرش بتاع الأمهات .. البلح الأمهات..
- .. ونظرت إلى الناحية فوجدت بيوتاً منخفضة تمسك بجدرانها أبواب هالكة وناس كثيرون يجلسون محشورون في مداخل تلك الدور فقال أبي دون أن أسأله:
- هذه ديار الصيادين والخياطين والطبالين وهذه دار المغسل وتلك دار المولدة بعد أن أشار بيده إليها ..
- ثم دخلنا في شارع واسع فوجدت على يميني مبنى كبير ممتد فقلت لأبي:
- وهذا المبنى ..
- هذه مدرسة العرب وتُعرف بمدرسة الرفاعي ..
- خذني بعيداً عنها ..
- إن بيت الشيخ عبد العاطي بعدها ..
- ليتنا نسرع يا أبي .. إني أختنق ..
- رفقاً بنفسك يا حسن

وشدّدت على أصابعه بكف يدي الصغيرة وقلت له:

- إني أرى الناس هنا والبيوت أكثر تدهورًا من عندنا ..

- الفقر والحاجة وكثرة الناس هي التي كونت قريتنا هنا أو هناك..

.. وكانت ظلمة الليل تشتد رغم الضياء الخافت الساقط من نجوم السماء لكن الأصوات التي تتبعث في الشوارع والحارات وبائعي الفاكهة كان ذلك الجو يتنهد في صدري ويوشوش أذني وقلتُ في نفسي إن هذا العالم حولي مليء بالحكايات والأسرار ووددت لو جلست مع كل هؤلاء الناس الذين يجلسون أمام دورهم .. لكن صغري وقلة إدراكي جعلني أشعر أنني ضعيف ومغلول اليدين وأن في هذه القرية كثير من الأشياء الخافية عني ويبدو أنني في شكواي من هذا المدرس قليل الحيلة وعديم الإدراك بأمور الحياة التي رسمت لكل واحد في بلدي طريقًا في حياته فلماذا أكون ضعيفًا إلى هذا الحد وكيف أحمل أبي وأمي هذا العناء من أجلي ولماذا هذه الرقة الزائدة عندي .. إني عبء على أسرتي الصغيرة وسوف أكون عبئًا على كل قريتي حين أحمل الشيخ عبد العاطي وغيره مسئولية مدرس أساء إلى تلاميذه..

.. دخلنا في غرفة صغيرة تضيئوها لمبة سهوري أدخلتنا فيها واحدة من الدار بعد أن طرق أبي باب الدار، وجاءنا الرجل يصافحنا ويرحب بنا ونحن نجلس فوق دكة خشبية وجلس الرجل مقابلتنا على مصطبة الغرفة وبعد أن انعدل في جلسته صفق بكفيه وقال:

- شاي يا بت

.. الرجل من عمر أبي يرتدي جلبابًا من الجبردين ويلف فوق جسده عباءة حمراء قديمة ويلبس طاقية ملفوفة بشال أبيض فوق رأسه والذي كلما قال كلمة شدّ الطاقية من فوق رأسه وعدلها ثم لبسها مرة أخرى فقال له أبي:

- هي الطاقية مبرغته

- أكيد .. وضحك ..

- سيبه يقرصك هايعمل فيك إيه ..

- البراغيت كثير في البلد ..
- شوف يا شيخ عبد العاطي أنا جايلك في موضوع يضحك شوية ..
- ياريت نضحك شوية
- تعرف بدر المدرس ابن محمد السبكي ..
- طبعًا .. بقه أد الدنيا مدرس في صبحي أبوه كان مهيب من تصليح
البواجير ..
- كويس .. هو .. وسكت ..
- سكت ليه يا به الحاج ..
- بدر ده بياكل فول وطعميه من عند زكية كل يوم في الفصل ..
- وماله هو حد طایل ..
- أولاً غلط ياكل في الفصل ..
- كل المدرسين كده .. دي حاجة مش جديدة في بلدنا ..
- المشكلة إنه بعد ما ياكل يرجع في آخر الفصل وعلى مسمع من التلاميذ
ويرقع ..
- آه يرقع معقولة .. تقصد يفرق ..
- أيوه .. وابني زعلان أوي وواحد الموضوع كأنه .. وماسك في كلمة
المفروض والمفروض ..
- .. وراح الرجل يضحك وقال في حنو وهو ينظر إلى حسن:
- إنت بتلعب في الشارع ..
- لا
- طيب وأنت زعلان ليه هو حر ..
- يعني أنا رايح المدرسة أتعلّم فيها قلة الأدب ..

- لآ اتعلم القرآفة والكتابة .. وخلي الموضوع ده بعيد عن دماغك .. كل المدرسين كده ..

وتدخل أبي وقال له:

- يا شيخ عبد العاطي إحنا عايزين منك تقوله إن العيال قرفانة منك ووصيه بيقه يطلع بره أو ما ياكلش فول وطعميه كتير ..

- طيب تعال شوف الغم الثقيل في مدرسة العرب

- مع المدرسين ..

- شوف أنيس الأعجر ..

- عارفه .. مدرس القوالح ..

- ده علني للعيال .. بكره هات لي شوية بتاو ..

- بكره إنت تجيب كوزين دره ..

- وأنت تجيب عيش قمح من اللي أمك بتخيزه ..

- ويوم الأربعاء الجاي كل العيال تجيب خبيز طري

وتتحنح أبي وقال:

- مش معنى الأربعاء ..

- ما أنت عارف الأربع يوم خبيز البلد ..

- والعيال يطاوعوه ..

- اللي ما يجيبش ياخذ صفر ..

- وعلني كده في المدرسة ..

- معاه شوال في الفصل يعبيه كل يوم من التلاميذ

- دا المدرسين ألوان وحكايات .. بس كده أنيس بيشحت علني ..

- ده بيعتبر إن دا حقه وهو نشأ على الشحاته ..

- طيب العيال دي هانتعلم بكره قلّة التربية ..
- هوّ راجل طول عمره واطي وذليل النفس هانعمل إيه ..
- طيّب وبدر هانعمل إيه فيه .. هاتكلّمه ..
- ضروري .. هي عملية الفرقة عاملة زي العطس والتكريع .. دي الطبيعة بس الواحد يداري نفسه كل حاجة بتخرج من الإنسان لازم تبقيه بعيد عن عيون الناس .. الواحد يعطس بعيد ويتكرّع بعيد ويكح بعيد دون أن يراك أحد أو يسمعك .. دي الطبيعة صحيح لكن لازم نداريها هيّ دي أقل حاجة في الأدب ..
- طيّب يبقه المدرسين أولى بهذه الآداب..
- أكيد .. وعملية الفرقة دي أوحش حاجة وهي أفضع ما يخرج من الإنسان .. والدين بتاع ربنا كلّه نهى عنها وأمر بالتعامل معها في حدود الأدب .. وحسن ليه حق .. وبدر سهل علاجه لكن المشكلة في أنيس ماعندوش دم ولا حياء ..
- إحنا أملنا فيك كبير وهيّ المشكلة إن ابننا دقيق ورقيق زيادة عن اللزوم..
- بالعكس حسن ليه حق
- .. وغادرت أنا وأبي بيت الشيخ عبد العاطي ومشينا في نفس الطريق إلى بيتنا .. كان أبي صامتاً ولم ينطق بكلمة ولكنه قال عندما اقتربنا من دكان عبد المحسن محروس:
- شايف يعني بدر مشكلة بسيطة .. سمعت أنيس بيعمل إيه ..
- يمكن فقير ..
- كل المدرسين فقرأ ما بيعملوش كده..
- لغاية دلوقتي ما فيش أنيس في مدرسة صبحي..
- يا ريت ما يكونش فيه حد..

- لازم الناظر يعاقب المدرسين..
- لو الشيخ عبد العاطي ما قدرش على بدر هاروح للناظر ..
- يا ريت ..

"الحياة المحمومة"

لمّا عدت إلى البيت مع أبي وجدت أمي نائمة وغرفة أمي لبيبة مقفلة فارتديت ملابس أخرى للنوم وغسلت يدي وقدمي من حوض الطرنبه ودخلت فراشي نادماً هادئاً حتى لا أوقظ أمي، ودخل أبي المندره ونام مهموماً وكنت أشعر أنه حزين من أجلي، وظللت تحت الفراش يقطاً أفكر في أمري .. إنني أصنع المشاكل، إنني رقيق وناعم في مجتمع قوي وخشن، إنني أشعر بضعف شديد وأن الأخطاء حولي ليست أخطاءً وأن الناس حولي في قريتي أقوياء يعيشون حياتهم كما يعيش كل البشر في كل البلاد .. وأنني دخيل على هذا المجتمع وأن الذي صنعني بهذه الصنعة هي أمي وخوفها عليّ وأبي بحنانه وتلبية رغباتي، وأن تركي على حرف الترفة ورؤية النساء العرايا وذهابي إلى المدينة في حجر سميرة ولقائي معها في غرفتها ورؤية جسدها وساقها والعروس التي خلعت ملابسها أمامي .. كل هذه كانت أشياء وراء الحياة أو خلف أسوارها لم يشهدها طفل مثلي، وأن أطفال شوارع قريتي وحارة أبو سمك أفضل مني بكثير لأنهم أطفال يعيشون الحياة بأوساخها، إنهم يأخذون الحياة من تحت كالمراة الفلاحة الكادحة التي تمشي في سكة الغيط لتلتقط أقراص جلّة البهائم من الأرض وتضعها في حلة فوق رأسها لتعود لتتشف هذا الروث بعد أن تصنعه أقراص ثم تتبعه كوقود لأفران البيوت، إن أطفال الشوارع في قريتي مثل هؤلاء النسوة الكادحات من أجل لقمة عيش، إن أولاد شارع أبو سمك يعملون في الحقول وفي نقل السباخ والرتش من الزرائب إلى أرض الزرع ويحصدون القمح ويسقون الزرع وإذا استحموا في البحر أو الترفة صادوا السمك ليعودوا به إلى أهلهم أو يبيعونه .. إنهم أطفال وأولاد منتجين أقوياء وعوناً لأهلهم .. إنهم يعيشون واقع الحياة وينتجون ولذلك فإن أهلهم يرضون عنهم ويتركونهم يلعبون في الليل رغم أنهم في الليل يرتكبون أعمال منافية للأخلاق .. والكثير منهم بلا شرف وبلا عرض .. وكثير منهم نصف رجال .. إنني من الغد سوف أقوم بأعمال الرجولة وحدي .. سوف أضرب فتحي ستيته الذي أهانني أمام بيتي بقوله .. العروسة أهه .. بمجرد أنني أرتدي ملابس نظيفة ولوني أبيض .. هذا هو الموقف الوحيد في حياتي حتى الآن الذي جرحني ونال مني .. وهذا الجربوع أطول مني ويكبرني بثلاث سنوات لكن

بنيانه رفيع وهزيل وأقوى ما فيه لسانه الزفر وتربيته المنحطة فهو عميد السفلة في شارع أبو سمك، إنني لابد أن أدخل عالم الرجال الأقوياء من باب آخر، وعندما أذهب إلى المدرسة فإنه لو كان كل ما في المدرسة يفرقون فإنه لن يهمني شيئاً من هذا وأدعهم يرقعون حتى ولو دخل حلبة الرقع ناظر المدرسة والمدرسون جميعاً، إن هذه الأشياء التافهة وأعمال السرقة والشتيمة في المدرسة أعمال يجب أن أمر بها مرور الكرام فهي أعمال عادية تصدر من أطفال غلبة مقهورين .. الفقر والجوع والحرمان والعري يحيطهم من كل جانب، فكيف لي أن أسخر من تلاميذ مساكين ومدرسين أغلب من الغلب، لماذا أكشف نفسي .. لماذا أجعل الناس فيما بعد يحقدون عليّ .. لماذا لا أتدارى وأنصهر في هذا المجتمع .. لماذا لا أكون خشناً أتقبل كل شيء حولي في منتهى القوة وليس في منتهى الرقة وكأنني واعٍ ناعم ضعيف في مجتمعٍ قويٍّ .. لابد أن أرفع عصاي من الغد وأن أكون حسن الرجل .. إنني أتناول طعاماً لا يتناوله أحدٌ فلماذا لا أكون به قوياً لابد أن أكون فتوه .. وكانت الظاهرة في قريتي أن كل ولد أسمر وصوته عالٍ ومشاغب فذلك هو الفتوه والقوي ويخاف الناس منه، لماذا لا أكون أنا الولد الأبيض النظيف صاحب اللسان الطيب .. لماذا لا أكون أنا القوي ويخاف الأولاد مني .. إنني أملك أسباب القوة وهذه العصا .. الشمروخ .. الذي ضربت به عدوة أُمي هو أحد أسلحتي .. ورحتُ أفكرُ في أشياء كثيرة حتى انتصف الليل بعدها رحْتُ في النوم .. وفي الصباح أيقظتني أُمي ومن أول ندهة منها قمت ولم أنتظر الدلع الذي كنت قد تعودت عليه وهو أنني لن أقوم إلى المدرسة إلا إذا جاءتني أُمي لبيبة مناديه:

- يا حسن المضرسه .. المضرسه يا حسن ..

واندهشت أُمي وأُمي لبيبة لأنني استيقظت من نفسي دون انتظارٍ نداء المضرسه .. وفي هذا اليوم المدرسي لعبت في الحوش مع أشقى الأولاد .. جنبات وجعل وعبداه أبو شاطية .. وجربت فيهم قوتي .. أمسكت بجنبات وضربته في وجهه بقبضة يدي فوقع على الأرض والدماء تتضح من أنفه .. وجاءني الولد جعل وقال لي لو وضعت سلماً أو أرتديت خاتماً حديدياً في إصبعك وضربت بقبضتك وجه رجل كبير

لأنزلته الأرض مغماً عليه ولظهرت أمام الناس أنك أقوى رجل ويخافك الناس .. سمعت منه جيداً وكنت أريد أن أقبله شكرًا وامتنانًا لأنه أتاني بخدعة وسلاحًا لا يره أحد ودون أن أمسك شمروخًا .. ورحت أفكر في ما قاله، وفي هذا اليوم ضربت عبده أبو شاطية فوقع على الأرض هشًا وضربت فوزي الجمال وهو أتخن ولد في الفصل فوقع في الأرض دون ارتداء خاتم أو سلك في إصبعي، وبدأ كل التلاميذ الأشقياء في هذا اليوم الأول من الرجولة يلتفون حولي خائفين متوددين لأن أكون صاحبًا لهم .. وفي نفسي كنت أرفض أن أكون صاحبًا لأحدهم، ولكن زميلاني سعيد عامر الدسوقي وعلي مختار القطان كانا سعداء بقوتي التي ظهرت فجأة .. ولم أبال بالمدرس بدر الذي راح يأكل في شراهة ويبصق من الشباك في شراهة أشد كأن جاموسة تعطس ولم أبال بمجيئه خلفي في آخر الفصل وبرقعه عدة مرات .. كنت أضحك وأرفع الدرج لأتدارى فيه مثل بقية الأولاد وأضحك ملأ في .. في هذا اليوم عدت من المدرسة وأنا جدُّ فخور بنفسي وقوتي وكنت أتمنى أن أعود إليها في المساء .. وكانت أمي تراني والدم يكاد ييبك من وجهي وأثناء تناول طبق العزاويل بجوارها عند الكانون قلت لها لمّا انتهيت:

- سر الكبد والقونصه كبير أوي ..
- إزاي ..
- النهارده غلبت كل الأولاد في المدرسة ونزلتهم الأرض ..
- أهو كده عيب ما تضريشي حد ..
- أهو دلحك ده وأدبك لي زيادة عن اللزوم كان هاخليني أبقه أضعف ولد في البلد ..
- إنت فاكركه الجربوع فتحي ستيته لمّا هاجمني وقال العروسة أهه ..
- أيوه فاكركه ..
- بالله وكل الأيمانات لازم آخذ بحقي منه والنهارده ..
- دا كلام واحد شوطلي .. عيب أوي كده .. إنت كده مش ابن أمك ..

- أنا ابن البلد .. حُبِّكَ لي ودلعك ليَّ زياده عن اللزوم ها يخلِّي أقل عيال في البلد يضربوني ..
- يا بني إحنا ما نضربش حد وإلّا لو كنّا عايزينك شوطلي كنا خلّناك لعبت في شارع أبو سمك ..
- أنا عمري ما حب شارع أبو سمك ولا الأولاد فيه .. ولكن ..
- لكن إيه ..
- لكن هاضرب كل ولد صايع وقليل الأدب فيه ..
- أهو إنت كده هاتضيع منّي .. لمّا بيجي أبوك هاقولّه ..
- .. وسرعان ما تداركت الأمر ورحت أضحك بصوتٍ عالٍ وقمت من جوار أمي وأنا مازلتُ أضحك وصعدتُ درج البيت إلى السطح وغبت عن ناظرها فراحت تنده عليّ محدّرة:
- يا حسن انزل .. انزل أحسن تقع ..
- وسرعان ما نزلت إليها وأمسكت بكفّ يدها وقبّلتها فاندھشت وقالت:
- بتضحك عليّ يا حسن ..
- أيوه باضحك ..
- صحيح يعني مش هاتضرب حد ..
- عيب يا مّه هوّ أنا من شارع أبو سمك ..
- أيوه كده .. إنت ابني بصحيح ..
- وتركتها وغسلت يدي من طرنبة السور وعدت ولكن ليس إلى جوار أمي، إن جوارها الدائم سيجعلني خارج نطاق الرجولة .. عدت إلى وسط الدار الداخلي ودون أن تدري بي دخلت القاعة ورحت أبحث عن أسلاك كان أبي قد وضعها في شوال، وجدت أسلاكًا كثيرة اخترت منها قطعة في سُمك عود الكبريت وخرجت من القاعة إلى غرفتي حيث جلست على الكنبه ورحت أثني في السلك حتى قُطع ورحتُ ألف

إصبعي الوسط في يدي اليمنى بقطعة صغيرة منه فانطوى السلك معي وأحكمته في حلقة حول الإصبع وكأني أردتني خاتمًا حديدًا ..

.. جلست على المنضدة ورحتُ أقلبُ في بعض المجلات والكتب ولكني لم أفهم شيئًا .. وقلت لنفسي متى أقرأ جيدًا هذه الكتب، وكان لابد لي أن أقضي فترة من حياتي في أشياء أخرى تلهيني عن عجزني في قراءة تلك الأوراق ..

.. خلعتُ الحلقة الحديدية من إصبعي ووضعتها في جيبتي وخرجت إلى أمي التي مازالت تطبخ عند الكانون وقلت لها متصنعا الطاعة:

- هاطلع شويه بره

- فين ..

- جنب الجميزة

- ما تقفش بره كثير .. بره مش حلو .. ما تلعبش مع حد ..

- ما تخافيش أنا كبرت ..

.. وخرجت أتنفّس الصعداء لشعوري بأنني بدأت أختق من بيتنا .. ولو طاوعت أمي لربطتني بحبل في السرير أو قيدتني بسلاسل عند الكانون أو الفرن أو حول الطبلية، أما أبي فهو يحرسني بعينه ولكن من بعيد إنه يريدني أن أنطلق ولكن في حذرٍ وكان يقول من قلبه لكل الناس حولي الذين يخافون عليّ .. خدو بالكم من حسن .. وكما يقولون إنني جئت إليه بعد عطشٍ .. وكان الناس حولي من جيراننا وأقاربنا يجدون متعةً إذا رأوني هنا أو هناك كأني عجة ويقولون في أنفسهم هذا هو الولد الذي جاء إلى أبيه بعد أربعة عشر بطنًا أخذها الله منه .. وكنت أتضايق من نظرات هؤلاء الناس ورؤيتهم لي لأنهم كانوا ينظرون إليّ وكأني عجة أو تمثال صغير في متحف، وكان ضيقي شديدًا من النساء اللاتي يخفن عليّ من أي شيء، وبدأت أدفع أي امرأة أو فتاة بيدي عندما تقترب منّي وتريد تقبيلي .. كنت أتقبل هذا وأنا صغير ولكنني الآن كبرت ولا أحب هذا الود أو هذه المشاعر الزائدة لأنها تجعلني أشعر بأنني نونو ناعم وضعيف .. في سكة رحيله ثلاث نساء يقبلن نحوي

في ودّ وحبّ وهات يا حُضن وتقبيل ودعاء .. هُنَّ فاطمة عبدالله أبو إسماعيل وهي فتاة جميلة طويلة هيفاء وأصلها من الكُفر ولا أخفي أنني كنت أشعر بجمال الدنيا حين تقبلّني وتحتضني، والسيدة لبيبة النوبية هي مثل أُمي في حنانها وخوفها عليّ، وسيدة أخرى هي زوجة قطب شاويش عندما تراني من بعيدٍ تسمّي بالله وترفع إصبعها إلى أعلى داعية لي بالحفظ وطول العمر حتى تعدي القنطرة التي يعبرها الناس إلى سكة رحيله .. فلا يجب أن أقف عند هذا الحب وهذه كل حياتي فليكن حب الناس انطلاقة لعمل شيء آخر لنفسي يجعلني أتغيّر إلى صغير قوي إذا اعتدى عليه أحدٌ بكلمةٍ أو بصفعةٍ ردّها له، ويفعل المدرسون ما يحلو لهم ولتأتي غنيمة مرّة أخرى إلى دارنا وتسخر من أُمي فإنني سوف أقطع رقبتها .. أين هو فتحي ستيته الجربوع الذي أهانني في يومٍ .. إنني اليوم في شدة قوتي ومستعد للانتقام منه فهذه هي الحلقة الحديدية وهذا ذراعي القوي سوف أكيّل له الضربات .. سوف أرفع قبضتي فوق رؤوس الناس لتشكر كل مَنْ يحبني ولتضرب كل مَنْ يكرهني أو ينال منّي..

فهل هذه هي الحياة عندي الآن أم أن هذا جنون طفل .. إنني أرى الناس حولي تائهون هائمون في شوارع صراعهم من أجل العيش، وأرى الناس لا يرون إلاّ الطعام والجري وراءه بكل ما أُوتي كلُّ منهم من جموحٍ، وأراهم جميعًا أيضًا يلهثون خلف النساء في الحارات الضيقة وفوق سطوح الدور المتهرئة في الليل وفي الغيطان وعلى حرف التربة إننا جميعًا نتسابق إلى أين .. المدينة مثل القرية والكلاب مثل الذئاب والثعالب تسعى لتأكل .. وأبي قمة حياته في بيتنا داخل قاعة الفرن وفي الحقل هذه غرفة التبّن .. هل هو رجل حنون حقًا على الأرامل والمطلقات الجميلات والحركات ولماذا لا يتزوج من القبيحات .. لا أحد يتزوج من القبيحات أو يقبل عليهن .. وهذه هي الأرزاق قسّمها الله ونثرها فوق الأرض ليرى عباده إلى أين يذهبون، وأنّ الله في نهاية الأمر سوف يحاسب الجميلة على جمالها ماذا فعلت به ويحاسب القبيحة على صبرها أو أنها ذهبت إلى قبحٍ لتزيد من قبحها .. إنني أرى هوجةً بين البشر وهي رياح عاتية لا يصمد أمامها إلاّ القويّ .. إنه اضطرابٌ محمومٌ فلا يرون غير أقدامهم وفروجهم وبطونهم .. ومن أنا في وسط هذه الحمى ألا يجب أن أعلن عن

نفسى حتى لا يلتهمني الوحوش حولي .. لابد من إزالة كل الأوباش من حولنا أو
محو الفقر الذي جعلهم أوباشاً ..

.. كان لدار الصاوي أفواجٌ من الأوز تنزل التربة كل يومٍ لتسبح في مياهها وتشرب
وتمشي في طواير من عند شارع النقطة الذي يحد دورهم من الجنوب وحتى ناحية
بيت الحاج أمين أبو عافية ثم يعودون بعد أن يكونوا قد قطعوا تلك المسافة أشواطاً
.. يعودون يتركزون في انتعاشهم من مياه التربة في المسافة التي تقع نهايتها عند
بيتنا فهم لا يتجاوزون قنطرة زكي أبو شنب من الشمال وفتحة سور عبد العزيز
الصاوي من الجنوب .. وكانت النساء اللاتي يقضين حاجتهن من المياه حول حنفية
خليفة الأكرات والأخريات اللاتي يغسلن القمح أو الملابس أو المواعين في هذه
المسافة يجدن متعةً أيضاً في مراقبة هذه الطواير من الأوز السمين الذي تنعم به
دار الصاوي وخاصةً دار الحاجة ستيته الصاوية الأولى كصاحبة أكبر عدد من
الأوز في التربة .. وقلت لماذا لا يكون لنا أفواجاً منها .. وسوف أسأل أبي وأمي
لماذا لا يكون لنا مثل هذه الطيور الدالة على النعمة .. وفي دقيقةٍ وجدت نفسي
أدخل إلى أمي لأسألها:

- ليه ما عندناش وز زي خالتي ستيته الصاوية ..
- ما عندناش مكان في البيت .. ما فيش غير الزريبة والزريبة على أد الحمارة
- نعمل في الغيط .. الغيط واسع ..
- لما نروح الغيط هانعمل .. الغيط واسع وها نخلي أبوك يعمل قوضه للوز ..
وبعدين إنت عايز إيه .. مش مقضيك الغنم اللي بيدبحها أبوك ويجيبها البيت
..
- يعني ولاد الصاوي ما عندهم غنم ..
- يا بني كل بيت مشهور بحاجة .. مش رُحت الغيط وشوفت أد إيه عندنا
معيذ للدبح ..

- أنا كنت عايز وز هنا في البلد أشوفه أفواجًا في التربة .. أنا بافرح أوي لمّا أشوف وز الصاوي ..

- على فكرة يا حسن الوز ده بيتحسد .. كل يوم والتاني بيتسرق وزه ..

- مين اللي بيسرقه .. هو فيه حرامية وز على التربة ..

- إنت عارف الواد اللي قالك العروسة أهه ..

- أيوه .. فتحي ستيته .

- هوّ وعيال تانية من شارع أبو سمك حرامية وز بس هوّ أشهرهم ..

.. وتركتُ أمي وانقلبتُ إلى حيثُ كنت واقفًا عند الجميزة .. هذه جموع الوز تتقدم نحو دارنا وهؤلاء عيال يطاردون الوز بحدف الطوب حتى تسقط واحدة منها فيلقفونها ويجرون بها إلى دورهم ليذبحوها ويلتهموها .. ولمّا وصلت أفواج الوز في مقابل دارنا كان العيال قد انصرفوا في شارع جانبي وهولوا ناحية دور أبو خليفة ولم يبقَ يطارد الوز حتى وصل إلى قنطرة أبو شنب غير هذا الذي أبحث عنه فتحي ستيته .. إنه لا يستحي من كل الناس حوله والذين ينادونه كفاية .. كفاية حرام عليك .. رُوّح لأمك .. عيب .. وتقدّمت نحوه وهو يقف فوق القنطرة فأمسكت بذراعه فالتفت نحوي قائلاً وهو يدفعني حتى كدت أسقط في مياه التربة:

- روح إمشي يا شاطر ..

وفي سرعة البرق كانت قبضة يدي صاحبة الحلقة الحديدية في وجهه فاستدار نحوي ودفعني فوقعت فوق القنطرة، ولكن بنفس السرعة قمت موجهاً قبضةً في رأسه وثانية في أنفه وثالثة في عينيه وانطلقت نحو وجهه أسدد اللكمات حتى فج الدم من وجهه كله فصرخ ولطم وجهه ثم وقع على الأرض غارقاً في دمه .. والتف الناس حولنا وشدوني حتى باب داري قائلين واحدًا بعد الآخر:

- يا نهار إسود ضربت فتحي ستيته ..

- معقولة دا محدّش قادر عليه ..

- هوَ إنت معاك سكىنة ..
 - خش جوّه أمه هاتيجي تشرودك
 - معقولة يا حسن إنت قوي كده..
 - عملت اللّی مقدرش عليه الكبار ..
- خرجت أم إبراهيم لتأخذني إلى الداخل وساعدها في إدخال البيت خالتي لبيبة النوبية التي نادت قائلة:
- يا لبيبة إنت فين .. سايبين حسن ليه ..
- كانت غرفة أمي لبيبة مقفلة فمنذ الصباح ذهبت إلى بيت أبيها ومعها سعاد وعبد العزيز .. وخبطت الباب بيدها فلم ينفرج بعدها زعقت:
- يا أم حسن .. يا أم حسن ..
 - أيوه أيوه .. مين ..
 - تعالي خدي حسن ..
 - حسن حسن ..
- ودفعت أمي باب الوسط لتجد الست النوبية ومعها أم إبراهيم وهما يغسلان يد حسن من بقع الدم التي ملأت قبضة يده فصرخت وهي تحتضن ابنها:
- مين ضربك .. مين ضربك ..
 - ما تخافيش هوَ اللّی ضرب .. ابنك هايتحسد .. ضرب فتحي ستيتيه الناس كلها مش مصدّقة .. دخلّی ابنك جوّه واقفلي الأبواب .. هاتجيلك ستيتيه تصوّت وتردح ..
 - يا خبر أبيض .. إنت ما بقتش حسن ..
- .. وانصرفت النوبية وهي جد خائفة على الصغير من الحسد وراحت أم إبراهيم تقفل الباب الخارجي بإحكام وجلست خلفه لتكون أول صد لستيتيه الغجرية عندما تصل ..

.. وحكيت لأمي ما حدث وكانت تضرب صدرها بيدها لأنني بهذا الفعل أكون دخلت دائرة أولاد الشوارع فقلت لها بعد أن بالغت في الدهشة:

- أنا ولد من شارع في قرية ولا بد أن يكون لي شقاوتهم وإن لم أفعل فسيفعلون هم ..

وإن لم أكن مدافعاً عمّا في رأسي فسوف أتخطّم نفسيّاً من حمى وجموح الآخرين ..
إنني لن أسكت بعد ذلك ولن أستكين لأحدٍ .. بل وسأمر في شوارع حولنا باحثاً عن أي معتدٍ لتأديبه ..

- وما الفرق بينك وبين غيرك ..

- أن أكون مهذباً مع المؤدب وإذا نال مني أحد أدبته ليس أكثر ..

- عندما أذهب إلى أمي في تلوانة سوف أخبرها بأنك تغيّرت .. إن الأطفال في تلوانة ليسوا كذلك ..

- إنني طفل من شنشور ولو كنتُ في تلوانة لكنتُ طفلاً مثل أطفالها، ثم أن الناس في بلدك يا أمي فيهم وداعة ورقة ولا يوجد فيها طفل مثل فتحي ستيته أو ابن الجمال أو ابن جعل أو ابن أبو شاطية..

- أنت تحاورني ولا أعرف كيف أثثيك عمّا في رأسك ..

- إن كنت سأظل طفلاً هادئاً ورقيقاً كما تريدان فسأظل أكره المدرسة وربما لا أذهب إليها ..

- المدرسة دار للتربية ..

- ولكن في مدرستنا لا توجد تربية أخلاقية ..

- إن المدرسين يتفرجون على التلاميذ ويضحكون .. وكأن أفعالهم المشينة في الحوش والفصل شيء عادي ..
- أفهم من ذلك أنك لا تريد أن تكون طفلاً ورجلاً كما أتمنى ..
- سوف أكون كما تريد ولكن بصفات الرجال .. هل تطعمني ما لذ وطاب لأكون هفية للأولاد والرجال في قريتي .. هل ولدت لأكون ندلاً .. إنني لا أخاف أحداً وأشعر أنني طفل ولكن لي كبرياء وشموخ لا يشعر به أطفال القرية مثلي ولا بد أن أكون قوياً لأزود عن هذا الكبرياء .. إنني تربيت ليس كما تربي بقية الأطفال وسوف أحمل فوق رأسي نسرًا ليطير ويرتفع فوق سطوح كل القرية ورؤوسها ليعلن أن القوة الاقتصادية أو أن الأخلاق لا بد لها من سلاح القوة كي ينتشر الحق ولا يبقى للفساد أثر بين جنات بيوتنا ..
- إنك تقول كلام الكبار وعندما تكبر فإنني لم أتوقع أن أسمع منك كلاماً كهذا وكأنك داعية .. ولا أعرف كيف أتيت بهذه الأفكار البعيدة عنك كطفل .. وإنني يا بني لا أريد أن تكون داعية .. إن معظم الدعاة في كل القرى ضعاف النفوس ولا يفعلون ما يقولون ..
- ليس في بلدي داعية واحداً فكيف تكلمت عن الدعاة ..
- إنني أسمع يا حسن .. لا أريدك أن تردّد قال الله وقال الرسول ﷺ .. ولكنني أتمنى أن تفعل ما أمر به الله وما قاله الرسول ﷺ .. إنني أريدك فاعلاً ولا أريدك مثل الذين يتشدقون بكلامٍ عن الدين ..
- إنني لم أتكلّم مرة واحدة عن الدين ولا أعرف عن الدين شيئاً، إن كل ما فعلته في ديني هو أنني أصلي معك أو مع أبي حينما تدعونني لأن أصلي ..
- لقد جعلتني أتمادى معك في كلامٍ بعيدٍ عما أقصده ولا لزوم له الآن ..
- إذا أردت أن أذهب إلى المدرسة في عامي الثاني فدعيني أتلجّح بسلاح الأشداء .. لا بد أن أندمج مع تلاميذ المدرسة لأكون تلميذاً عادياً وسطهم .. وحتى لا أندesh ولا أنزعج من أفعالهم .. دعيني أندمج معهم قليلاً ..

- بأن تضرب الأولاد ..
- لا إني لن أضرب أحداً ولكن إذا اعتدى عليّ أحدُ فعلى الأقل أمنعه من ذلك ..
- أفهم من ذلك أنك تريد أن تتسلَّح بسلاح القوة حتى تحب المدرسة
- إذا بقيت رقيقاً هادئاً مؤدباً أتجنب الأولاد فإنني سوف أكره المدرسة لأنني سأكون مهاناً فيها ..
- ليت في بلدنا مدارس أخرى غير هذه المدرسة ..
- رجل من الكُفر اسمه جمال فوزي .. أخذ ابنه حسن من نصف العام الدراسي ليدخله مدرسة أخرى في بورسعيد .. خذوني إلى المدينة ..
- أي مدينة .. إن معاشنا في هذه القرية .. ولا بد أن نعيش فيها كما يعيش أهلها ..
- الله .. الله يا أمي إنك وصلتِ .. تقولين إنه لابد أن نعيش فيها كما يعيش أهلها ..
- نعم أقول ذلك ..
- وأهلها لابد لهم من قوة أستعين بها على الفاسد فيها ..
- احترت معك ولا أعرف ما الذي تريده وسوف أحكي لأبيك ما قلته لي ..
- .. قبل المغرب جاءتنا أمي ليبيبة وأبنائها وحكت لها أمي ما فعله حسن في الولد الأغبر فضربت كفاً بالآخر وقالت .. يا سبحان الله .. من أرنبٍ طيبٍ إلى أسدٍ .. ووضعت يدها على كتفي وقالت:
- يا محفّض .. اسم الله عليك .. قل أعوذ برب الفلق ..
- ورُحِت أضحك وهي تضحك على ضحكي ثم سألتها:
- يعني إيه محفّض ..

- يعني ربنا يحفظك من أي حسدٍ .. أو ربنا يحصنك من عين الحسود ..

وكانت أمي ممتنة لدعائها لي ومهما حدث بينهما من خلافٍ إلا أن أمي وإن كنا متأكدين أنها تدعو لي من كل قلبها وأنه لولا نجيب وغنيمة وأم الرزق لما كانت أمي لبيبة في صراعٍ شديدٍ مع نفسها بين أهلها وبين أمي ..

.. وكانت سعاد وعبد العزيز قد دخلا غرفتها وناما ودخلت أمي بعد الحكاية إلى داخل الدار لتجهز العشاء، وأذن المغرب وفرشت أمي لبيبة سجادتها وهي عبارة عن حصيرة طولية نظيفة ودخلت في صلاة المغرب وجلست على المصطبة بجوار الصومعة ورحت تأملها في صلاتها المتأنية .. فهي تصلي كثيرًا من النوافل .. ولمّا فرغت من الصلاة أخذت تسبح بمسبحتها الطويلة ذات اللون البني وهي مغمضة العينين، وبعد أن تأكدت أنها استغفرت كثيرًا خطفت مسبحتها وطلعت إلى السكة ووقفت عند الجميزة شاخصًا بصري ناحية معمل اللبن الذي يؤجره حسين ابن عمتي للخواجة خريستو اليوناني وكنت كثيرًا أشخص ناحية باب المعمل متمنيًا أن أرى زوجة الخواجة الجميلة وهي تخرج قاصدة بابًا آخر لتصعد إلى شقتها في الدور العلوي لأحد بيوت الحاج حسين والتي شيدها خصيصًا لأسرة من يؤجر معمل الألبان، وكانت زوجة الخواجة عندما تراني تبتسم وتتجه نحوي حيثما كنت وتقبلني قبلة رقيقة وكم كنت أسعد بتلك القبلات الأوربية لأنها تختلف كثيرًا عن قبلات الفلاحات .. فقُبلات الفلاحات في قرיתי كأنهن يعضضن وجهي .. والذي كان يجعلها قبلات غشيمة بدون رقةٍ إن الواحدة منهن كانت تقول وهي مقبلة على تقبيلي .. اديني صدغك .. فيذهب جمال القُبلَة من خشونة تعبيرهن .. وأقول لنفسي بعد أي قبلةٍ لفلاحة .. روعي جتك الغم هو أنت بتبوسي جحش .. والذي يزيد من خشونة قبلاتهن أن القُبلَة في نهايتها كان تطرّع طرقة مثل طرقة كاسات الهوا التي كانت تطبعها ست أبوها أشهر كابيه في العزبة البحرية .. ولمّا كانت زوجة الخواجة تقبلني وتذهب كنت أقول لنفسي أيضًا داعيًا لها .. روعي الله يرضى عنك .. فعلاً دي قبلات البحر الأبيض المتوسط الراقية .. ويبدو أن النساء في قرיתי لم

ترَ أي واحدة منهم البحر المتوسط ولكنهن جميعًا غطسن في مياه التربة ومياه البحر الأعمى فكانت تلك قُبلاتهن ..

.. وعندما نويت أن أبتعد عن كل شيءٍ ناعمٍ من النساء نحوي خاصةً القُبلة لأنها عضة وليست قُبلة فإنني كنت أعطي كل وجهي لهذه الخواجاية لأستقبل قُبلاتها .. وكان زوجها يراها وهي تقبلني فيبتسم ويشد على كتفي بأصابعه البيضاء ويقول .. كأنه يشجعني:

- جود جود .. براقوا ..

وأقول في نفسي داعيًا له كما أدعو لزوجته .. ربنا يحميك ويكثر من أمثالك .. أد كده أنتو ناس طيبين يا أهل اليونان .. تعال شوف البهايم اللي في البلد لو أن واحدًا منهم شاف مراته وهي تقبلني يمكن يطلقها رغم أنني صغير وليس من ناحيتي ضررًا لزوجته ..

.. لكنني في يوم شعرت بضعفٍ ناحية زوجة الخواجة خريستو وذهبت أنا إليها لأنني كنت في حاجة إلى قبلتها .. دخلت عليها معمل الألبان لأجدها جالسة إلى مكتب صغير وبجوارها ابنتها الصغيرة التي لا تعدو ثلاث سنواتٍ .. ولم أجد الخواجة خريستو .. كانت السيدة الصغيرة الجميلة تراقب عمل العاملين في المعمل ولكنني بالفطرة وبعد أن أجلسنتي بجوارها وأشبعنتي بقُبلاتها شعرت بأنها هذه المرة تعض مثل أي فلاحٍ فقلت لها:

- هل جلست على حرف التربة

- لا

- هل ذهبت إلى البحر الأعمى

- لا .. وسكت ..

.. فراحت تتأملني مندهشة لهذين السؤالين:

- لماذا التربة والبحر

- لشيء في نفسي
- وهل تريدني أن أذهب إليهما
- لا إنه مجرد سؤال .. فيه مثل يقول .. مين جاور الحدّاد ..
- لا أفهمه ..

ثم تحدثت مع بعض العمال وهم يزاولون صناعة الجبن وكانت توصيهم بملاحظات فنية في أعمالهم وكان العمّالُ يبدوون طاعةً لها وذلك لما لملاحظاتها فائدة في إخراج جبن جيد .. وراحت بعدها تسوّي من شعري الخشن بأصابعها وأخرجت مشطاً من درج المكتب وأخذت في تسريح شعري بعناية فقلت لها في أدب:

- فين الخواجة؟
- مسافر مع الجبنه إسكندرية ..
- هاييجي إمتى؟
- بكره ..
- مش هاتخافي لوحذك ..
- تعال معايا ..
- قولي لأمي ..

وأخذتني من يدي في يدها وابنتها في يدها الأخرى وقصدت بيتنا وقرعت باب السور في رقة فلم يرد عليها أحد فقلت لها تعال أدخلي .. وتركت يدها وتقدّمتها وتبعنتي وناديت أُمي:

- يا مَه يا مَه .. تعال الخواجاية عايزاك ..
- خرجت إلينا أُمي فتقدّمت إليها الخواجاية قائلة وهي تقبّلها بلكنتها المكسرة:
- إزي إزيك يا أم .. حسن .. جود جود ..
- جود جود .. اتفضلي اقعدي ..

- خلّلي حسن معايا الليلة
- الليلة ..
- أيوه ..
- لأ .. خلّيه معاك شوية ..
- طيب خلاص معايا شوية ..
- خلاص يا خواجاية .. ساعة ساعتين ..
- لأ تلاته ..
- وحياتك خلّلي بالك ..
- عارفة عارفة .. حسن دا غالٍ أوي .. عارفة عارفة ما تخافيش ..
- .. أطعمت ابنتها الصغيرة حتى نامت في فراشها وعزمت عليّ بالطعام فشكرتها،
وكما قبلتني في المعمل بعنفٍ راحت تقبّلني في بيتها بأشدّ عنفاً وتذكرت ما حدث
مع سميرة وفجأةً قالت لي:
- ريحتك عرق ..
- هاروح استحمي ..
- تستحمي بإيه ..
- بالصابون ..
- تحب أحمّيك بشامبو .. الشامبو جود جود ..
- عمري ما شفته ..
- جميل جميل .. تعال ..
- وأخذتني إلى حمامها وراحت تخلع عني ملابسني كي تحمّيني .. واستسلمت لها ..
لأصابعها لُفلاتها لتدليك جسدي بالشامبو لأول مرّة .. وراحت تثيرني فاستجبت
لأصابعها وشفتيها في مكان آخر غير وجهي .. غسلتني بقوةٍ ولفّنتني ببشكير عدة

لَفَات على جسدي الصغير .. وفوق الفراش عندما جف جسدي ألبستني من ملابسها الداخلية .. فقلت لنفسي هوَ أنا ست ولكنني لم أعترض ولم أقاوم وتركت لها نفسي فإذا بي أسعد بلقائها كأنه حمّام آخر ساخن أخذته فوق فراشها .. وتمنيت لو كنت رجلاً كامل الرجولة ولكنني مازلت طفلاً تلقاني النساء وكان ذلك ثاني لقاء لي في حياتي .. وفي اللقاءين طفل عبثت بجسده فتاة من الكفر في الخامسة من عمره ثم وهو في السابعة تعبت بجسده زوجة الخواجة الجميلة .. وقلت لنفسي وأنا أترك بيتها وهي تنزل بي الدرج في رقةٍ بالغَةٍ .. قلت لنفسي إلى أين .. ومن أنا .. شعرتُ بأنني تهاويت مرّةً أخرى بقوةٍ إلى الهاوية .. لقد أصبحت لعبة في يد النساء .. وعندما دخلت إلى غرفتي آويت إلى فراشي دون أن يدري بي أحد .. لم يكن أبي في البيت وغرفة أمي لبينة مقفلة وأمي تشخّر فوق الكنبه ومحمد الصغير نائم على كنبته .. آويت إلى الفراش وتلفّني مشاعر متباينة .. كنت حزينًا على نفسي وضعفي وسكوني واستسلامي وسألت نفسي وأنا أشد الفراش فوق رأسي .. مَنْ أنا .. وإلى أين أذهب .. وما الذي تريده النساء الجميلات مِنِّي .. كنت أشعر بأنني طفل عبيط أحرق ولكن سبق عمره بسنوات عشر ..

.. وفي اليوم التالي شعرت بأنني لابد أن أذهب بعيدًا عن العالم المتوحّش حولي وأن أكبر ما في قرّيتي تؤخّش النساء فيها حتى زوجة الخواجة ابنة البحر المتوسط .. فهل كل نساء البحر المتوسط لهن نفس صفات النساء في قرّيتي .. وهل كل نساء البحور لهن نفس المؤهلات .. إن هجرة سميرة إلى الإسكندرية كان رحمة بي وذهابي مع اليونانية في بيتها واستسلامي لها ضعفًا وحماقَةً .. فألى أين أذهب لأحتمي من هذا العالم المخيف .. وهل يعرف طفل إلى أين يذهب .. وكنت أتدارى من أمي وأبعد عنها وأشيح بوجهي عنها حتى لا تقرأني وتعرف أحداثني بالأمس، وكنت قد نسيت أنني أرتدي ملابس اليونانية فأخذت غيارًا لي وارتيته في غرفة القاعة ولففت ملابسها وقبضت عليها في كف يدي وخرجت من الدار لأجلس فوق جدر الجميزة والنفتُ يمنةً ويسرةً وفي خجلٍ وألمٍ ألقيت بملابسها في مياه الترعة وتابعتها وهي تدخل تحت قنطرة زكي أبو شنب، ورحت أتابع خروجها من الناحية الأخرى للقنطرة فلم أجد شيئًا قد خرج وسعدت بأنها دُفنت تحت القنطرة .. عدت

بعدها لأجلس فوق جدر الشجرة ثانية وكان صوت ماكينة الطحين عاليًا وشعرت
بصداه في أعماقي كأن أحدًا يناديني، ولمّا كان صوت الماكينة أنيسي في كل وقتٍ
أحسست بأن شيئًا قويًا يسكن في داخلي فألقيت برأسي فوق جذع الجميزة وحاولت
أن أنسى وساعدني في ذلك أن أقول لنفسي بصوتٍ هامسٍ:

ماذا في هذه الحياة .. وما الذي يدور في قريتي .. ولماذا تركتني أمي مع الخواجاية
.. إنَّها لم تكن تتركني أبدًا أذهب مع امرأة أخرى من البلدة وكأن نساء القرية في
نظر أمي أوياش .. إننا ننخدع يا أمي .. إن النساء الجميلات في هذه البلاد من
الناحية الأخرى من هذا العالم المترامي حول مياه البحر المتوسط لم يعدن يملكن
غير اللهو والعبث .. لقد شبعن من الطعام والشراب وجئن إلى بلادنا لمزيد من المال
واللهو وأنه من انبهارنا بهن ننخدع .. من ينزع عن قريتي العبط والهبل .. إننا لا
نثق في أنفسنا وننبهر بالآخرين وبالتالي يضحكون علينا .. أنتِ يا أمي ساذجة ..

"دخان الشاي والجوزة"

مرّت أيامٌ فيها لم أخرج من الدار وحرّمت أن أقف عن الجميزة أو عند القنطرة حتى
لا تراني زوجة الخواجا فتأخذني مرّة أخرى، ولكن إلى أين أذهب؟ إن الشارع في
قريتي مليء بالمجهول ولا أستطيع مواجهة مجهول آخر، ولو كنت أستطيع إقامة
حياة كاملة في داخل البيت لفعلت، إنني أجد في بيتي حنان الأم في إطعام الطعام
وخوفها عليّ، وفي غرفة الخزانة أجد الفراش النظيف ونومي على سريرها النحاسي
وأجد الدفء والنار المصطلية فوق المنقذ، وحكاويها حتى أنام عمّا جرى في يومها
من نقار ومكر وصراع أمي لبببة على أبي وأخبار أم إبراهيم التي تأتي بها من أهل
شارعها الفقير ومن النساء على حرف الترعة ومن السوق ومن عند البقال والجرّار

ومن بيوت أعمامي وأقاربي، كل ما وصل أُمي من أخبارٍ وحكاياتٍ تجد متعة كبيرة في أن تحكيها لي كل ليلةٍ وكنت لها خير مستمعٍ .. أسمع منها فأعرف الدنيا حولي وإذا كانت هناك مسائل تتضجر منها أُمي وتحزن أشدُّ من أزرها .. وكان سبب أن أُمي تفرغ ما لديها من حكايات وأخبار أنها تفتقد الصديقة والحبيبة في قريتي وكان المثل المعروف في بلدنا أن أهل قريتي شنشور لا يحبُّون الغريبة ولا يتخذونها صديقة ويخافون منها وربما يحاربونها، ومن حين لآخر كانت سيدة غريبة من مجيريه اسمها خضرة الزيات متزوجة من قريب لنا كانت تدخل بيتنا وتسلم على أُمي وتجلس معها بعض الوقت لتشتكي لها حكايات تحدث من أهل زوجها وكيف أنهم يحاربونها ويريدون طردها إلى أهلها ويكفي أنها أتت لزوجها بولدٍ .. ولكنهم لم يستطيعوا تنفيذ مخططهم وكان يرأس هذا المخطط واحد من فرع أبو شاطية .. وكانت هذه السيدة مكافحة كفاحًا شديدًا حيث إنها كانت تقوم بأعمال البيت ثم تذهب إلى الحقل بعد أذان العصر لترعي ما تبقى في الغيط من مصالح، وفي المغرب تحلب البهائم وتعود إلى البلدة وهي تحمل دست الحليب فوق رأسها .. وكان زوجها يكبرها بكثيرٍ لكنه كان رجلاً طيبًا هادئًا وهو يعتبر فلتة من فلتات فرع أبو شاطية، ولأنها كانت سيدة عملية فإنها كانت تجالس أُمي وهي عائدة من الغيط إلى بيتها الذي يقع في آخر شارع الخارجة وكانت أُمي تقول لها دائمًا لا بد أن ننجح ونواصل بقية المشوار في هذه الدور وفي هذه البلدة الغشيمة التي تكره الغريبات، وكانت كل منهما تقوِّي الأخرى بالحكايات التي تحدث عندها ليلتقيا في النهاية إلى مواصلة النجاح حتى يكبر الأولاد .. ومن النساء اللاتي كن يأتين إلى دارنا للسؤال عن أُمي السيدة لبيبة النوبية التي كانت تحب أُمي في الله وتحب أبنائها وتجالسها وهي تذهب إلى بيتها الذي يقع في سكة رحيلة أو وهي تدخل إلى البلدة لقضاء حاجياتها، ثم يأتي بعد ذلك فاطمة عبد الله أبو إسماعيل وبيتها يقع في رحيلة وكانت في الرايحة والحاية تمر على أُمي لسؤالها عما إذا كانت تريد حاجة من السوق أو البقال أو من الكفر .. وكلما تدخل بيتنا نقبل أُمي .. وكانت جميلة طويلة لها وجه أبيض بشوش، ومن نساء الصاوي اللاتي يذهبن إلى الحقل قرب المغرب لحلب البهائم كانت السيدة سميرة والسيدة زكية اللتان كانتا يحبين أُمي ولكن من بعيدٍ حيث إنهما

في الراححة والجاية .. إزّيك .. سالخير يا أم حسن وكانتا يحرصن على ذلك ..
خاصة عندما بدأت ألعب مع أبنائهما حداد ورشاد وعبد الحميد .. كنا نلعب من ليلة
لأخرى في تكويم التراب وتشكيله في شكل هرم قرب حنفية خليفة الأكرات وفي مقابل
شارع أبو خليفة ..

.. وكلّمّا مرّت أيام طويلة جاء لزيارتنا في الليل زوجة أبي دردير وسعدية وعبد
المنعم وكانت هذه السيدة تقول عبارة مشهورة وتكرّرها كثيراً:

- اسكتِ يا أم حسن دا لولا الأرض على دردير وحدّاد ما كانوش يعرفوا يأكلوا
نفسهم .. دا علشان الاثنين خاييين ربّنا رزقهم بالأرض ..

.. وكانت أُمّي تضحك كثيراً وتوافق على كثير من معناها .. ولم يكن في دار عمي
دردير ناصح وشاطر وصاحب عقل راجح غير سعدية وهي الابنة الأكبر في أبنائه،
وكان حديثها مكرّراً عن إخوتها مصطفى البكل وإسماعيل ولم أكن أحب حكاياتها
لأنها لم تكن حكايات ممتعة وقليل من النساء من يمتعنك بالحديث ..

.. وكلّمّا عرفت زوجة أبي محمود أن أهل بيت دردير جاءوا لزيارتنا .. جاءت هذه
السيدة صاحبة الروح والحكي الرائع ومعها أمها السيدة أم إبراهيم البكلية وابنتها نبيلة
وابنها عبد الرحمن .. ولقد كنت بالفطرة أحب أبناء عمي محمود عن أبناء عمي
دردير .. وظللت وأنا طفل أحب أن أستمع إلى حكايات زوجة عمي محمود وكان
لهذه الحكايات تأثير كبير عليّ فلقد عشقت الاستماع إلى حكاويها وكذلك أمها التي
كانت تقول لأُمّي:

- حسن في غلاوة عبد الرحمن عندي ..

وكانت زوجة عمي محمود تقول:

- ما يجينيش أعز من حسن .. زي عبد الرحمن والله ..

وتقول أيضاً لأُمّي:

- إحنا بنحبك أكثر عشان واعية لحال حداد .. ومحمود وإحنا كلنا ما بنحبّش

ال دراوشة .. شوف إحنا معاك عليهم ولا يهّمك منهم ..

.. وكلما جاءت أمي لبيبة لتجلس أثناء وجودها تزيد زوجة عمي من مجاملة أمي
لتغيط لبيبة علناً:

- إنت جيت نورت البلد .. دا حسن بملك حداد كله .. دا حداد دا غلبان كان
المفروض اتجوز من زمان .. كان يوم أبيض يا لبيبة لما تجوزت حداد ..
قعد عشرين سنة من غير ولاد .. وتضحك وكأنها تهزّر مع لبيبة وتتابع قائلة
.. جالنا إيه من الدراوشة ولا حاجة .. وتضطر أمي لبيبة لمجاراتها في
الضحك ولكنها كانت في قرارة نفسها لا تحبها وتكره كلامها ..

ومّرت أيام أخرى على حدث الخواجية معي وحاولت أن أدلوي نفسي من آلامها فلم
أستطع الخروج من جرح يؤلمني .. فألى أين يذهب الطفل ليروح عن نفسه، وفي ليلة
قلت لأبي:

- خدني الدكان يا به

- تعال نروح ..

وارتديت حذائي وقصدنا دكان عبده أبو سعده الذي يقع في بيت عبد الواحد الشاذلي
وهو جار لنا .. دخلنا الحانوت فلم نجد أحداً من شلة أبي غير أننا وجدنا زكي أبو
شاطية وهو يغسل عدة الشاي وترك ما في يده ومسح يده في ردن الجلباب وقال
وهو يسلم على أبي:

- إزيك يا به حداد

- إزيك يا زكي ..

وابتسم أبي وجلس وقعدت بجواره ورحب صاحب الدكان بأبي ثم قال:

- شاي يا عم الحاج وحلاوة وجوزه ..

- ما إنت حافظ أهه ..

وراح زكي يضع جذور العنب الجافة فوق القصعة ونقّطها بقطرات من الجاز حتى
تشتعل بسرعةٍ وأشعلها ثم انقلب إلى ركن في الحانوت وحمل جوزه كبيرة وخرج بها

من الدكان ليغسلها بكوز ملأه من جردل ماء يكيّلون منه لعمل الشاي ولغسل جوز المعسل .. اصطلت النار ووضع زكي البرّاد الذي عاير فيه كوبين فقط من الماء .. وكان عبده أبو سعدة قد زوّده بالسكر والشاي وباكو معسل دفرأوي وماشه ليلتقط بها النار ويرصّه بالحجر فوق المعسل .. وكان من العادة أن يسلك زكي الجوزه بأن يشرب منها عدة أنفاس حتى تضخ الجوزه دخانًا كثيفًا في فم وأنف زكي ثم يناولها لأبي قائلاً:

- كده تمام يا به الحاج .. إسلكت ..

فيأخذها أبي منه ويظل يسحب منها حتى أن فوهة أنف أبي كانت تطفح الدخان وكأنها مدخنة مكنة الطحين ومن فمه وأنفه يخرج الدخان بغزارةٍ شديدةٍ لدرجة أن زكي قال له:

- عتّك يا به الحاج

.. وكنت أقضم كفوف الحلاوة العلف والسسمية والحمصية التي وضعها أمامي صاحب الحانوت ملفوفة بورق كرّاس وكان من عادتي أقضم قضمة من كل كف حلاوة العلف ثم السسمية وأخيرًا الحمصية ثم أعود ثانية وثالثة لأبدأ بالعلف .. حلاوة جميلة في فمي وقصعة نار مصطلية تدفئ الدكان الصغير والشاي يغلي فوقها وزكي يرص المعسل فوق كرسي الجوزه وفي آخر الرّص يسويه بإصبعيه ثم يضع النار المتوهجة فوق المعسل .. يسحب زكي أنفاسه أولاً من بوصة الجوزه ليسلكها كالعادة ثم يقدّمها لأبي الذي يهز رأسه ويمسك الجوزه بكف يده ويسحب دخانها في شراهة .. وكنت أبتسم وأكاد أقهقه من فرط سعادتي بهذا الجو الذي غطى على ألمي وجعلني أنسى فعلة الخواجاية معي وكنت أتمنى أن لا يكون نسيانها داخل الحانوت فقط بل أنساها خارجه وأبدأ صفحة جديدة ليس فيها أية آلام وأيقنت بأنني لو جئت إلى الدكان كل ليلةٍ وجاورت الرجال وشربت معهم الشاي والجوزه وأكلت الحلاوة لكان ذلك جميلاً وفيه حياة جديدة أبدأها .. ولكنني أعني تمامًا أن أبي لن يجعلني أشرب الجوزه ولا أشرب هذا الشاي الثقيل الذي اعتاد عليه الناس

في دكاكين القرية .. ساعة من الوقت في شرب الشاي والجوزة وأكل كل أنواع
الحلاوة بعدها تتحنح أبي وقال لزكي:

- أخبارك إيه وأخبار فتحي ستيته وأمه ..
- الواد من ساعتها ما بيستجريش يطلع الشارع ..
- يعني حسن أدبه شويه ..
- أكيد .. دا واد خرع كانت العيال بتخاف منه على الفاضي
- أمال فين أمه ما جتش وردحت لي ..
- أمه وقعت من فوق السطح وهي بتعبي دره ..
- من إمتى الكلام ده حصل ..
- قبل ما حسن يضربه بيوم ..
- اتكسرت ..
- المجبراتييه جبست رجليها الاثنين ..
- أكيد لمّا تخف هاتيحي ترص ..
- هي عرفت بكل حاجة وعمالة تنوح من ساعتها وبتدعي عليك وعلى حسن ..
- ما بتعرفهاش إن ابنها يستاهل ..
- قلت لها والنسوان في الشارع قالولها .. وطبعًا إنت عارف دي غجربة
هاتسيب الشردحة لمين ..
- على العموم لو جت بعدين أنا هاجيب لها نفر يضربها على دماغها ..
- دي لازم تتضرب زي ابنها ما انضرب ..
- يا خبر أبيض اللي حاشها الشديد القوي .. ريتا ياخذها هي وابنها ..
- يا ريت يابه حداد دي عاملة الشارع شلقة .. المشكلة إنها قصادي على طول ..
طول الليل والنهار الشردحة شغالة حتى مع نفسها بتتعارك ..

.. ولمّا كنّا نهم بمغادرة الدكان جاء واحد من شلّة أبي وهو أبو عيّاد القطان الذي دخل علينا بروحه المداعبة وسلامه علينا بحرارةٍ وحيّاه أبي وقال:

- نقعد شوية معاك كنّا هانمشي ..
- تمشي تروح فين يا حاج دا فهيم جاي دلوقتي ومعاه حتّه ..
- ماليش فيها أوي .. هوّ فهيم ما يسلاش التعميره ..
- راجل صاحب مزاج يعني إحنا بندفع حاجة واحد عازمنا دي كل كام شهر مرّة .. أهو الواحد يروّح بيقه مزاجه معدول شويه ويروّق الأناري مع مراته .. يآله يا زكي ولّع نار جديدة وسلك الجوزه ..
- أنا نفسي مرّة ما سمعش كلامك .. بس حسن قاعد وهايشم الريحه ..
- ريحة إيه .. هوّ المعسل بتاع فهيم ليه ريحة ..
- طيّب يا بوعيّاد هاسمع كلامك .. نزلّ شاي تاني يا عبده ليّ أنا وأبو عيّاد ..
- .. وخرج زكي إلى الشارع ومعه جوزه وماشه وحجر وكوز ماء من الجردل ليأخذ راحته في غسل أدوات العدّه .. وقبل أن يدخل زكي بأدواته جاءنا فهيم بتاع التموين، إن كل بيوت العزبة البحرية تأخذ تموينها الشهري من زيت وأرز وسكر وشاي وسمنة من دكان فهيم عتمان هوّ بتاع التموين اللّي بالّع التموين في كرشه واللّي الناس كلّها بتحبه من كلامه الحلو للناس ووجهه البشوش فهو لا يترك رجلاً أو امرأة يدخلان دكانه إلّا وضحك وهزّر وقفش مع كل صاحب تموين، والناس بتحبه علشان بتاع الزيت والصابون وكل الأطفال بتروح مع أهلها دكانه علشان بيّدي كل طفل حتة حلاوة حمصية ببلاش .. هو أبيض بحمار ويكاد الدم يُبكّ من وجهه ويقولون إن طعامه يوم الخميس والأحد ورّة مع الملوخية والأرز وزوجته آمنة أخت طه أبو شنب ست طيبة بتعمل له اللّي عايزه .. ورّة كل خميس ووزة كل أحد ويوم الاثنين فطير مشلتت أو مخروطة وباقي الأيام يلتهم في دكانه وجبة غداء مكّونة من عسل إسود وطحينة وطبق آخر حلاوة طحينية بالخبز الطري، فهو لا يعرف البتاو الناشف والجبن والمش لقد باع أرضه على الطعام ويقولون إنه قريب لعائلة ملهط في منوف

إشارة إلى أن هذه الصفة تعني إنه رجل يحب اللهط والهبر فإذا لم يفعل ذلك زنت عليه بطنه وصرخ كرشه .. جلس الرجل بجلبابه الأبيض النظيف ووجهه الأحمر في مقابلتنا وركن ظهره السمين على بنك الدكان وأخرج من جيبه نصف أستيكه بُني ومطواة صغيرة وفرش ورقة كرّاس أمامه وراح يقطع من الأستيكه بمطواته ثم أخذ يبلور هذه القطع في قطع أخرى في شكل دائرة بحجم حبة الترمس .. وضع زكي العدة أمامه وأمسك فهيم بالماشه (الأداة التي يمسك بها النار من فوق القصعة ويضعها فوق حجر الجوزه بعد أن يقطعها قطعاً صغيرة في حجم حبة الفول الحراتي .. يضع حجراً صغيراً من طوبة أو شقفة أسفل الحجر ليسد عينه بعدها يضع المعسل ويذكه بأصابعه ثم يضع قطعة الحشيش فوق المعسل ويثبتها وقليلاً من المعسل يضعه فوق الحشيش ثم يرص قطع النار في أعلى الحجر وفوق الحشيش الذي غطاه بطبقة المعسل .. ومدّ يده بالجوزه لأبي قائلاً:

- سالخير يا حاج ..

- لا ولّع إنت ..

وأخذ فهيم يشد من بوصة الجوزه برقّة وبتركيزٍ شديدٍ حتى فنجل الدخان من فتحتي أنفه الشرهه ثم ناولها لأبي دون أن يقول سالخير .. لأن سالخير وهي تحية بداية لفة الجوزه تُقال مرّة واحدة في البداية ومن الذي يشرب أول نفس فيها ثم لقت الجوزه إلى أبوعيّاد أقدم شريب حشيش في الحنة وكان زكي يتأملهم متمنياً أن يشدّ من الجوزه نفساً واحداً ولكنهم لم يعزموا عليه إن الحشيش في جيب فهيم يشرب منه الأعيان فقط ولكن زكي ليس له في جوزه الحشيش نصيب إنه رجل لا يملك من الأرض غير تديبله صغيرة يزرع فيها بعض الخضار ثم أن وظيفته في الدكان هو تخديم القعدة مقابل أن يشرب شاي ببلاش أو نفس جوزه معسل حاف في الآخر .. وسكت ثلاثتهم عن الكلام لا خذ .. ولا سالخير .. أصبحوا بجم وتنتج كل منهم في نفسه وكأنه ذهب إلى مكانٍ آخر تهيأ له .. وفجأة بعد خمسة أدوار من كرسي الحشيش قال أبي لصاحب الدكان:

- هات الحلاوة اللّي باخدها ..

- ليه يا حاج هاتمشي دلوقتي ..
- كفاية كده مش هاقدر أكمل .. دماغي لفت ..

وقال له فهميم مازحًا:

- خلّص معانا يا حاج علشان لمّا تروّح تقدر تعمل حاجة ..
- من غير تعميرتك هاقدر ..
- إنت معاك جوز حريم مش هاتقدر ..
- جتك نكد يا فهميم أصلك فايق .. دا اللّي يطاوعك يتخرب بيته ..

ويتدخّل أبو عياد:

- سيبه يا فهميم هوّ مش زيّنا واخد على الحشيش .. دا كل فين وفين ..

ويقول أبي وهو يقف مترنحًا:

- يالّه يا حسن .. يا ريتكم خدتو على حاجة حلوه ..

فيقول فهميم:

- يا حاج لازم نرّوق قرف طول النهار ولازم لمّا نرّوح البيت نتبسط ..
- علشان كده آمنة بتعمل لك ورّة في الطّقه ..
- أمّال يا حاج علشان هيّ عارفة إني باستاهل الوز ..
- ربّنا يستر وأعرف أروّح يا فهميم ..
- هاترّوح أوي وبكره هاتقول لي دا له طعم تاني ..
- آه يا فهميم رايق وضاربها صرمة ..

.. وأمسكت بيد أبي وكأنيّ أخذه إلى البيت وكاد أبي أن يقع أمام معمل حسين ..
إنه يترنح وشعرت بأنني دخلت سكة رجالة البلد وأنهم من حولي لا يبحثون عن شيءٍ كما أبحث .. إنني أتناول الأشياء لو تناولها الناس مثلي لو قفت الحياة، إن هؤلاء الرجال يدعون الحياة تمر وهم يمرّون في حياتهم دون رقّة ودعة ودون

حسابٍ، إنهم يدعون أمواج البحر تعلو وتهبط وتتناطح وبعد عراكها تذهب إلى الشاطئ لتحتضنه، إن البحر عميق لا نرى أعماقه ونحن نسبح أو نسقي البهائم أو نصطاد سمكه ومع ذلك فهو يضم أهل كل هذه البلاد التي تقع على شاطئيه، إن حياة الناس تنتعش بهذا البحر ولولا هذا البحر لكانت الحياة جافة جائعة ..

.. تقدمني أبي ودخل البيت وشعرت بأنه لا يريد أن يره أحد .. دخل المندره منهكاً وتمدد فوق كنبه وقال لي:

- روح نام يا حسن ..

- أنا عايز أتكلّم معاك

- مش قادر بكره ..

- أنا عايز أروح الغيط .. أنا زهقان من البيت ..

- هاتروح معايا بكره اللّي إنت عايزه ..

.. كان شخير أمي عاليًا وهي تنام في فراشها وكان محمد الصغير ينام في هدوء .. طلعت إلى سريري ونمت وأنا جدّ مشغول بعالم الدكان وما فيه من قصعة نار وشاي ثلاث أدوار وجوزه حاف وجوزه تعميره .. عرفت فهيم عثمان صاحب دكان التموين .. ورحت أفكر في هذا الرجل اللّي ضاربها صرمة حتى نمت .. استيقظت على أذان الفجر بصوت دردير حجاج مؤذن مسجد أبو عافية القريب من بيتنا، وكان هذا الأذان كفيل بأن يوقظ قرية من سباتها ولكن الناس في قريتي مازلوا ينامون حتى أبي مازال نائمًا ولم يأت إلى أمي كعادته في هذا الوقت إلا أنه بعد قليل وقبل أن أذهب في نوبة نوم أخرى سمعت أمي لبيبة وهي توقظه:

- يا حداد .. يا حداد .. إنت فين ..

- سيبيني نايم ..

- الفجر إدن .. قوم صلّي ..

- ما سمعتوش .. طيب سيبيني شويه ..

- لأقوم صلي ..
- طيب روجي
- لأمش هاروح ..
- روجي أنا مش قادر ..
- كان مين معاك في الدكان ..
- أبو عياد وفهيم عتمان ..
- جتهم نيله على اللي بيسخموه ..
- مش ها قعد معاهم تاني ..
- عملك إيه الحشيش خلاك تنام ومش داري بحد ..
- خلاص روجي خليني أنام شويه ..
- لأمش ها سيبك قوم صلي ..
- وبعدين ..
- أحملك ..
- إرحميني ليلة واحدة ..
- أرحمك من إيه هي دي الحاجة الوحيدة في حياتي ..
- ها تندبي ..
- قوم يا حداد .. أنا ريحه أسخن الحلة ..
- إنت عايزه تاكليني أكل ..
- كل واحده في الدنيا ليها حته ..
- طيب روجي سخني الميه ..

.. كم كنت حريصًا على سماع هذا الحوار بينهما ولو لم يكن هذا الباب الصغير بين غرفة نومي والمندره لما سمعت شيئًا، إن الحياة حولي تجري وتذهب إلى غاياتها وأنا ما زلت أتأملها وأراها يومًا بعد يومٍ قطعة بعد أخرى، وأن الناس في قريتي يزرعون ويقلعون ويأكلون الفطير والمخروطة ومد إيدك يوم الخميس .. رأيت قعده الأنفار تحت ظل التوته وكيف يقعد كل الأنفار حول عمي دردير وعمي محمود وأبي، علمت بأخبار شنانه وحلابات اللبن وغرفة التبني وأبي والكلاب وشارع أبو سمك وفتحي ستيته أسوأ ولد في العزبة البحرية .. وماذا يجري في دكاكين الليل .. وحكايات أم إبراهيم شرفه لأمي وأنها الوحيدة في بلدي التي تلازمها وتخلص لها بالخبص من هنا وهناك، أشياء كثيرة تمتعني مثل زيارات بيت عمي محمود ودردير لنا وحكايات أُمي مجيدة وأُمها أم إبراهيم البكلية، وحب الحاجة أم سلامة بنت عمتي فاطمة لنا ولأُمي وكذلك حكاية ابنه عمتي مجيدة التي تمتع عن زوجها لأنه في عرفها أن الرجل إذا كُبر أبنائه فإنه لا يجب أن يطلب زوجته لأن ذلك عيب، وحكايات الأنفار مع الحمير وسرقتهم للذرة ومغامرات شباب الملاء في غيطان الذرة والقمح مع النساء، والصيادين والسمك والمراكب وسويقة الخميس وأُسوأ ما في المدرسة من تلاميذ ومدرسين لا يختشوا .. وحكايات أهل أبي وخالته أم الرزق وغنيمة الشريرة مع أُمي ومدى كراهيتهم لها .. وحكاية أُمي في تلك الليلة التي غادرت فيها البيت وأنا معها في ليل مطر وكيف كانت قاسية عليها وعلى جدِّي حتى وصلنا إلى تلوانة .. وحكايات وحواديت وأفعال رجال ورغبات نساء وزواج وطلاق وفقر وحاجة ومغامرات أو هفوات سميرة وغيرها من البنات في البلدة والكفر وأخيرًا حكاية الخواجية معي، وكان أسوأ ما في ابن عمتي حسين السيد أنه عمل بئر لشرش اللبن ينشع في جدار بيتنا الخلفي ناحية دار هاده وأنه أتى لنا بهذه الخواجية .. إنه لا يهتم إلاً بمصلحته وجمع الفلوس على حساب أي أحد فهو لا يبالي بخاله ولا بداره وهو لا يدري شيئًا بما تفعله زوجة الخواجة التي لم ترحم طفلًا صغيرًا. عالم موجه ومؤلم وهو في بعض جنباته ممتع ولكن المتعة فيه لحظات، وكان عليّ أن أتعلّم جيدًا وأجيد القراءة والكتابة حتى أعلم ما خلف هذا العالم من أسرار .. إن السنة الثانية في المدرسة قادمة وأنه لا فائدة من هذا العالم حولي ..

وإنه لابد أن أتعلّم جيدًا حتى أنطلق من هذا العالم حولي وتحتي ليكون لي عالمًا خاصًا بي أصنعه بنفسه بمعاونة أبي وأمي .. إنه لابد أن يكون لي كتب ومكتب عم أُمي المستشار وأن أبني لي بيتًا بعيدًا عن البهائم والغيط والكلاب .. بعيدًا عن شارع أبو سمك .. بعيدًا عن كل تلاميذ ومدرسين هذه المدرسة ..

"آثام في البحر"

لأول مرّة أشعر بأنني كبرت وأصبحت قويًّا عندما أمسكت بحبل جاموسة أو حبل بقرة وذهبت بها إلى البحر كي أسقيها .. مشيتُ بالماشيّتين أسحبهما بثقةٍ إلى منزل عامر حيث تحتضن مياه البحر كل البهائم كي تشرب وتستحم وتسبح .. وأوصاني أبي بأنه إذا إسّيت إحداهما منك فدع حبلها تجري حيث تشاء، وأفهمني أن ذلك حال بعض البقر والجاموس في بعض الأوقات حينما تصيبهن لحظات الجنون وزادني فهمًا أن حال البهائم مثل حال البني آدم عندما تصيبه حالات طق الدماغ ويفسّر البعض أن الحيوانات عندما تجري من أصحابها إنما هو تعبير عن الحرية لأن الحيوان عند الفلاح في حالة حبس مستمرة فهو روح ونفس يريد أن ينفك من قيده الدائم لدى صاحبه ولو قليلاً، وقال أيضاً إنك تجد كثيراً من البهائم يعشقن البحر فيتركن أصحابهن عند البر ويدخلن بقوةٍ إلى أعماق البحر يسبحن ويشربن ويغطسن في المياه ثم يعودون عندما تشبع كل منها من متعة المياه وأفادني بأن أكثر الحيوانات تخاف من البحر هي الحمير وأنه إذا غرقت أذن الحمار في المياه فإنه قد يموت دون كل الحيوانات وهو أقل الحيوانات رغبة في السباحة بل إن الحمير لا تسبح أبداً، غير أن الفرس يحب السباحة ولكن بقدر وهو قادر في أن يقي أذنيه من دخول المياه فيها ولذلك فإنك تجد الفرس عندما يسبح فهو حريص على رفع أذنيه لأعلى وكأنه يعرف مكن الخضر .. تركت البقرة والجاموسة يدخلان إلى أعماق البحر وكانت الجاموسة أكثر جرأة في الدخول حتى قرب منتصف البحر ولكن البقر تخاف قليلاً فهي إن عامت فإنها تعوم قرب الشاطئ وكأنّها تقف بأقدامها الأربعة فوق الأرض .. كان هناك الكثيرون يسقون بهائمهم ويسبحون حولها .. ورأيت كثيراً من الأنفار ومن أبناء أصحاب الأرض يغطسون تحت الأمواج ثم يقفزون فجأة إلى سطح المياه .. وهناك من الشباب الصغير من يعلم الآخر كيف يسبح وكيف يغطس وكيف يصطاد السمك أو يدخلون إلى أعماق البحر وقليل منهم يعدي البحر إلى الشاطئ الآخر وهو برّ وأرض قرية هيت التابعة لمركز الباجور .. وكانت هناك بعض العشش التي أقامها الصيادون على حرف البحر وقد نثرت فوقها شباكهم وملابس صيدهم .. وفي وقت بعض الظهيرة يكون الصيادون قد انتهوا من صيدهم

للسمك وراح كل منهم بما رزقه الله من البحر إلى القرية والقرى المجاورة كي يبيعه وتكون أغلب هذه العشش خالية من أصحابها في هذا الوقت وهو غالبًا وقت ما بعد الظهر وحتى أذان العصر .. دائمًا ومن يوم لآخر يعّدي نفر ومعه شاب صغير إلى البر الثاني أو شاب في العشرين و غلام آخر في الرابعة عشرة .. ثنائيات من أصناف الرجل يأخذ الكبير منهم الصغير إلى عشش صيادين البر المقابل .. وحتى يكونان بعيدان عن أعين ذويهم وأهاليهم في بر بلدنا .. يدخلان العشه فيفعل الكبير بالصغير كأنه يتزوجه بدون عقد أو كما يفعل الكلب بالكلبة .. كان ذلك من ثقة وهبل أهل الأطفال عندما تركوهم مع الأنفار أو مع شباب يكبرونهم يروحون ويجيئون بهم حتى بات الصغير لا يستغني عن النفر أو من يكبره .. فكلّمًا طلبه وجده .. هكذا رأيتُ بعيني وسمعت من صغار وكبار حولي في هذا اليوم .. فوقعت عيني على الفاجعة التي حكاها أهل البحر ورأيتها بعيني في البر الثاني .. أخذت بهائمي ولم ينتابني شعور بالرقّة كما كان يحدث من قبل .. عدت ببهائمي إلى حقلنا فربطتها في مربطها وذهبت إلى أبي حيث كان يجلس عند التوتة وحده فجلست إليه فابتسم وقال:

- كده إتبسّطت لمّا رحت البحر لوحذك ..
- ما تخافش عليّ بعد كده ..
- سبت البهايم يدخلو جوّه البحر ..
- وأنا وقفت لغاية ركبتني ..
- خلّلي بالك فيه بلهارسيا ..
- زيّ زي الناس ..
- كويّس إنت كده واحد من الناس لازم تعيش معاهم من جوّه .. بس .. وسكت ..

- بس إيه .. ماتستحمّاش في البحر ..

- مش معنى إنت بتستحمه

- أنا واخذ عليه من زمان ومالقتش اللي يمنعني ..
- أنا عايز أتعلّم العوم ..
- أهّي دي بداية المصيبة اللي حصلت لعيال كثير ..
- أنا شفت النهارده عيال صغيرة مع رجالة أكبر منهم بيعدّوا البحر ..
- أهّي دي المصيبة .. وعرفت بيروحو فين ..
- شفتهم بيدخلوا عشش الصيادين في البر الثاني ..
- وعرفت إيه اللي بيعملوه ..
- الناس كلها سمعتهم بيتكلموا عليهم ..
- أهّي دي كانت بدايتها تعليم العوم مع نفر أو مع شاب أكبر منه ..
- طيب وفين أهل العيال ..
- فيه ثقة في نفر متوارثة وفيه ثقة في ابنهم ..
- لكن دي ثقة مش في محلها ..
- هيّ ماشيه كده من زمان
- ضروري حد ينظّم البحر ويراقبه ..
- البحر مالوش صاحب .. البحر في بلدنا شارع من بحور الحرية .. تنظم إيه ..
- .. البهايم .. العيال .. الأنفار .. الغطس .. اللي بيعسلوا قمح .. الصيادين .. اللي بيعدوا ..
- مش المفروض تقول للناس ما تخلّوش ولادكم الصغيرين يروحوا البحر مع الأنفار أو الشباب الكبير ..
- لو قلت لهم كده يزعلوا منّي .. أنا باعمل اللي أقدر عليه والباقي مش بتاعي ..
- يعني أعمل زيّك ماليش دعوه بحد ..

- دع الخلق للخالق ..
- بس إنت راجل اتعلمت في الأزهر والناس بتسمع كلامك ..
- هايسمعوا كلامي بس من ورايا هايحبوا فيّه القطط الفالسو ..
- وبعدين ..
- خلّينا على أد حدودنا ..
- .. تجمع الأنفار بعد ذلك في مجموعات ثلاث ليتناولوا الغداء .. بعدها أشعلوا النار في الراكية لعمل الشاي وتدخين المعسل .. كان أبي يجلس في الوسط متكئًا بظهره على جذع التوتة بحيث يستطيع أن يسمع الجميع وهم أيضًا يسمعونهم وكان أبي دردير على يسار أبي، أما أبي محمود فكان يجلس بعيدًا فهو لا يحب مجاورة الأنفار .. ورغب أبي في أن يسمعي من العمال ملاحظاتهم عن الذين يعدّون البحر فقال لمنصور:
- العيال اللّي بتعدّي البر الثاني ليه يا منصور ..
- عشان ما حدّش يشوفهم والعشش هناك فاضيه ..
- طيّب ليه إنت ساكت على حاجة زي دي وأنت أكبر الأنفار في الملاء ..
- يعني عايزني أعمل إيه ..
- النصيحة .. المنع يمكن يسمعو كلامك ..
- الحاجات دي من زمان والغاوي ينقط بطاقيته وأهي الناس بتقول لكن إحنا ما شفناش حاجة ..
- لكن فيه ناس كثير شافت العيال دي ..
- أنا عن نفسي لو شفتهم هاعمل نفسي مش شايفهم ..
- ليه ..

- أهالي العيال دي يكرشوني من الملاء .. وساعتها هايقلو عليّ البدع ويمكن يموتوني .. وأنا إش أكون .. اعملها إنت يا حاج إنت أقوى منّي نظم البحر وامنع العيال تعدي ..
- الموضوع كبير والبحر مفتوح وما قدرش أمنع العيال دي لأنهم كثير .. البحر ده على أد ما هو بيفيدنا في حاجات كثير لكن بتحصل فيه بلاوي ..
- وكان دردير يضحك بين الفينة والأخرى ويقول موجهًا كلامه لحدّاد:
- مالك ومال الناس .. سيب العيال .. مش هاتقدر تحكم الناس هوّ إنت هاتيحي الغيط تراعي غيطك ولاّ تحكم البحر ..
- ويهز محمود رأسه ويقول وهو يشوّح بذراعه في الهواء:
- مش هاتقدر نحكم البحر .. خلّينا ناخذ بالنا من عيالنا وخلاص ..
- دا حسن شافهم النهارده وعرف حكاية الناس اللّي بتعدي ..
- وقال محمود موجهًا كلامه نحو حسن:
- أهم حاجة يا حسن إعرف اللّي حواليك .. لكن لا تنزل البحر تستحمه ولا تخلّي حد يعلمك العوم .. وإذا نزلت انزل مع أبوك ..
- وهزّ حسن رأسه وقال لعمه:
- أبويا قال لي كده ..
- يا بني دا بحر مالوش حدود وكل البلاد اللّي بتقع على البحر فيها زي ما في بلدنا ..
- ويقول حسن أبو طنش وهو عجوز الأنفار:
- دا بحر كبير ليه حكايات ومواويل بس إحنا نحكم نفسينا ..
- ويقلب أبي الموضوع بعد أن يجد أنه لا فائدة من الحديث عن حكايات البحر:
- آه يا حسن خلّينا في أيامك ..

- أيامي راحت يا حاج ..
- كنت بتجيب كام يا حسن ..
- سبعة يا عم الحاج ..
- وبتقول لك إيه روحية مراتك دلوقتي

يضحك ويقول:

- بتقولِي جتك عزا كنت فرّقوا على الأيام ..

.. ويضحك الجميع ويدور أصغر نفر بأكواب الشاي على القاعدين، وتلف جوزة المعسل على الشريعة ويتصاعد دخان الشاي ورائحته في الهواء لكن أقواها كان دخان جوزات المعسل خاصة عندما يسحب أبي أنفاسه من بوصة الجوزة فيتصاعد الدخان من فتحتي أنفه إلى أعلا وكأنه فوهة مدخنة .. ولمّا انتهت قعدة ما بعد الظهيرة .. نام بعض الأنفار في ظل الشجرة وذهب الآخرون إلى حقولهم وزرائبهم المجاورة ثم قام أبي وأخذني إلى غرفة التبّن لننام حتى يؤدّن العصر .. وكان كل ما في ملأة مريان يسمع أذان كل صلاةٍ من مساجد هيت التي تقع في البر الثاني من البحر وكان صوت الأذان نسمع صداه فوق مياه البحر فينتشر .. بعدها يقوم المصلون في مصليات الملأة برفع الأذان .. فيقومون إلى صلاتهم فرادى وجماعات .. ثم يدخل الأنفار وأصحاب الأراضي إلى غيطانهم ليكملوا أعمالهم من عزيق وحش برسيم وري المساحات الباقية من الحقول ورعي الغنم في الأراضي التي لم تزرع بعد وتهيّأت للحرث .. ويهب هواء العاصري فتكسو طراوة نسّمات الهواء الرطب صهد حرارة الشمس طيلة النهار حتى يدخل المغرب فينهى الفلاحون يومهم بعد عناءٍ ويخرجون من غيطانهم ..

.. في كل مساء قبل المغرب بقليل يجهّز الصيادون شباكهم ويمشطونها من شوائب البحر ويتم ربط المجاديف في أوتادها .. وزوجات الصيادين تساعد في إعداد كل أدوات الصيد وفي تجهيز قصعة النار التي توضع في بطن المركب لتسخين الخبز وعمل الشاي وعند الحاجة لشيء السمك، كان المساء يقترب كلما غطست الشمس ناحية الغرب والمطر يتساقط في غزارة ورياح من بر شنشور عاتية وبوص الشاطئين يتطوّح يمنة ويسرةً وغنم وبقر وحمير تهلع إلى عششها أو إلى بيوتها في قرية هيت .. إن أهل هيت جميعهم ماعدا العمدة وأقاربه لا يملكون إلاّ قراريط قليلة من الأرض الزراعية وبيوتهم صغيرة مرصوفة في شكل علب ضيقة .. وهم يتحدثون لكنة واحدة فإذا قالوا .. ياختي .. عندهم يا ختي تي .. إنه شعب كالمشط أسنانه كلها واحدة متساوية جميعهم مثل أنفار شنشور .. حتى عمدتهم فهو فقير لا يملك أكثر من أفدنة قليلة فهو لا يزيد في قيمته عن أي واحد من موسري شنشور ولكنه في هيت عمدة والجميع هناك يقول يا عمدة .. هي قرية صغيرة وأهلها مثلها صغار في كل شيء يأكلون من الزاد ما توفّر من القليل في بيوتهم ولتحسين معاشهم فإنك تجدهم قد قسموا البحر شرائح صغيرة وشيدوا بيوتًا على حرف البحر .. هذه البيوت هي غرفة من الطين أو عشة جدلوها من البوص .. النساء فيها يتقدّمن الرجال .. تشمّر كل منهن ساعديها وساقها وترمي بشعرها على كتفيها بلا خجلٍ وقليل منهن حلوات أو جميلات ولا فرق بين حلوة ووحشة فهنّ يحصدن القمح ويقطعن عيدان الذرة بالمنقرة ويجنين القطن ويعزقن زرائبهن بالفأس الكبيرة ويهرولن وراء البهائم والحمير لنقل السباخ أو الرتش من الدار إلى الغيط ومن الزرع إلى بطن البحر إذا اقتضت الضرورة تجهيز أية حاجة عند عشة أو غرفة البحر .. المرأة مع الرجل في الزرع والصيد والسوق وفوق السطح بل المرأة في المقدمة قبل الرجل ولقد تعودن منذ زمن أن تتسابق كل منهن في مساعدة رجلها .. مجتمع فقير بسيط يأكل رغيف نصفه من الزرع ونصفه الآخر من البحر .. إن القليل الذي يملكونه من زراعة جعلهم يجعلون من البحر أساس معاشهم، وإن برّ بلدنا كلّهُ لا يوجد فيه صياد واحد وعليه كانت مياه البحر في بر بلدنا هي ملكًا لصيادي هيت ولم يكن هناك واحد من الفلاحين الذين يقع البحر فوق رأس غيطانهم أن هذا البحر أمام مساحة حقله هي

ملكًا له ويستطيع أن يؤجرها أو يستغلها في صيد السمك .. إن الأرض تشبعهم فلا حاجة إلى البحر وهم ليسوا أبناء صيادين ولا يعرفون شيئًا في فن الصيد.

.. حكى لي أبي كثيرًا عن حال أهل البحر في هيت وفي بلدنا ففهمت الكثير عن نشاط الإنسان وتفاصيل حياته في هذه البقعة من الأرض، وفي يوم كنت أستريح مع أبي في غرفة التبني وقت الظهيرة وكان أبي في هذا الوقت لم يكن لديه زوجة ثانية في غرفة التبني وكان آخر امرأة له وهي عكيلة قد ملَّ منها ومن أفعالها حيث إنها لمَّا كانت تأتي إليه فإن وجدته قضيت حاجتها معه وعادت إلى دارها، وعندما لا تجده جلست مع الأنفار وتسامرت معهم بشكل لا يليق وهزَّرت مع كل منهم على حده .. كانت سوقيه ولم تحفظ كيانه فقام بتطليقها .. في هذا اليوم وجدت أبي قلقًا في نومه .. سمعنا أذان العصر من مساجد هيت فقام أبي وتوضأ من الطرنبة وقمت بعده وتوضأت كما يفعل الكبار .. سبقني إلى صلاته حيث ذهب إلى مصليِّه فتح الله حجاج وأقام الصلاة جماعة معهم ثم عاد هادئًا حيث وجدني انتهي من صلاة العصر في غرفة التبني فقال لي وهو يرجع إلى مدخل الدار:

- صلي وتعالى ..

انتهيت من سجودي وذهبت إليه فوجدته يجلس في باب الزريبة ومعه رجب فلمَّا جلست إليه قال:

- روح يا رجب مع الأنفار ..

أخذ يفرك كف يده في الكف الآخر ثم قال وكأنه يحلف:

- كفاية كده أوي .. وسكت ..

- كفاية إيه ..

- الحياة بتطور حواليه وأنا قاعد مطرحي ..

- يعني إحنا متخلفين ..

- أكيد ..

- مش فاهم إيه اللي في راسك يابه ..
- فيها حاجات كتير ..
- قول ..
- عايز أغير حياتي كلها ..
- يا ريت ..
- وتفحصني بقوة وكأنه يقول الواد مش عاجبه حالي .. ثم أشاح بوجهه عني وقال وهو يدق الأرض بوتر صغير:
- الحياة بدأت تقع مني ..
- لمّا ..
- أول حاجة أهد غرفة التبن .. وأوسع الدار وألم حالي .. نيجي كلنا الغيط ..
- يا ريت .. صحيح اللي بتقوله ..
- شبت من المطلقات والأرامل صحيح إتجوزتهم وساعدتهم وستررت عليهم من ديابه الغيط والبلد .. لكن العمل ده .. وسكت ..
- بصراحة عمل ظاهره أخلاقي وباطنه كده وكده ..
- مش فاهم ..
- أنا راجل عيني زايغه على النسوان الحلوة طيب أنا لو راجل أخلاقي بصحيح ليه ما تجوزتش واحدة وحشة .. وبعدين هو أنا أطبق الدين بكيفي .. شوف يا بني أنا لازم أصحّ خطأي ..
- يعني مش هاتتجوز ثاني في غرفة التبن ..
- علشان كده ها هد القوضه دي وهاجيب أمك وأمك لبيبة هنا بكفاية عليّ أوي ..
- وتبني دار كبيرة ..

- هابني .. علشان حالي متبحطر والناس مش مبطلّة كلام رغم إنهم عرفوا إني بتجوّز على طول بيقولوا إن خالي الحاج دي وراها نسوان كتير ..
- امنع خالي الحاج ..
- هاتيحي واحدة واحدة ما فيش حاجة بتتعالج قطع مقص ..
- واللي تقولك بعد كده يا خال ..
- هوّ دا الشرك اللي وقعت فيه ..
- إزّاي ..
- لمّا كنت صغير قبل ما تجوّز لبيبة واحدة كبيرة عنيّ بكثير .. وسكت ..
- كبيرة عنك بكثير .. كمّل يابه ..
- منها لله هيّ اللي طلعت عليّه الكلمة دي .. وكانت بتقولها لي بطريقة تجنّن أي راجل .. شوف بقه لمّا عيّّل سنة ستاشر سنة ويلاقي واحدة تدلّع عليه وتقولّه يا خال ..
- والست دي مين ..
- ست مش قريبتنا وكان جوزها ميت وولادها وبناتها كبار ومتجوزين والشنابات في وشهم زي الدياكة ..
- ليه ما رحتش لراجل كبير ..
- يمكن تكون قالت لنفسها دا واد صغير أضحك عليه .. وأتدارى فيه ..
- وضحكت عليك ..
- أيوه ..
- كان سنّها كام ..
- كذا وأربعين ..
- ظلمتك ..

- أوي ..
- قعدت معاها كتير ..
- كانت ست رهيبة .. كتير ..
- هيّ فين الست دي ..
- ماتت ..
- كويس ..
- إنت عارف الغلط ببيجي منين ..
- لأ مش عارف ..
- إن الأهل يسيبوا العيال الصغيرة مع الأنفار أو مع عيال أكبر منهم أو مع نسوان ..
- زي ما حاصل في البحر ..
- لسه هاكملك ..
- كمل ..
- ولما الأهل يسيبوا ولد بالغ صغير مع ستات كبار بحجة إنني هاوصل الست دي بيتها ..
- وأنت مالك ومال توصيلها ..
- كانت بتيجي البيت عندنا تقعد مع الحريم ويعدين لمّا الدنيا تضلم تقول لي أختي السيدة أو شفيقة روح يا حداد وصلّ أم حسنى ..
- لو كان ليك أم ما كنتش هاتخليك توصّل حد ..
- على فكرة أنا لما كنت باقعد في الدار كانوا بيخلوني أشتغل زي الخدام أوصل حد أجيب حاجة من البقال وساعات مرات أبويا كانت بتخليني أكنس الدار وكان دا كله من ورا ضهر أبويا ..

- مش كنت بتوصلها بيتها وترجع ..
- جيت أرجع في أول مرّة من عند الباب .. قالت لي .. رايح فين .. قلت
- هاروَح قالت ما يصَحّش يا خال .. تعالى أقعد معايه ما فيش حد في البيت
- .. إنت خالي الصغِير .. قلت لها وأبويا قالت لي دا خالي الكبير .. فقلت
- لها بعد أن طاوعتها وجلست فوق فرن قاعتها وأبويا كان بيَقعد .. قالت عمره
- ما قعد وعمره ما وصلني أنا كنت باتكسف منه ..
- طيب إنت خالها إزّاي لا أخو أمها وهي أكبر منك بخمسة وعشرين سنة ..
- ست هجالة من عشرين سنة هاتروح فين ..
- وأنت مالك يابه ..
- يا بني أهّي دي أول خال حصل في حياتي ..
- دي ناس بتستهيل يابه ..
- يا بني فيه ناس كثير أوي رجاله وستات بتستهيل في البلد ..
- يابه لازم تلغي الخال من حياتك كلّها ..
- هوّ دا اللّي هايجصل
- بكره ها نهّد الدار وأولّها غرفة التبن ونبني دار جديدة
- وتاني حاجة ..
- هاجيب أمك وأمك لبيبة والعيال هنا ..
- وتالت حاجة ..
- ها هد العشش اللّي في البر التاني ..
- وبعدين مش ليها أصحاب ..
- هابّني ليهم غرف من طوب ومقفوله وهاعمل قصادنا في البر التاني برضه
- مصلية ومن بعد الظهر حتى قبل العصر هاقعد هناك بالشمروخ ..

- أنا مش مصدق اللّٰي بتقوله ..
- هيّ دي بداية حياتي الجديدة ..
- يا ريت يابه ..

"أصحاب العشش في غيبوبة"

من الدين أن نوقظ من كان لا يدري بما حوله، وإذا أخبرناه ولم يفعل فعلينا أن نخترق جدران بيته لنشعل النار .. ومن الضمير أن نقول لمن يتركوا أبناءهم في مجاهل الأنفار ويولّوهم عليهم وإذا لم يلحقوا أبناءهم نلحقهم نحن وعلينا أن نجمع كل من خان ولايته على طفل لنطلق عليه الرصاص، ولكن تبقى المسألة كيف نعالج من طلعت في جسده دودة أو تعود على اللقاء، الذكريات تبوح ولا نستطيع أن نرجع إلى الوراء لنحفظ الأطفال من بغي الخدم، ومن الغلمان من عشقته امرأة لأن الغلمان بلا أمهات تخاف عليهم والآباء مشغولون بالأعمال، لو كنت أستطيع أن أعيد حياتي إلى الوراء لوقفت حائلاً بين الموت وأمي ولحطمت صوامع الكراهية في بيت أبي ولجعلت ابنة عم أبي امرأة تحب ولا تكره وأن تحب حداد ومحمود كما تحب دردير، لقد تشردت في طبيعة حياة بيتنا .. وحاولت أن أنسى كيف ماتت أختي الشقيقة فايقة بيد قطيفة، كنت أأكل كل طعامي في بقوشة (وعاء من الفخار يضعون فيه الطعام للأوز والفراخ) وأحياناً تأكل منه الكلاب الصغيرة التي تولد في فتحات الكانون القديم في عرقوب الزريبة، لم أكن في رأي زوجة أبي أستحق في أن أتناول طعامي في طبق أو وعاء نظيف مثل الذي يتناول فيه الأنفار طعامهم .. وكنت أتناول البقوشة من أختي شقيقة وأأكل بنفسٍ راضيةٍ بعد أن أسمى بالله، ولم تكن أخواتي البنات من أبي في استطاعتهما أن يمنعا ذلك لقد كانت أمهما شديدة القسوة .. ولو استطاعت قطيفة قتلي وقتل محمود في هدوء كما فعلت بأختي لفعلت ولولا حرص أبي وشدته عليها وتوبيخها من وقتٍ لآخر على حقدتها لفعلت وكان أبي يقول لها:

- ملعون أبوك .. كان يوم إسود لمّا خدت واحدة رّيك .. الله يلعن أي عم ليه واحدة رّيك .. ضريبة القرايب أن أضع فوق رأسي النيلة وأن أخذ قسطاً كبيراً من الكراهية والحدق ..

.. ولمّا كبرت يا بني وبزغ عود شبابي ذهبت إلى كل مكانٍ في قريتي وفي الغيط أبحث عن امرأة تحبني .. ولولا بيت خالي وجدتي من أُمِّي اللي احتوتني في بيتها بعد موت أُمِّي لأنها تعرف تماماً ماذا كانت تنوي قطيفة عمله في الخطوة القادمة ..

ما بين الثالثة من عمري والتاسعة حتى وعيت لقيت رعاية وحماية لا حدود لها في بيت جدي وجدتي من أُمي وكان هدفهم الأول هو ألا تقتلني قطيفة كما قتلت أختي، ومن وراء ظهر أبي ولمّا يكون بيتنا خاليًا وتأتي جدتي لتأخذني من دار أبي كانت تقول لقطيفة علنًا:

- يا مرة يا بنت الكلب قتلت فايقة بس مش هاتقدي تقتلي حداد .. هانقطعك بالسكينة علني أدام العزبة نفر نفر .. يا مرة يا وسخة أوحش حاجة في الحاج علي إنه أنيكي في داره وصابر عليك آه لو قرّبت من حداد هانتسلخي صاحية بالشراشر والفوس .. وتأخذني وتمضي إلى دارها .. ولولا سلخ وتوبيخ قطيفة علني وكشفها أمام أهل الدار وغيرهم لأقدمت على قتل حداد كما قتلت أخته ..

- كانت امرأة تخاف وما تختشيش .. في داخلها بنيت صوامع من الكراهية ولم تخشع لله يومًا واحدًا ..

- يا بني لا تحزن من عمك دردير الذي لا يستطيع أن يحنو عليك أو يقول لك كلمة طيبة لأنه ابن قطيفة أم الكراهية .. لأنه لم يتعلّم أي شيء في الحب .. إنه لا يدري ما هو الحب .. وإذا قال السلام لأحد قاله بغطرسة وبغباء تجعل الناس تكره سلامه لأنه سلام خال من أي معنى .. يا بني هو باختصار جاموسة بتتطح ..

.. كثيرًا ما سمعت من أبي عن حياته وكثير ما حكى لي عن الآخرين .. عرفت كل شيء ولكن ماذا بعد .. وقمت من مضجعي فوق التبن وانعدلت في مقابلته وقلت له:

- إذا كان أبوك ما قدرش يعدل قطيفة وانت أكلت من البقوشة .. بيقه إزاي هاتقدر تهد العشش وتوقف البوظان في البر الثاني ..

- يا بني البوظان في البر الثاني من عندنا

- على فكرة دا تلاقيه في كل بلد ..

- المهم اللي شايفينه غلط نصلّحه ..

- اجمع أصحاب العشش الأول وشاورهم في الأمر ..

- دا أكيد ..

.. كان فوزي الشاطر ورمضان الجحش وعبد ضبش وحدهم أكثر الناس بيئة في هيت، كانت هيت ومن زمن بعيد مرتعا لكثير من الناس الذين لهم صفات وسلوكيات غجرية .. ولم يكن هناك غجر في بر مصر كلها ضعاف مثل غجر هيت .. إنهم يثرثرون ويرغون كثيرا ويسرقون ويملاؤا الدنيا خبصا ولكنهم وقت الجد تجدهم جميعا يفرون إلى أعشاشهم، وكانت أكبر بطولة يشعر بها صيادو هيت أنهم يسيطرون على المياه في بر شنشور وأنه لا أحد من شنشور يدري ما قيمة البحر في أراضيهم وعلى ذلك فهم يتركونهم بقولهم واحد بعد الآخر:

- سييهم دول غلابة .. خليهم يسترزقوا ما عندهم أرض .. ما بنعرفش

نصيد .. يعني هانصيد شويه سمك بريس .. عيب يا جدع سيب الناس تعيش ..

.. وكان صيادو هيت تصلهم أقوال أهل شنشور في البر الثاني وكانوا يسعدون كثيرا لذلك .. وعندما كانوا يشطحون بقواربهم في البحر كانت طبول مراكبهم تدق بقوة ليدخل السمك إلى شباكهم وفرحا بما يقوله أهل البر الثاني ويشعرون أنهم ملوك البحر .. وكانوا دائما حريصين على إرضائهم خاصة الفتوة منهم حيث بدأ شابان من بر شنشور هما حمدي مرعب وعبد المنعم الوز يعدون إلى بر هيت من ليلة لأخرى ليتسامرا مع الشاطر ورمضان وعبد، ولكي يكون لهم حب واحترام لدى صيادي هيت كان الحديث في أول ليلة عدوا فيها إلى بر هيت أن قال حمدي المرعب لفوزي الشاطر وهو رأس جماعة البحر:

- على فكرة علشان إنتو غالين عندنا سايبينكم في بر شنشور ويرد عليه

فوزي بمجدعة .. والله يا عم حمدي إحنا تحت أمرك .. إحنا خدامنكم ..

فيقول عبد المنعم - فين السمك وفين الجوزه .. وفين التعميره ..

فيلحق عبده ضبش قائلا:

- خمس دقايق أحيب التعميره .. أروح يا معلّم فوزي ..

فيرد فوزي وكأنه يستسلم لطلب عبد المنعم ويقول:

- وهات شوية سمك من الصندوق في البيت ..

ابتسم حمدي المرعب وهزَّ رأسه وقال في معلمة:

- أهو كده تمام .. إنت كده فهمتتا يا فوزي ..

فيقول فوزي راضخاً لأمره:

- بس شوف يابه حمدي في الليلة اللي هاتيجوها نادوا علينا من العصر علشان

كله بيقه جاهز ..

فيقول عبد المنعم:

- لما أنده بعد العصر هاقول .. عندك سمك يا فوزي ..

- وإن ما كنتش أنا هايكون رمضان وعنده .. علشان نوضب القعدة كويس ..

ويطمح حمدي قائلاً وكأنه يأمر:

- ما فيش نسوان ..

ويحاول رمضان تهدئته:

- الحريم عندنا زي عيدان الدره يا عم حمدي ..

- ما يجراش ..

- مش زي حريم بلدكم

- لأ أنا عايز أدوق العيدان ..

.. وتتطلق الضحكات مع رائحة السمك المشوي على الراكية مع جوزة التعميره التي

تلف بيد عبده ضبش قائلاً مساء الخير .. مساء الخير .. وتتفجل عين عبد المنعم

وتتورم وتبدأ رأسه تدور .. فيزعق حمدي فيه .. صحصح ماتكسفناش مع رجالة

هيت .. فيضحك رمضان ويقول:

- على أدك يا عم عبد المنعم ..

وكان الشاي ثقيلًا مصبوبًا في أكواب صغيرة .. طعمه في مرارة حديد الزرنبيخ
ودخان الحشيش أشدُّ ثقلًا فيزيل طعمه المر وأتى رمضان بجرذل به عنب مغسول
بمياه البحر .. بعد ساعة من دخان الحشيش والشاي الثقيل وضع عبده السمك فوق
طبق خوص ورصّ الخبز المقرّر حواليه وقلّب معلقتين من الشطة الحمراء في
سلطانية نصفها ماء .. حتى يقوم كل منهما بتغطيس ما يأكله من سمك في مياه
الشطة الحامية فتشبع البطون بطعم الحراق .. أكلوا من السمك المشوي ما يأكله عبد
المنعم من الوز في دار أبيه حتى يشبع .. امتلأت البطون ومالت الرؤوس من دخان
الحشيش فأيقظها بعضهم بحبّات العنب المكبوس في الجرذل ..

.. ومرّ كثير من الوقت لم ينبس أحدهم بكلمة وكان ثمة ضوء يتحرّك قرب مياه
البحر .. إن الضياء في يد شخص يلف على يمين وشمال الخص الذي يحتويهم ..
وفجأة سمعوا صوتًا إنثويًا ينادي:

- فوزي رمضان عايزه أعدّي البر الثاني ..

خرج إليها عبده أخفّ الرجال حركة قائلاً:

- مين .. عايزه تعدّي ..

- أيوه عايزه أجيب عنب ..

- في نص الليل .. إيه المزاج الأغبر ده ..

- يالّه يا عبده بسرعة

وبدأ عبده يجّدف القارب حتى أخرجه بصعوبة من مرقده وبعد أن خرج من شاطئ
هيت قال لها:

- اظفي الفانوس ..

.. أطفأته .. أمسكها من مؤخرتها وهو يرتعش فارتعشت بين كفي يديه فأرقدها في
بطن المركب وصرخت .. وراح المركب يتهادى ناحية برّ شنشور لكنه توقف عند
كتلة بوص رقدت في جوف البر .. كان لابد أن يتوقف القارب وكان على المرأة أن
ترقد ساكنة في بطن المركب المبلولة وحتى لا يعلو صراخها وضع عبده كف يده

على فمها ليكتم الوجع في كلمات لها تعلو وتنخفض سكن القارب وسكنت هي
وسكن الموج من تحتها ليركب عبده سكون الجميع ويدخل القارب بعدها في عمق
البحر ..

.. كان البحر الأعمى بلا موج وكانت مياهه كل ليلة يسكن فيها مراكب كثيرة بلا
هوية .. مراكب يأخذها البحر في أعماقه قوارب بلا مجاديف تهوى أن ترسو وسط
البحر حتى لا يرها أحد أو يسمعها .. مراكب لأهل هيت أو شنشور تعشق البحر
في ظلامه وتهرب أحياناً من ضوء القمر .. لا قواعد ولا قوانين ولا صوت لبشر ..
إنه أنين لوجع وصرخة مكتومة هنا وهناك حتى يقلب البحر صفحة الليل ليبدأ نهاراً
جديد بصوت أذان الفجر الذي يعلو فوق كل الأصوات على صفحة البحر المستكين
فيطوي ظلام الليل لتبدأ صفحة النهار .. إن هذا البحر كالثور لا عقل له لا معنى
لأي من صفحاته سواء كانت في الليل أو النهار إننا نحن الذي يتهياً لنا والبحر لا
يبالي ..

.. نام كل من حمدي وعبد المنعم في عشة فوزي الشاطر حتى بعد الضحى بكثير،
تركهما فوزي بعد أن تأكد أنهما أصبحا في وادٍ آخر بعد أن قام بتغطيتهما بحرام
ثقيل، عاد فوزي إلى داره في أول هيت لينام قليلاً ثم يعود إلى البحر بعد أذان الفجر
..

ولمّا ملأ عبده ومسعده حجريهما من عنب جنينة الحاج حسن عادا إلى المركب ثانية
ليأخذهما إلى بر هيت .. كان عبده هالك القوي فهو بالكاد يمسك بمجداف المركب
ويضربه في وهن حتى يصل القارب إلى العشة .. لم يكن يعرف أنهما قد ناماً نوماً
عميقاً وأن فوزي غادرهما، لكنه وهو يربط القارب قال لها وكأنه يعطف عليها:

- فيه فحلين جوّه .. ما يجراش وخدي حسنتك ..

- جتك نيله يا عبده من جماعة مين ..

ضربها على مؤخرتها بعد أو وضع العنب في مقطف فأطلقت ضحكة لامست مياه
البحر الساكنة فاهتزّت .. تقلّب حمدي في فراشه وزغد عبد المنعم قائلاً:

- قوم يا فنّس واحدة جاية ..

- سيبني أنام حلال عليك ..

- مش عايز ..

- عايز بس النوم أحلى ..

وقف عبده ومسعده في باب العشة ينتظرا قرار الرجلان، أجال حمدي بناظريه
نحوهما فراقته له فقال لها:

- تعال

- ما ينفعش يا معلم واللّي نايم ده ..

- دا غطسان ..

- لأ تعال برّه علشان أبسطك ..

وأشار عبده بيده نحو يمين الخص .. وقال .. خص حلمي قريّب فاضي علشان
تاخذ راحتك يا معلم .. وهزّ حمدي رأسه وهروّل خلفهما .. دخل عبده الخص ليهيّأه
ثم انصرف قائلاً:

- خد راحتك يا معلّم حمدي ..

.. خلعت جلبابها المبلول ثم خلعت سروالها الطويل وأنته عارية بقميص ينضح
بالعرق .. فأخذها حمدي بلهفة .. إنه الرجل الذي يضاجع النساء في أي مكان وفي
أي وضع وبأي قميص مهما كانت رائحته .. وقال لها:

- هو إنت هنا كل ليلة

- عاجباك ..

- أوي ... متجوزه ..

- وعندي عيال ..

- جوزك فين ..

- ودا وقته يا معلم ..
- طيب خلاص مش هاتكلم تاني ..
- أنا اللي هاتكلم يا معلم ..

.. في صباح اليوم التالي استعد أبي للذهاب إلى البر الثاني وعند الضحى العالي
أخذني إلى البحر وهناك لم نجد أحدًا من الفلاحين يسقى بهائمه أو يستحم وعلا أبي
بصوته الجهوري .. يا فوزي .. يا فوزي .. عديني يا فوزي وعلا صوت غلام في
الناحية الأخرى .. حاضر .. جاي يا عم الحاج .. بأسرع ما يمكن جاءنا الغلام
بقارب التعديه .. ركب أبي وتعلقت بذراعه حتى أصبحت بجانبه .. قعد فقعدت وقال
للغلام:

- إزيك إنت بن فوزي

- أيوه .. أنا بن فوزي ..

- أبوك هناك ..

- بيفرد الشبك بين شجر الترعة ..

- أربط القارب وروح إندهه

- فيه ضل هناك أحسن من هنا ..

- خلاص نروح هناك ..

نقده أبي نكله (اثنين ملیم) فرح الولد بها ووضعها في سيالته وقال ونحن نقفز من
القارب إلى البر

- ثواني هاربط القارب ..

وكان علينا أن نصعد منزل فوزي فالبحر هابط كثيرًا عن السكة والترعة وكذلك عن
الأراضي الزراعية وكأن البحر في بطن بلدة هيت كما هو في بطن بلدتنا .. هرول
الولد أمامنا وصعدنا خلفه حتى السكة التي تمشي فوقها البهائم والجمال وأرتال
الأغنام التي ترعى على حرفي الترعة المتراسة بأشجار التوت والصنط والجميز
وبعض الكافور .. أشجار زرعت من عشرات السنين تعلو وترتفع ويستظل الناس
بظلها ويأكلون التوت والتين من فروعها، وعلى رأس كل غيط توجد الأشجار التي
يملكها صاحب تلك الأرض فهو يعتني بها ويقضبها (أي يؤقلم فروعها وأوراقها)

ويبيع ثمارها وعند الظهيرة يقعد هو وأولاده في ظلّها يأكلون ويشربون الشاي ويتسامرون ..

وفي هيت لا يوجد أنفار بمعنى أن كل صاحب قطعة أرض يعمل هو وأولاده فيها دون نفر .. لأنها قطع صغيرة فدان أو نصف فدان .. لا توجد كما في شنشور إقطاعات كبيرة حتى يكون للأنفار مكان .. كل واحد في هيت نفر نفسه .. من يملك فدان أو نصف فدان فهو في نفس الوقت صياد له مركب أو صياد له حصة أو شريحة في البحر، ومن لا يعمل في الصيد يعمل تاجرًا للمعيز أو للحمير أو للمواشي الكبيرة في أسواق شنشور والباچور وسرس الليان، ومن لا يعمل هنا أو هناك فلقد فتح طاقة في بيته يبيع منها السجائر والشاي أو يعمل في ماكينة طحين في تلوانة أو نفر باليومية في شنشور .. إنك لن تجد في هيت كلها رجل سمين أو له كرش أو مدرس منها يجلس في دكان فالمدرس كل صباح في مدرسته ومن العصر حتى بعد المغرب في حقله الصغير يساعد نفسه أو يساعد أبيه .. أهل هيت كلهم ناس رفيعين على أدهم خفاف يأكلون القليل وينامون القليل وحريفة صيد في البحر وتجار ولعة في السوق وفي مكن الطحين ومن لا مهنة له يساعد زوجته في الطبخ والغسيل ودس الحطب في الفرن أو يسرق من هنا وهناك من بلاد أخرى مجاورة يسرق معزة أو فرخة أو وزّة أو فأسًا وبالكثير يسرق حماره ويبيعها في يومها لفلاح في بلد بعيد .. حتى في السرقة رفيعين وبعضهم من له شفايف رفيعة فيحترف مهنة الخبص واللث والعجن بين موسري البلدة القلائل أو موسري قرى أخرى في شنشور أو تلوانة .. وكان رمضان الصياد أشهر خباصي الصيادين ..

.. اضطر أبي أن يحكي لي كل هذا عن هيت وأهل هيت لمّا طال انتظارنا لفوزي ونحن نجلس تحت شجرة توت ظليلة .. كان أبي يحكي وأنا أنظر حولي لأرى الحقول والأطفال والنساء قد ملأوا الأرض من حولي .. كان الجميع أمامي يعمل في رشاقة وخفة واندماج وكنت أندهش من شطارة هؤلاء الناس والأطفال بالذات الذين ينثرون الذرة في الأرض ويسوقون المحاريث ويسقون الأرض ويكومون السباخ البلدي تمهيدًا لبعثرته في الشرائح .. كانت الصورة تختلف عن بلدي .. يا سبحان الله عيال

وأطفال ونساء تفل الحديد وعندنا مثلهم تتابله السلطان ونساء كثيرات محجبات في البيوت ولا يوجد في هيت كلها تلميذ يذهب إلى المدرسة وحقييته ملأى بكافة أنواع الطعام وكأنه يذهب إلى كتيبة لتأكل معه .. فلا يوجد سندوتش مع تلميذ في مدرسة حتى يعود إلى بيته ..

.. جاءنا فوزي مهلاً وكاد يقبل يد أبي في أدب فمنعه أبي في قوة وقال:

- استغفر الله .. شيخ الصيادين في هيت مؤدب أوي ..
- ما نعرفش غير كده يا عم الحاج .. دا هيت كلها نورّت .. أهلاً .. أهلاً ..
- شوف يا فوزي أنا جايلك للشديد القوي ..
- ليه ما بعتليش أجيلك بامشي على عيني .. خير يابه الحاج تحت أمرك ..
- فيه عندنا عيال بتعدي .. عيال صغيرة مع عيال كبيرة ..
- أيوه باشوفهم ..
- عارف بيعملوا إيه ..
- أنا في الوقت ده بكون مشيت من على البحر .. لكن باسمع إنهم بيلعبوا استغماية ويروحو ..
- يا فوزي العيال دي بتعمل قلة أدب وبيدخلوا العشش بتاعتكم ويعملوا اللي عايزينه ..
- يا نهار إسود أنا ما عرفش ..
- وضرب كفًا بالأخرى ثم أردف:
- وحتى لو عرفت ما قدرش أقول للواحد منهم تلت التلاتة كام ..
- ليه .. ليه ما تقدرش ..
- أول حاجة يمنعونا نروح لسوق بلدكم وأنت عارف ببيع ونشتري من السوق .. الحاجة الثانية دول ولاد ناس عندكم جامدين ممكن توصل لضرب وقتل

ومنع .. وبعدين خلّلي بالك يابه الحاج أنا في الحالة دي بامنع العيال دي
علشان بيعملوا قلة أدب يعني دا كلام كبير يستاهل فوزي القتل عليه ..
وبعدين يابه الحاج البر بتاعكم كله ملك ولاد هيت من يوم ما الدنيا إنتشأت
وإحنا عايشين من بركم .. الميه بتاعتكم كلها بتاعة صيادين هيت بيقه إزّاي
أمنع ولاد أسيادي حتى لو كانوا بيعملوا البدع .. دا موضوع كبير ما قدرش
عليه ولا حد في برّنا يقدر عليه ..

وعلا وجه أبي الدهشة وحاول أن يمسك تلايبب نفسه لحزنه الشديد على كلام فوزي
وقال وهو يهز رأسه:

- يعني الحل إيه ..
- الحل لازم يجي من عندكم لأن الفعل بيحصل من ولاد بلدكم .. الحل مش
عند أي واحد في برّنا .. إحنا ناس عايزين ناكل عيش .. طول عمرنا البحر
بتاعنا وعايزينه بيقه بتاعنا على طول ..
- يعني عيال بايظه تعمل الفسق في عشتك وتسكت ..
- يا عم حداد العشة دي بعيد عن داري وعلى فكرة شاطئ البحر بتاع الناس
كلها ما قدرش أحكم فيه .. اعتبر العشة بتاعتي والعشش اللّي جنبني بتوعك
يابه الحاج واتصرّف إنت ..
- إنت بترمي كل حاجة عليّه لازم تساعدني إنت وزمايلك الصيادين ..
- شوف يابه الحاج لو قدرت عليّه مش هاتقدر على البر كلّهُ ..
- إزّاي ..
- من منزل عامر وحتى المشروع عند مخيوس الركيّس فيه غم ونكد بيحصل
في البرّين
- خلّينا نعالج حتتنا الأول .. نبدأ بمنزل عامر وبعدين نشوف باقي الحتت
- وإنّت سامع إيه عن مخيوس ..

- ساب العيال في بلدكم وعدّي عندنا ..
- يا نهار إسود يا فوزي دا الموضوع سيرة مش هانتفض ..
- شوف يابه الحاج الموضوع في كل حة عندنا وعندكم وده موجود من يوم ما تخلقت الدنيا وعلاجه ما يبقاش بالقوة ولا بالشمروخ ..
- الموضوع موضوع تربية عارف الأهل همّ السبب فيه .. بس إنت عارف العيال اللّي بتيجي عششكم ..
- ابن عيد والنفر بتاعهم وابن جلال والنفر برضه وابن فاروق والواد بتاع الشروه وابن وابن ..
- دا إنت عارفهم كلهم يعني أهاليهم ما عندهم مش أرض كثير ..
- مش مهم كُتر الأرض جوّه .. أهاليهم بيملكوا مساحات طويلة على رؤوس غيطانهم في البحر .. اللّي بنخاف منه إن نحارب من يملكون شاطئ طويل على حرف البحر .. وبعدين يابه الحاج إنت تعبان ليه ما فيش حد من عيالكم فيهم ..
- ما ينفعش أقعد في حة وأشوف فيها المسخرة دي لازم نخط حلّ قاطع .. لمّا كل واحد يقول وأنا مالي الدنيا هاتخرب ..
- أنا معاك في أي حة تؤديني فيها يابه الحاج .. إيه اللّي أقدر أعمله ..
- شوف العشش سايبه مفتوحة ما لهاش أبواب .. والمشكلة عندكم كمان إن ما فيش نور ..
- مش فاهم نور إيه ..
- لازم نهد العشش وأعمل للصيادين مسجد صغير على تارة البحر لازم ننصف البحر ..
- ونروح فين لمّا العشش تتهد ودا يرضيك يابه الحاج ونؤدي حاجة الصيد فين .. دي مرسانا عا البحر ..

- هابني ليكم قوض من الطوب ليها أبواب
- ما نقدرش نبني دا إحنا غلابة رزق يوم بيوم ..
- أنا اللي هابني ..
- مش فاهم .. تبني لينا ببلاش ..
- من عند الله ..
- معقولة وتبقه القوض دي بتاعتنا ..
- أيوه ..
- مش مصدق يابه الحاج ..
- من بكره هايكون قصادك في نزلة عامر طوب كتير بيني دار كبيرة .. إنت عليك وزمايلك معاك يحولوه بالمراكب بُركم ..
- أمرك يابه الحاج اللي إنت عايزه .. بس دا موضوع ما حدش يصدقه ..
- أنا باهد الزريبة وقوضة التبن علشان حاجات في نفسي .. هابني بيت جديد من أول وجديد الطوب القديم ليكم إنتم يا ولاد هيت ..
- بس دا بيني كتير ..
- يهمني أبني ثلاث قوض ليك ولزمايلك .. المهم الخن اللي قصادنا يتعالج الأول وبعدين هابني جامع للصلاة .. للأسف ما فيش صياد بيركعها مش عارف إنتو بتبتدوا يومكم إزاي ..
- إحنا عايزين اللي يصحينا وما حدش صحى اللي قبلينا ومشيت كده ..
- شوف لو من الأول عندنا يقظة وبنحاسب نفسنا أول بأول كان ربنا نور بصيرتنا وما كانش طفل واحد ربناه في حضن الشريك (النفر) إنت عارف إن عدم التدين بيخللي الناس كلها في غيوبة ونعمل أخطاء كتير من غير ما نعرف خطورتها .. إنت عارف سبب المشكلة دي كلها إيه .. الثقة إنك تبدي الثقة والأمان لناس مش أهلها .. إذا كان نفر من جواه حاقد على صاحب

- الأرض وناقم عليه تبقه إزاي تأمنه على ولدك .. هوّ دا اللّي حصل وعلشان كده الأنفار انتقمت منّا في عيالنا .. المصيبة أساسها أننا تركنا الذئب يعيش مع الغنم .. أمامك الذئب كله وفاء وإخلاص ومن وراك هات يا انتقام ..
- إنت قلت كلام كتير وكبير أوي يابه الحاج ما قدرش أفهمه .. (وسكت وهو يتقرّس وجه أبي وكأنه غير مصدّق ما قاله) فطفق يقول:
- صحيح هاتبني لينا وتهد العشش وتعمل جامع ..
- من بكره يا فوزي هاتلاقي طوب مرصوص في نزلة عامر .. هات زمايلك وانقلوا الطوب على المراكب .. خلاص يا فوزي مش عايز كلام كتير ..
- .. وقام أبي وأنا أمسك بكف يده وفوزي يمشي خلفنا وهو يدعو بصوت عالٍ:
- ربّنا يخليك يابه الحاج .. أد كده راجل طيب بتفكّر في الغلابة .. ربّنا يخليك حسن وعبد العزيز ..
- ويضحك أبي ويقول مداعبًا فوزي:
- ومحمد وسعاد مش تكمل بقيت العيال ..
- ربّنا يعمر بيتك كله يابه حدّاد ..
- .. كان فوزي فرحًا لما سيحصل عليه من أبي وراح يجّدف مركبه حتى أوصلنا إلى نزلة عامر .. نزلنا من قاربه وهو يقف على سطح المركب ضاربًا بكف يده تعظيم سلام فوق جبهته .. وكانت النزلة تزخر بكثير من البهائم وأصحابها يرتعون في مياه البحر وألقى أبي عليهم السلام ثم حجب بكم جلبابه الشمس وراح يبحث في الوجوه عن الأولاد الذين يعدّون كل يوم إلى بر هيت ويبدو أنه لم يجد أحدًا منهم فأنصرفنا عن البحر وطلعنا النزلة حيث دارنا التي تبعد عن البحر مائتي متر ..
- .. لم نجد أحدًا في الزريبة وغرفة التبن ولا في المربط ولكن قابلتنا الكلاب في هليّة .. وهي فرحة بنا .. ففعد أبي في فاتحة باب المربط تحت بقعة من الظل وكان منهكًا ووضعت كف يدي تحت صدغي ورحت أتأمل الناس الذين يأتون من دورهم

وحقولهم إلى طرنبتنا (طلمبتنا) ليملأون أوعيتهم بالمياه النظيفة .. كان أبي يريد أن
يمدّد جسده على الأرض فقال لي:

- هات الغبيط ..

فرشته له ووضعت قالبًا من الطوب تحت رأسه لكنه قعد وخلع جلبابه ليضعه فوق
القالب حتى يتحمل رأسه صلابة المخدة الناشفة .. كان يداعبه النوم فأشفقت عليه
فقلت له في رقةٍ وحنانٍ:

- أغطّيك

- لأ

- هوّ فين رجب

- تلاقيه راح البلد يجيب الغدا ..

- جد هاتهد الدار دي ..

- أيوه .. هاتبدي بغرفة التبن

- والنسوان يابه ..

ضحك أبي من كل قلبه ولما انتهى من كركرته قال:

- حتى إنت عرفت النسوان ..

- ما هو أنا شفتهم من سنتين ..

- مش فاهم .. شفتهم في غرفة التبن ..

- لأ شفتهم عا الترعة وشفّت سميرة بتغيّر هدومها ..

.. قام أبي وقعد كأنه فوجئ بذكرى سميرة وقال وكأنه يحلف أن يكون أمينًا على
سري:

- قل لي بالله .. إمتى شفت سميرة كده ..

- لمّا رحت أعمل أكياس المدرسة ..

- على أساس إنك صغير ..
- أيوه ..
- هيّ ولا نسوان الترعة ..
- نسوان الترعة مش نسوان لمّا شفت سميرة ..
- يا نهار إسود عليك يا حسن دا إنت هاتبقه خطير ..
- لازم أطلع زي أبويا ..
- طيب نصيحتي يا بني إبعد عنهم ..
- إذا كنت إنت كبير ومش قادر تبعد عنهم ..
- وعلشان كده هاهد غرفة التبن
- ولمّا واحدة تيجي تقولك يا خال مش هاتراضيها ..
- هاجيب أمك وأمك لبيبة هنا هايموني ..
- هاييقه حرام عليك والنسوان الأرامل والمطلقات هايروحوا فين ..
- أصل السكة دي كلّها طمع في طمع وفيها برضه حرام ..
- مش إنت بتتجوز ..
- بس مش للبر الأصيل ..
- إزّاي ..
- جشع النفس قبل الجواز
- مش فاهم ..
- كنت بخاف أقع في الشرك .. كنت بحس إنني ضعيف أدّام كل واحدة حلوة،
وكان أغلب جوازاتي منهم علشان أحميهم من الديابة وأعطيهم القرش اللّي ما
يعرضهمش للغلط ..
- مش فاهم حاجة .. طيّب كويس ييقه ما فيش حرام ولا غلط ..

- عندي شعور إن طمعي فيهم ببسبق ديني .. المفروض الدين يسبق طمعي وشهوتي .. طيبّ ليه ما تجوزتش الوحشين منهم اللّي ليهم نفس الظروف..
- تيجي إزّاي دي ..
- هيّ بتيجي على بعضها .. بس المشكلة كانوا كتير وكان لازم أعمل كده لأنهم كلهم حواليه في الغيط والأنفار في منتهى قلة الأدب إذا كنا من وقت للتاني بنمسكهم مع الحمير على فكرة يا بني الديابة المستخبية في الغيطان همّ الشّرّكة ..
- يعني إيه الشّرّكة ..
- الأنفار .. إحنا طلّعنا لقينا أهالينا بيقولوا على النفر الشريك .. وهوّ المقصود من الكلمة هدف أخلاقي يعني تعامل الشريك (النفر) اللّي بيشتغل عندك كأنه شريك .. بمعنى تعامله معاملة إنسانية وكأنه يشاركك الأرض..
- حكايات الأنفار كتيرة ..
- طول عمرها كتيرة .. شوف الديب المستخبّي أخطر من الديب الحقيقي .. وهمّ طول عمرهم بيننقموا من أصحاب الأرض ولحد ما تقوم القيامة ..
- وإيه السبب
- الفقر بيولد الانتقام .. الفقر سبب كل بلوة ..
- والحل ..
- فيه حلول كتيرة ..
- وعلشان كده هأتهد الدار ..
- وهابني بيوت بدل العشش في البر التاني وهابني جامع علشان يمكن الناس تصحى ..
- يا ريت من بكره ..
- مقال الهد اسمه عبد السميع تهامي هاييجي الصبح يهد ..

- يعني فيه أيام حلوة جايه ..

- هاتشوف بنفسك يا حسن ..

"أسرار البحر في الناس"

كان أبي ينوي عمل أشياء كثيرة، ولكن الرجل كان يريد أن يغتسل أو يؤدّب نفسه، ولمّا ارتدى قميصًا فوق جسده العاري وخلع حذاءه من قدميه ونزل مع مجموعة رجال عبد السميع الذين يقومون بهدم الدار حاولوا جميعًا إثثائه عن عمله معهم ولكنهم لم يستطيعوا كان أبي يريد أن يضع نفسه في أي نيلة تكفيرًا عمّا فعله طيلة حياته الماضية التي بدأها مع أول امرأة كانت تكبره بأكثر من عشرين عامًا وقالت له يا خال حداد .. هي المرأة التي قفلت عليه باب دارها وقالت له:

- لن تذهب يا خال .. أقعد معايا يا خال ..

.. إنه لن ينسى أبدًا كيف كان لهذه الكلمة من سحر وسلّم لها نفسه عندما قفلت الباب عليه .. كيف لشاب في عمر السادسة عشرة أن يقاوم دلال ورغبة امرأة في أوائل العقد الخامس من عمرها ولها مثل هذا الدلع عندما راحت تقول له وهي تقفل عليه دارها بإحكام .. لأ يا خال لأ يا خال .. مش هاتمشي خليك معايا .. ألفت بملابسها كاملة وكأنها ستترنل البحر لتستحم لكنها ألفت برأسها في حجره وهو يجلس فوق قبر فرن قاعتها الدافئة .. كيف أنه كان يختزن الكثير من حزنه على أمه التي لم يرها والتي فارقتة وهو في الثانية من عمره وكيف أنه حزن ثانية عندما ماتت أخته فايقة فجأة، وهو الطفل الصغير الذي لا يستطيع أن يفعل شيئًا لزوجة أبيه والتي وضعت لها السم في قطعة حلوى .. إن الجميع كان يرضخ لحكم أبيه وكان أصغر الجميع فكيف يثور على حكم أبيه بأن يضع الجميع فوق الخبر ماجور .. كان الرجل يريد أن يخرج من صوامع الكراهية والحقد ولكن إلى أين .. إن أبي حدّاد الذي كان يعامل معاملة الكلاب ويتناول طعامه في بقوشة يأكل منها الكلاب وأحيانًا يأكل منها الوز والبط والفراخ .. كان غلبانًا مسكينًا كان يتيمًا بدون أمه وبدون أخته وبدون أخ شقيق له لا أخ هو ابن قطيفة القاتلة .. ورغم أنه كان يجد في بيت جدته من أمه كل رعاية إلا أنه كان يهرب من بيتها إلى بيت أبيه لأن بيت أهل أمه كان ضيقًا وكانوا يسكنونه غرفة بجوار زريبة لها رائحة نتنة .. نزلت عليه كلمة يا خال كأن سحرًا دخل قلبه أو أن ألواحًا من الثلج انحنّت فوق رأسه لتغسلها من الشعور بالظلم

والكراهية وتمسح عنها سخونة شديدة كأنها حمى يقبع تحتها .. وكأن المرأة الهجالة العطشانة إلى حب وإلى رجل يطفئ لهيب نارها لم تجد غير حداد .. قالت في نفسها هذا العيّل هو الذي سيكون خير رجل لي .. إنه حتى لو قال عني شيئاً فلن يصدّقه الناس .. إن الناس لا تصدّق ما يقوله العيّل أو الأهل .. إنها المرأة التي رأيتها بأمر عيني عندما كبرت وتجاوزت السادسة من عمري، ولا أعرف لماذا كان أبي يقول لي أسرارهِ ويأتمني عليها لمّا قال وهي تدخل بيتنا لتقضي حاجة لها من أمي لبيبة:

- هذه

- مش فاهم

- هيّ دي الست اللي قالت لي يا خال .. دي أول ست قالت لي يا خال ..

- هيّ دي بتاعة الفرن ..

- هيّ دي اللّي رحمتني من الظلم .. هيّ دي الست اللي قالت لكل ست خالي حداد .. ومن كثرة ما كانت تقول للناس خالي حداد راحت النساء جميعاً صغيرات وكبيرات ينادونني بخالي حداد .. وكأن هذا اسمي ..

.. اندهشت من أبي الذي يفضي لي بكل أسرارهِ فقلت له وأنا أضع قبضة يدي تحت ذقتني:

- مش دي أم الشحات أبو لبده اللّي فاتح دكان .. مش دي أم عايد الراجل اللّي قاعد دايماً أدّام داره ويبقرأ في الجورنال .. مش دي أم الست فريال اللّي متجوزة الشيخ فرحات ومخلّفه الجدعان الحلوين والبنات .. هيّ دي بقه ستهم يابه ..

- أبوه يا حسن .. الست دي سرّي وعمري ما قلت سرها إلّا ليك ..

- هيّ غلبانة برضه يابه جوزها سابها وهيّ صغيرة ..

- وأنا كنت أغلب منها ..

- وما حدّش من ولادها أو بنتها لمّا كبروا حسوا بحاجة ..

- الأمور كانت بتتاخذ على إني ابن خال أمهم الكبير ..
- مش فاهم ..
- يعني أبويا يعتبر خال أمهم ..
- يُعتبر بس مش شقيق ..
- علشان أبويا كان راجل كبير وعنده أرض وفلوس .. وكانت هي دايماً تقول على أبويا كان بيساعد أمهم وهم صغِيرين ولا يقدرُوا يفتَحُوا عينهم في أمهم حتى لو لقوني معاها راقد على قبة الفرن على طول .. أنا في كل الأحوال خالها الصغِير وكانت تقول لولادها دايماً هو خالي وأنا بأحن عليه علشان الغلبان مالوش أم يا ولاد .. يا ولاد يا بنتي دا أغلب من الغلب وأنا أمه زي ما أنا أمكم .. شوف الناس الطيبين .. تسميه يا بني حب ولا رضوخ ولا تقاليد ولا سيب الناس تعيش ولا خضوع ولا هي دي الأصول .. آه من الفرن وقبة الفرن والوجع اللي كان فيه .. أم ما فيش وأخت راحت في شورية ميه وأنا كلب من ورا أبويا باكل في البقوشة وجدتي من أمي دارها ضيقة وقوضتي هي والزريبة واحد .. كنت أهرب أروح فين .. أنا يا بني ما صدقت واحدة عايزاني بصحيح ورفعت من روحي وكياني وعرفت معاها إني راجل بصحيح وعمري ما أنسى قاعتها ولا لما تقلع القميص وتقول ربنا يخليك يا خال .. وتدعو لي وأنا في عز ما معاها .. فأنا خالها وأبوها والشيخ اللي بيدعي لها .. والله يا بني كانت بتقول لي في عز ما أنا معاها ادعيلي يا خال .. طيب وعيل صغِير في السن دي يعرف يدعي ليها إزاي .. آه يا بني الست دي ادتني قيمة كبيرة، إنت عارف يا بني حسيت بايه .. باني بحر كبير والناس دي كلها بتدور على أسرارها فيه .. الست دي عملتني بحر كبير وهي لاقية سر كبير فيه ..
- .. كان أبي يسهب في الحديث عن نفسه وعن الناس وكأنه وجد إنساناً يسمعه ويستريح له .. لم يكن أبي من قبل يحكي شيئاً لأحد .. فما بالكم أن وجد حبيبه الصغير يصغي له بحب .. وعندما بدأ يحكي لي حكاياته التي أثرت في مجرى

حياته يقوم بعد كل حكاية ويصلي ويقول لي .. تعود على الصلاة معي .. إن الصلاة يا بني تحمي من يقيمها وإنه بعد هذا العمر من الحياة لم أجد أطمع وأحلى من صلتني بري، وأن صلتني بري هي التي تجعلني الآن أضع حدًا للماضي محاولاً أن أبدأ من جديد حياة أخرى جميلة ونقية، إن حياتي يا بني قبل سن الأربعين صنعها غيري أحببتُ فيها أشياء وكرهت فيها أشياء أخرى، لكنني الآن يا بني أريد أن أبدأ حياة جديدة من صني وأنه يكفي ما مضى لعلاج ما كان في نفسي من ألم أصابني من الناس حولي .. ولولا حب أبي وجدتي من أمي حتى خالتي أم الرزق التي كنت تكرهها يا بني كانت تحبني ولكن حب الجهلاء، وما كان يجعلني أصبر على ما ألقاه من كراهية من زوجة أبي أنني كنت أرى أخي محمود يواجه نفس الكراهية من قطيفة زوجة أبي، ولو استطاعت هذه المرأة قتلي وقتل محمود دون أن يقتلها أبي لفعلت .. لم تكن تريد أن يعيش في دارنا غير دردير ابنها حتى يرث كل الأرض وما عليها عن أبيه ..

.. تم هدم غرفة التبن وألقى أبي بكل ما كان فيها على السكة ليأخذه أي واحد من المارة .. الزلعة القديمة، أدوات الكب، الحرام المفروش فوق التبن أكواب وصنية شاي .. تخلّص من كل ما كان فيها من أسباب الحياة التي تعود أن يعتادها فيها .. ذهبت غرفة الأسرار وذهب معها كل شيء، اندمج في الهدم وكان يكلم عبد السميع وأنفاره بصوت عالٍ ويضحك معهم:

- حافظ على كل قالب .. النص خليه لوحده .. القالب الأحمر هاته هنا والقالب النّي هناك .. والرتش أهو تحت .. على أد ما تقدر حافظ على الطوب علشان نديه لغيرنا أولى بيه ..

فيقول له عبد السميع وهو يضحك ملء فيه:

- حد يهد أيامه الحلوة يا حاج ..

- اسكت يا واد جتك الغم ..

- يا بختك ما خليتش ولا مرة في الملاء ..

- اشتغل يا حمار ..
 - هاتعمل تاني قوضه للتبن ..
 - احلف ما هديك طوبة تكمل بيها دارك ..
 - لأ لأ في عرض النبي خلاص مش هاتكلم ..
- وكان عبد السميع تهامي هذا قريباً لأبي ولكنه كان من فروع الشقاء في عائلته، وكان طيباً كثير الهزار والحكايات التي يحكيها لأبي وللناس الذين يهدمون معه وكنت شديد الحرص لأن أسمع حكاياته خاصة عندما كان يناديني قائلاً:
- سامع يا حسن أفندي ..
 - سامع يا عبد السميع قول كمان ..
- ويقول له أبي:
- جتك الغم اشتغل ..
- فيترك عبد السميع الفأس التي يهدم بها ويرفص حتى أنه من كثرة انهماكه في دبكته يسيل الرشح من أنفه ..
- فيقول له أبي ثانية:
- خلّص وبطلّ تهريج علشان هادّيك كل الطوب المكسور ..
 - طيّب كده خلاص .. لكن إنت بتهد معانا ليه ..
 - مزاجي يا عبد السميع ..
- فيكايد أبي مرّة ثانية ويقول:
- صعبان عليّ غرفة التبن ..
- فيقذفه أبي بنصف قالب من الطوب فيخرج من حيّز الهدد (الهدم) ويجري نحو زراعة الذرة .. فيتترك أبي هو الآخر المكان ويتجه حافي القدمين إلى السكة ثم يقصد البحر وأنا أهرول خلفه .. وهناك على شاطئ البحر يتدارى في كتلة من

البوص وبخلع قميصه ويمسك عورته بيده يداريها وينزل إلى البحر ليستحم .. غاص
أبي في البحر حتى منتصفه وأنا أتابعه في سرورٍ وأتمنى أن أعوم مثله عندما أكبرُ
.. وعندما بدأ أبي يخرج من البحر إلى حيث يضع قميصه كانت أول حمارة تحمل
طوب الهدد تصل إلى أسفل منزل عامر ليقلب النفر حمولة الطوب وهو يحرص
على ألا ينكسر قالبًا واحدًا .. اقترب منه أبي وقال للنفر:

- فبين الحمارة الثانية

- جايه ورايا ..

ولم يكن هناك أحدًا نراه في مقابلتنا بالبر الآخر لكن أبي راح ينادي:

- يا فوزي .. يا فوزي ..

فلم يرد أحد فكررَ أبي النداء فخرج إليه رجل من العشة وهو يحمل شبكة صيد على
كتفه ورد على أبي:

- أيوه يابه الحاج .. أيوه يابه الحاج ..

- جهّز نفسك الطوب وصل .. شوية على العصر تيجو تشيلوا ..

- حاضر .. حاضر .. ربّنا يبارك لك ..

عدنا إلى دارنا التي بدت لنا مقسومة في عدة جدران قد نكش الهدم جوانبها،
وانصرف العفارون الذين يهدمون البيت العتيق إلى البحر ليستحموا ثم يعودون وكان
عبد السميع مقاول الهدد يتقدمهم وهو يغني وعند تارة البحر تبعثروا في مياهه ولم
يكن أحد منهم لديه قليل من الحياء حتى يغطي عورته وينزل إلى البحر رغم أن
هناك جماعة من النساء يغسلن قمحهن على بعد أمتار قليلة .. وكان الهدّادون
الخمسة وعبد السميع سادسهم يغنون بصوتٍ عالٍ حتى يلفتوا نظر النسوة، إن نوعية
الهدّادون في بلادنا من غلظة الرجال وليس لديهم أدنى معرفة بأصول الأدب والحياء
لأنهم أقل الناس دينًا منذ نشأتهم، ولم يكن رئيسهم عبد السميع تهامي مثلهم إنه
يتلفّح ببعض الحياء وكان أبوه يحفظ بعض من نصائح في الدين ولكنه لم يكن
يصلّي إلّا قليلًا في المسجد وكان كثير الانطواء في عشة بناها فوق سطح بيته

الضيق وكان يقرأ في كتاب قديم باهت الحروف فيه كثير من أعمال الشياطين التي كان يقوم بها بعض رجال القرية في القدم وبقي هذا الرجل يحاول أن يكون له خادم من تحت الأرض يتعامل معه ويساعده في عمل الأحجبة التي يطلبها النساء والرجال للحب والكراهية ونجح مع زبائنه سنين ليست بطويلة في عمل أحجبة الكراهية والعشق بين الرجال والنساء .. إلا أن هذا الرجل انحرف أكثر في أعمال أخرى حتى أن شيطان رأسه القوي أغواه في يوم بأن يتوضأ باللبن وأنه بعد أن يكمل وضوءه باللبن سوف يخرج إليه خادم قوي من تحت الأرض عليه أن يقول للخادم .. كذا وكذا حتى يألفه الخادم ويكون له عبداً مطيعاً وتكون خدماته للناس أقوى ليحصل في النهاية على كثير من المال ويصبح غنياً بأعمال السحر .. توضحاً تهامي أبو عافية باللبن وبعد وضوءه دخل عشته المظلمة بعد منتصف الليل وأخذ يقول عبارات وكلمات حتى خرج إليه خادم من تحت الأرض شديد البأس فتلعثم تهامي وارتبك ولم يستطع أن يكمل حديثه مع الخادم فضربه الخادم فوق رأسه فلزق وجهه في أرض العشة وراح يصرخ حتى أنه من وهنه سكت .. عجزت يداها عن الحركة كما عجزت قدماء أن تحمله .. وخرج لسانه من فمه واتعوج فمه كمن أصيب بالشلل ..

ولمّا كان أبي قد أطل في حكايته عن أبو عبد السميع قلت له:

- كم من سنوات العمر بقي تهامي مشلولاً ..
- أنت شُفته يا حسن ..
- أيوه شفته .. وهو يجلس أمام بيته قاعداً عاجزاً ينادي الناس بصوت الأخرس ..
- مات وأنت في سن الخامسة
- وهل كان عبد السميع وزوجته وأبنائه يأكلون من سحر هذا العجوز ..
- هذا العجوز في شبابه لم يكن يعرف كيف يفلح في زراعة فدان يملكه واقترح على ابنه عبد السميع بتأجير الفدان ليأكلوا من إيجاره وعلى عبد السميع أن يعمل باليومية هنا وهناك ..

- وهل وافق عبد السميع على ذلك ..
- فرح عبد السميع باقتراح أبيه وقام العجوز بتأجير الأرض نصفها لواحد يدعى زكي البيومي وآخر يُدعى زكي تحتوت ..
- اتنين زكي .. منين ..
- من أبو عافية
- وهل يرتضى رجل له عقل أن يترك أرضه لغيره ويعمل عند الناس بالأجرة ..
- هذه بركة أعمال السحر أعمت عبد السميع وأبوه وجعلت أرضهما ملكًا لغيرهما ..
- أعمال السحر الحرام رزقهم سحتًا فأعتمتهما عمًا هو خيرُ لهما ..
- وهل هناك من يعمل بالسحر حتى الآن ..
- نعم .. فيه واحد .. ما فيش حد بيحبه ..
- من العزبة البحرية ولسه شغال
- أيوه .. حسانين تنك ..
- شفته الراجل اللّي وهوّ بيمشي بيعمل محلّك سر ..
- وآدى برضه مثال تاني لعدم البركة .. السحر عامل زي الربا ..
- بيشغل بالسحر بس ..
- أيوه ويا ريت بالسحر اللّي يخلّي الناس تحب بعضها .. دا بيكتب للكره والشر والحدق بس .. وبيخلّي القوالب الطوب تتناطح مع بعضها وتتحدف في كل شارع على الناس ..
- والراجل دا من عيلة مين ..
- من الفروع الخايبة من أبو عافية ..
- مش ده مراته بتاع الطعمية ..

- مراته أحسن من الراجل هي بتأكل البيت كله من الطعمية
- مراته من أبو عافية ..
- مراته من بلد من مركز الباجور ..
- نسوان مركز الباجور شاطرين ..
- التاريخ بيقول كده .. أمك يا حسن من مركز الباجور ..
- رغم أن تلوانة جنب شنشور ..
- نسوان مركز أشمون ما يعرفوش غير الغيط والجاموسة والسباخ وعلى فكرة
تلاقي دايمًا بيوت مركز الباجور أنصف وأجمل من بيوت مركز أشمون
- وإيه السبب ..
- أهى كل بلد ليها زرعها ونبتها حكم ربنا إن الناس بتختلف علشان كل واحد
يعمل حاجة ما بيعملهاش الثاني ..
- علشان كده اتجوزت أمي ..
- دي بالصدفة يا حسن .. على فكرة من زمان والناس بتقول إن بلاد مركز
أشمون هم صعايدة المنوفية ..
- بس شنشور في الواجب أحسن من تلوانة .. أنا شفت الدواوير ..
- أيوه رجالة شنشور ونسوانها في واجب الضراء أحسن بكثير من بلاد مركز
الباجور ..
- ولاد تلوانة ما لهمش في اللعب ..
- ليهم أكثر في العلم ما تلاقيش واحد رياضي ولا فريق رياضة كويس في بلد
أمك .. وهم لا يقرأون إلا في العلم وليس لهم في كتب الأدب والشعر والرواية
وكل ألوان الفن ولا تجد واحد في تلوانة قرأ لأديب أو شاعر وإذا قرأ فإنه يقرأ
في سخرية

- كده ولاد تلوانة مجرّدين من التخيل والإبداع ..
- دي حقيقة .. هدفهم الحصول على الماجستير أو الدكتوراه للحصول على وظيفة مرموقة مستشار أو قاضي أو رئيس محكمة ويخدمون الحكومة أيّا كان اتجاهها فاتجاههم السياسي مكتوم والهدف الأول لدى كل منهم الحفاظ على وظيفته كقاضي أو مستشار أو أستاذ جامعي ليصل في النهاية إلى قمتها .. إنهم ليسوا أصحاب قضية ولكنهم أصحاب شهادات ووظائف مرموقة ..
- أفهم من ذلك أن بلد أُمي تنقصهم الشجاعة .. إنهم يخدمون أنفسهم فقط وهم يمثلون الصف الثاني المنتفع من أي نظام ..
- والله يا بني إنني أرى ذلك .. فهم قوم ينكفئون على أنفسهم .. ومش بتوع قعدت ولا أصحاب مزاج ..
- مش فاهم ..
- لا تنتشر في بلدهم المقاهي ولا الغرز ولا قعدات الكيف والحشيش .. إنهم أقرب إلى التدين بالفطرة وبالسلوك كثيرًا عن ولاد بلدنا ..
- وإيه كمان ..
- بعيدين عن المشاكل والخناقات إنهم ينصرفون إلى مصالحهم في شكل أرقى مختصرين كثيرًا من مشاكل الحياة التي يختلقها ولاد بلدنا .. ولاد بلدنا عُشم لكن تلاقيهم في المواقف ..
- كده إحنا رُحنا بعيد عن الموضوع .. نرجع لعبد السميع وأبوه ..
- كفاية كده دلوقتي إنت شايف العفارون كل واحد لقي ضلّهُ ينام تحتها .. أنا برضه هانام شوية .. تعرف تروح تنام في دخلة الزريبة على ما رجب ييجي بالغدا ..

.. لم يكن البحر يحتوي أهل الغيطان حوله فقط بل كان يأوي إلى البحر كثير من الناس خاصة من الشباب في رحلات ينتزهون فيها ويستحمون ويأكلون السمك المشوي ويستأجرون المراكب ويتسابقوا بها في البحر .. ورأيتُ بعيني أن كثيراً من الشباب الكبار يصحبون معهم أولاد صغار في عمر الخامسة عشرة يأتون بهم من ديارهم وهم يخبرون أهاليهم .. خلّلي .. يا ستي ييجي معانا بكرة يشوف البحر .. هوّ في الأمان معانا خلّيه يشوف الدنيا .. خلّيه يتفسّح ما تخافوش عليه هانيجي قبل المغرب .. يأخذون الصغار معهم ليكونوا طعاماً لهم بعد هضم طعام بطونهم .. وكما كان يحدث مع الأنفار وعيال أصحاب أرضهم والثقة الخائبة والجاهلة يحدث مع رحلات الشباب من البلدة إلى البحر كل يوم .. هل كان البحر غيباً أم أنه يحتوي كل شيء لأنه أخرس .. إن البحر لم يكن طفلاً في يوم ولا رجلاً ولا امرأة .. إن مياه البحر العميقة تحت الأمواج الهادئة يبحث المجرمون فيها عن فروجهم .. وحرف البحر يشهد على قعدات شي السمك والذرة وجلي الشاي، وإن أعواد البوص الكثيفة التي تفصل بين حرف البحر والغيطان فيها يقترب المزيد من تلك الأعمال التي تصرخ لها أعماق البحر ولا أحد يرى شيء أو يمنع ..

.. رأيت بعيني وحكى لي أبي حتى أعى وفي قعدات ما بعد الغداء كم من الحكايات حكى الأنفار عن البحر وما يحدث فيه .. وأن رحلات البحر ظاهرها فسحة ونزهة وأكلة سمك وباطنها الوصول إلى الفرج .. ولمّا كبرت كان هناك ولد من ضواحي وسط البلد ضليع في اصطلياد العيال الصغار للفسحة في البحر .. يسمونه الثعلب وكان صديقاً لموظف متزوج من امرأة جميلة وبالطبع أنجب هذا الموظف ثلاثة عيال صغار في منتهى الحسن والجمال .. كان هذا الولد مجرماً حيث اصطحب أطفال هذا الرجل لمّا عاد كل منهم غلاماً يافعاً وتزوجهم ثلاثتهم واحداً بعد الآخر منذ الابتدائية وحتى فرّقت الأيام بينهم إلى أن انتهوا من دراستهم الجامعية .. كم كنت أحتقر هذا الولد عندما حكى لي عندما كبرت عمّا فعله ويفعله بأولاد هذا الرجل .. قال لي على سبيل الافتخار وكنت أيامها في الصف الثاني الثانوي بمدينة منوف وكان هو في مدرسة منوف التجارية وكان له صاحب في نفس المدرسة من قرية صغيرة بجوار بلدتنا علمت أنه أصبح عمدة هذه القرية فيما بعد وكان على نفس

شاكلته في بلده .. وهؤلاء عمدة البلاد .. ومرّت السنوات علمت بعدها أن هذا الثعلب يمسك بأمور الزراعة في إحدى القرى .. ولمّا مرّت سنوات أخرى سألت عنه .. فأخبروني إنه مات بالسرطان .. وأنه قبل موته قد استولى على كثير من أموال بنك القرية بمساعدة صديق له حاصل على نفس الدبلوم من منوف التجارية .. وياما لّمت مدينة منوف .. كل أنواع الناس الفطاحل في العلم والأدب ويامه برضه لّمت أوباش وحرامية وشواذ ..

.. لم يكن البحر رجلاً أو امرأة ولكنه كان أعمى فاجراً يفتح أبوابه في كل مكان منه للجميع، البحر لا يستطيع أن يمنع أعمال الناس فيه ولكنه يعيش كما تعيش البحور فيه السمك والصيادين والمراكب، وفيه الجاموس والبقر والحمير تشرب وتستحم وفيه الفلاحون يرعون فيه كما ترعى بهائمهم وفيه النزهات والفسح والأنفار يعلمون أبناء أسيادهم العوم والغطس وما بين ذلك تغوص أدبارهم في مؤخرات العيال الذين تربوا على ذلك ..

فالنفر هو الذي يحمل العيّل ويذهب به إلى البحر ويعلمه العوم والغطس ومن لحظة أن يداري البحر أجسادهم يغوص كل شيء ويرضخ العيال في مزاج اعتادوا عليه للأنفار وللشباب الكبار .. إن البحر هو المتعة النهائية التي فيها تتدارى الأشياء فلا خجل ولا حياء لأنه لا أحد يرى ولا أحد يرغم أحداً .. إن سيادة الأنفار في البحر .. إنهم يتمتعون وينتقمون ويغوصون في أعماق البحر كاشفين عن فجورهم .. إن الأنفار ينحنون لأصحاب الأرض فوق الأرض ولكن في البحر إن الأطفال والغلمان والشباب الصغير لأصحاب الأرض يركعون لأنفارهم .. إن السيادة تنتقل من الأراضي الزراعية إلى الأنفار حين يأخذون أولاد أسيادهم إلى البحر .. لا بد أن يحاكم البحر وأن يتم عمل جدار في منزل عامر ليمنع الناس جميعاً عن البحر ..

كل الناس تحكي عن البحر وعمّا يحدث فيه ولكن لا أحد يستطيع منع البحر عن الناس ولا منع الناس عنه حتى ولو بنى جداراً عازلاً في منزل عامر ..

.. إن ذهابي إلى الحقل مع أبي أطلعني على الدنيا في الغيط وحكايات الأنفار ونبح الكلاب وفجور حلابات اللبن، ولكن ما سمعته وما رأيته في البحر يفوق كل شيء

.. وكان عليّ أن أعود إلى بيت أمي لأحافظ على نفسي من مجون هذا العالم خارج بيت أمي .. إنني على يقين الآن من أن سريري في غرفة نومي وأن لا أرى أحدًا من هذا العالم الحقيق حولي أفضل مقدار ما بين الأرض والسماء .. إنني يجب أن أكون تلميذًا نجيبًا وولدًا مطيعًا لأمه .. كان عليّ أن أذهب إلى المدرسة في العام الثاني وأنا أحمل في رأسي كل أحداث قرיתי وأنه يجب عليّ كغلام صغير أن أعيش في دوائر العيال الضيقة .. وأن تعود أمي لبيبة لإيقاظي كل صباح بعبارتها:

- يا حسن قوم المضرسه ..

يجب أن أعود إلى ما كنت عليه من براءة .. وأن تكون كلمة المضرسه هذه مبعث سعادة كبيرًا كما كانت ..

"أبي هو المدرسة"

إن مدرسين مدرسة صبحي القطان كما أراهم الآن أفضل ناس في قريتي وعلى أن أتعلّم الكثير إنهم المثل .. إرتديت لفة السلك في أصبع يدي اليمنى فإذا اقترب منّي تلميذ لمغالبتني أو ضربي فإن ضربة واحدة من قبضتي كفيلة بأن يكون عبرة للجميع .. شعرت بأنني قوى واستحوذت على درج في التخته الثانيه لصف الوسط.. دخلت الفصل لأول يوم وفيه نسيت كل دلعي في بيت أمي وتخلّيت عن رقتي التي نشأت عليها .. وظهر على وجهي التحفز لعمل أي شئ يظهرني بالقوه والخشونه .. دخل علينا المدرس وهو الشيخ موسى جروان .. كان يرتدي عمامه وجلبابًا ويبدو أنه يعرف أبي فحدّق في وقال وهو يقترب منّي :

- إنت ابن الحاج حداد ..
- أيوه يا أستاذ ..
- سلّم لي عليه ..

وشعرتُ بأنني قائدًا للفصل كله.. كان الشيخ موسى يمسك بخيرزانه في يده وشخط فجأه وقال بصوت عال :

- النهارده أول يوم في القواعد .. يعنى إيه ذكر ويعنى إيه أنثى ..

فرغ تلميذ قبلي الشقى محمود جنبات يده وقال وهو يقف :

- أنا عارف يا أستاذ
- قول ..

- الراجل بيلبس عمه والست بتلبس طرحه ..

فضحك تلاميذ الفصل جميعًا ولما إنتهوا من ضحكاتهم على كلام جنبات قال الشيخ موسى للولد :

- مش إنت أبوك حَلّاق الحمير ..
- أيوه يا أستاذ ..

فضحك الشيخ ملء فيه وقال طيب ياولاد هاسأل سؤال بمناسبه الحمير .. فسكت الأولاد فقال الشيخ بأعلى صوته :

- "الحمار ليه كام رجل"

فردّ الأولاد في كلمه واحده :

- أربعة يا أستاذ .. أربعة ..

فسكت المدرس وراح يضحك لكن محمود جنبات رفع يده مقاطعا الجميع :

- أنا يا أستاذ .. أنا يا أستاذ ..

فحدّق فيه الشيخ موسى وقال له :

- عايز تقول إيه.. ما هو أبوك تخصص حمير ..

- يا أستاذ الحمار ليه خمسه ..

- إزّاي ..

- ليه خمسه يا أستاذ بس الخامسة قصيره ولا تلمس الأرض ..

فسكت التلاميذ لأنهم لم يفهموا شيئاً ولكن الشيخ موسى فهم وتقدّم نحو جنبات وانحنى برأسه فوقه وسأله في همس :

- تقصد إيه ..

فقال الولد هامساً في أذن الشيخ موسى.. وما كان من الشيخ إلّا أن راح يضرب يداً بالأخرى ويقهقه و يقول.. فعلاً تربية حمير.. تربية حمير يابن جنبات..

.. ولم يفهم التلاميذ شيئاً إلّا أن التلاميذ وأنا منهم عندما عاد الجميع إلى بيته حكى لوالده ما حدث وعرف أن الحمار له أربعة رجول وأن الرجل الخامسة قلّة أدب..

.. وفي اليوم الثاني من الصف الثاني دخل علينا الفصل الشيخ موسى وبعد أن قمنا للمدرس تحية له وتبجيلاً وجلسنا نحتضن أذراجنا إقترب الشيخ من النافذة التي تطل على حديقة يزرعها أمين سوءده خضرة وأدلى بوجهه فوق الخضره وراح يسعل ويبصق حتى تهياًلنا أنه تقيّاً شيئاً من بطنه..

..عاد الشيخ في منتصف الفصل وأخذ خيرزانه من فوق درجه وفي قوة وبصوت عال كأنه يهتف وضع طرف الخيرزانه في صرّته ورفع الطرف الآخر بأصابعه وكان الطرف الذي في آخره كلكيعة الخيرزانه.. وراح يدور حول نفسه في مقدمة الفصل ويقول بصوت عال وكأنه عثر على شئ هام :

- عبده ذكر .. عبده ذكر .. (ويدور الخيزرانه بين أصابع كفه)
ويكرّر

- عبده ذكر .. فهمتوا ياولاد .. هوّدا الذكر .. هوّدا معنى الذكر

..

سكت التلاميذ جميعًا كأنهم سمعوا شيئًا فظيغًا أخرس ألسنتهم كالذي سمعوه من جنّات لَمّا قال أن للحمّار خمسة رجل .. وتهدجت أنفاس الشيخ مرّه واحده وارتمى على كرسيه ووضع وجهه بين كفيه وكان ينهّج بشده كالعجل الذي حلّوه من الساقية بعد دوران ساعات طويلة .. ومّرت دقائق حتى هدأ الشيخ ورفعت يدي نحوه ليسمح لي بالكلام فهزّ رأسه بالموافقة :

- يعني كل واحد ذكر يمّسك عصايا ويرفعها ويقول زي ما قلت

..

- أقعد يا حسن .. من كتر أكل التسقيه ها تفهم إزّاي ..

وظللت واقفًا وشعرت بالخجل وقلت في حياء :

- تسقيّة إيه يا أستاذ .. التسقيه مش في بيتنا يا شيخ موسى وفي

قسوة أكمل الشيخ كلامه لى :

- أمّال ابن عمك عبدالمنعم طلع من المدرسة ليه ..

- ليه

- علشان مابيفهمش من كتر ما شنطته مليانه أكل ..

- والله هوّ طلع من كده .. خد شنطتي ما فيها أى أكل ..

- طيّب مابتفهمش ليه ..

- طيّب والأنثى هاتعمل إيه علشان تقول أنا أنثى ..

وانسال التلاميذ في الضحك وتدارى بعضهم تحت تختته أو تحت درجه .. وأنا ما زلت واقفًا وكأنني في مباراه مع الشيخ .. قام الشيخ إلى نافذة الفصل وراح يبصق فوق خضره الحديقة ثم سكت فجأة وسمعنا صوت أمين سوءده يأتينا من تحت النافذة :

- حرام عليك يا شيخ موسى زرعى وتعبان فيه الناس هاتاكله
إزّاي ..

.. غضب الشيخ موسى وانقلب الى ورقه وعصاه وخرج من الفصل .. جلست بعدها
ولم أفهم شيئاً ورحت أنظر إلى التلاميذ الذين انهمروا في موجة ضحك لا تنتهى ..
.. وعدت إلى البيت وكعادتي حكيت لأمى وأمى لبيبته وكما ضحك التلاميذ ضحكتاً
ومعهما أم إبراهيم وكأنهن يقولن لي عادى ياما هاتشوف وكان عيبي أننى أريد أن
أحاسب وادقق في كل شئ .. ولما جاء أبى بعد المغرب حكيت له فراح الرجل
يضحك وقال الشيخ موسى يقصد علشان العيال تفهم بسرعه على فكره الراجل ده
خَرَجَ أجيال وأجيال .. سيب الدنيا تمشى يا حسن .. هوَ راجل طيب وعلى نيّاته ..
فقلت لأبى وكأننى أفضّها معه :

- يعنى أكبر دماغى ..
- كل مدارس البلاد فيها وفيها ..
- وفي المدرسه الإعدادي كده برضه ..
- أحسن شويه ..
- طيّب أنا مش عارف الإبتدائي والاعدادى في البلد على ما
يخلصو هاكون مُت يابه ..
- ولا هاتموت ولا حاجة ..
- غيط فيه بلاوى وبلد ومدارس مشاكل .. أنا عايز أروح في
حتّه بعيدّه ..
- وتسيب أمّك وأبوك ..
- طيّب أعمل إيه مش إنت أبويا وكبير عنّى شوف لي حل ..
- مافيش حل إنت زي كل العيال في البلد .. إسمع يابني مافيش
حد مسترّيح لا كبير ولا صغير والناس كلها فى بلدنا وغير
بلدنا كده .. هوَ أنا ولدتك علشان تعمل لى مشاكل ..
- يعنى أقرب الناس لى بيتخلّى عنى ..

- مافيش حد بيتخلّى عن ولاده الأب والأم ببساعدو اولادهم على الحياه..
- وليه مايعملوش لهم حياة تانيه ..
- يابنى إنت لسه صُغِيرَ لَمَّا تفهم الأقدار.. الأقدار والمقدرات المقسومة للناس بتاعة ربّنا ومافيش حد يقدر يقدّرها غيره ..
- يعنى دى قدرتك ..
- حاش لله القدرة كلّها بتاعة ربّنا .. إنت مش عاجبك حياتنا ولا بلدنا لَمَّا تكبر روح أى حته تعجبك.. وأنا مش في إيدى أعدِلِ الناس علشان يعجبوك وإنت مين يابنى علشان مش عاجبك حد .. إنت متمرّد يا حسن ..
- يعنى إنت جبت معايا للآخر يابه .. حتى لو كنت متمرّد خلّينى أفك نفسي معاك ..
- فيه عيال زيّك في البلد لَمَّا كبروا هاجروا ابن كامل أبو حسين هاجر وابن رمضان سلامه هاجر ومارجعوش البلد لغاية دلوقتى ..
- أنا نفسي أعمل زيّهم ..
- لَمَّا تكبر وتبقه كفيل نفسك روح ما طرح ما تروح وأنا هادعيلك ..
- كده كويس عرفت ها أعمل إيه لَمَّا أكبر ..
- .. وسكت حسن عن الكلام بعض الوقت فقاطعه أبوه قائلاً :
- خلاص كده وصلنا لحاجه تريّحك ..
- هَزَ حسن رأسه وكأنه وضع نقطة على حرف وقال في صوت خفيض :
- واللى هاجرو راحو فين:
- ألمانيا ..
- ألمانيا دي فين
- في أوربا

- يعني الهجرة ماتتفحش إلا لبلاد بره ..
 - لأ ممكن تهاجر لأي بلد في مصر ..
 - إنت يابه بتروح لمراتك اسكندريه ..
 - من سنه مابروحش ..
 - طيب أنا عايز أروح معاك علشان أشوف سميره ..
 - إنت لسه فاكِر .. سميره اتجوزت ..
 - يالهوتي .. يالهوتي ..
- ولطم حسن بكفيه على وجهه .. وراح يضرب رأسه ثم بكى الولد بحرقه وتركه أيوه حتى أفرغ شجنه ثم ربت على ظهره وأخذته بساعديه يحتضنه ويقول :
- أد كده سميره محقره جواك ..
 - يابه دانا كان عندي أمل لما أكبر أروح ليها اسكندريه وأقعد هناك معاها ..
 - أهو إنت كده ضد الزمن .. سميرة بنت كبيره عنك كتير إنت بالنسبة لها مش الراجل اللّى هاتحبه وتتجوزه أكبر منك بأربعتاشر سنه .. وبعدين يابنى وضعهم في البلد كان شئ ولما راحو إسكندريه كل شئ إتغير ..
 - بس أنا ممكن أروح إسكندريه لما أكبر ..
 - علشان تشوف سميره ..
 - أيوه ..
 - مش بقولك إنت لسه صغِير .. العواطف البريئة جواك زي أي طفل ولما كلنا بنكبر بتروح العواطف البريئة شويه بعد شويه ويحل محلها عواطف معظمها مش بريئة ..
 - إنت معاك عنوانهم ..
 - معايا بس إنت لما تروح اسكندريه هاتكون كبرت وهاتلاقى غير سميره كتير ..
 - بس أنا هاتنتي فاكرها ..

- إفتكرها زي ما إنت عايز هاتبقه بالنسبة ليك لما تكبر ذكرى من ذكريات الطفولة ..
- والذكريات بتفيد بايه ..
- الذكريات الجميلة تاريخ جميل .. فيه أطفال ما عندهم مش ذكريات خالص
- معقوله ..
- أيوه .. يعنى واحد من جنابات ولأ من ولاد الجمال أو من ولاد هاده وحتحوت وأبو جله والعيال اللي ما شافت غير القهر والذل والفقر والخسه في طفولتهم مش ممكن بيقه ليهم ذكريات .. هي ذكريات تحطّمهم تقتلهم نفسياً ولذلك فإنك تجدهم عندما يكبرون أو في أي مرحلة من مراحل حياتهم لو إستطاعو قتل ذكريات الأطفال الجميله لفعلوا.. إن هؤلاء ينتقمون بأي شكل من أشكال الإنتقام من الذين أنعم الله عليهم في حياتهم عندما كانوا أطفالاً ..
- ولماذا لا يكون للأطفال جميعاً ذكريات جميله ..
- ألم أقل لك أنك ما زلت صغيراً .. إن الجهل والفقر وعود الحياة قتل في بيوتها كل شئ جميل .. فكيف يكون للأطفال في هذه البيوت إلا الشقاء والعذاب والنفوس الضعيفة
- ولماذا لا يكون هناك عدل في الحياة ..
- الدنيا بنيت على الظلم والظلم في بلادنا موروث قبل أمنحوتب الرابع بأكثر من ثلاثة آلاف سنه ولولا يقظة هذا الفرعون وإنقلابه على كهنة الآلهه (آمون وغيره) لما كان هناك أي تغيير والتغيير الحقيقي بدأ بالاتجاه إلى عبادة إله واحد وهدم تلك المعابد ..
- يعنى إيه مش فاهم أي حاجة .. إنت جايب الكلام دا منين ..

- يابنى دا الكهنه دول وهَم رجال الدين فى ذلك الوقت كانوا يأخذون القرابين من أهل مصر من مال وذهب ليقدمونها إلى الآلهه وكانوا يأخذونها لهم، وكانوا يأخذون البنات والنساء من البيوت أقصد أجمل الفتيات والنساء من بيوتهن بقصد تقديمها قرابين للآلهه.. والكهنه يأخذون البنات والنساء ليكن متعة لهم.. والشعب مصدق ومش دارى بحاجة وعایش على الوهم والجهل ..
- يانهار إسود ..
- أد كده الشعب كان مخدوع وملطوخ على قفاه ..
- ولغاية دلوقتى الشعب ملطوخ على قفاه ..
- ليه يابه ..
- الخوف والفقر والقهر والإستبداد هو أكبر شئ فى حياة المصريين منذ أن عاشوا على أرض هذه الدنيا وحتى الآن وإن إختلفت الصور والأشكال .. طول عمرنا واحنا بنعيش من ضعف إلى ضعف ..
- دانا يابه مش فاهم حاجه ..
- ولولا الصديق يوسف الذى جاء من بلاد أخرى لما استطاع أمنحوتب الرابع "إخناتون" القضاء على الكهنة والآلهه والاتجاه إلى عبادة إله واحد .. (التوحيد) ..
- مش فاهم حاجه ..
- لما تكبر هاتعرف كل حاجه .. بس واحده واحده ..
- يعنى أنا بكده هانسى سميره ..
- بكره لما تعرف الدنيا واحده واحده هاتنساها وتلاقى زي سميره كتير لما تكبر وتروح اسكندريه ..
- طيب ولظيمه مراتك ..

- إنت لسه فاكِر .. طَلَّقْتها يا حسن بعد سنه من مشيهم من البلد..

- يانهار إسود وأنا مش دارى .. طيب إزّاى ..

- هاقولك بعدين يا حسن ..

وتوالت الأيام في هدم الدار القديمه .. يتوقّف العفارون وقت ظهيرة كل يوم ينامون تحت الشجرة الكبيره حتى يأتّيهم الغداء وكما يفعل أنفار الغيطان يشربون الشاي ويقفلون مزاجهم بالمعسل بعده يذهبون إلى البحر يستحمون ويغوصون ثم يعودون إلى الدار للقضاء على حيطانها العفنة جدارًا بعده جدار وفي كل الأحوال والأوقات يرقص لهم عبد السميع تهاى ويغنّى ويهزّر مع أبى وفى آخر اليوم يحمل مقطّفاً من أنصاف الطوب ليكّومه في أرض له في شارع أبو عياد حتى يستطيع في يوم بناء جدران بيته الجديد ..

.. كان الحقل مغرياً رغم جزعى من عالمه الكبير الذي لا أستطيع أن أندمج فيه، ولم يكن البيت يحتويني في هذه الثامنة من عمرى فأنا أكبر من البيت وأصغر من الحقل وعندما كنت أحتار في أمرى أين أذهب كنت أقلب في كتب الكرتونة في حسرة لأننى لا أستطيع قراءتها بعد.. كنت أشمُّ أوراقها وألفُ صفحاتى الكتاب على وجهى وكأننى أشم رائحة سميره رغم أننى تأكدت من أبى بأن الدنيا تتغير وأن الزمان يغيّر حال الإنسان من حال إلى حال .. وإننى عندما أكبر وأرحل عن قريتي إلى أى مدينة سوف أجد مثل سميره الكثيرات .. وكان يسكن الأفكار فى رأسى صوت صفارة ماكينة طحين حسن أبو شنب .. وحكى النساء على حرف التربة ومناداة عثمان الحلوانى على البلح الأمهات .. يايا رطب يا بلح أمهات .. وعندما أسمع صوت عثمان أشعر بأن شيئاً حياً قوياً جميلاً يشدنى وأن أفكاراً تجول بخاطري وتقول أن الحياة رغم قسوتها حولى فإن صوت عثمان يأخذنى من هذه القسوة وأجرى إلى أمى لأخذ منها نكله (مليمين) لأشترى قرطاس بلح أمهات.. فإذا وجدت عثمان يقف عند شارع أبو سمك أخاف وأعود إلى أمى قائلاً لها .. لقد إختفى .. إننى لا أحب تجاوز هذا الشارع رغم أننى ضربت سارقهِ، وإذا خرجتُ إلى عثمان ووجدته

عند حنفية خليفة الأكرات فيدق الفرخ في قلبي لأننى أثناء وقوفى لأشتري البلح
سوف أرى سيقان النسوة اللاتى يملأن أوعيتهن من الحنفية وأشعر بسعادة أكثر إذا
ما ندتني بعضهن :

- يا حسن .. يا حسن هات بلحه ..

فأجربى نحوهن حتى تأخذ كل منهن بلحه ومع كل بلحه تنقص من القرطاس تُطبع
فوق وجنتى قبله .. وكنت أعمل كأننى أستحي ولكن كنت أستسلم لهن حتى لا يبق
فى القرطاس ما أعطيه لأمى وأمى لبيبه .. وفي معظم الأوقات كانت أمى وأمى
لبيبه تراقبانى من سور البيت وهما في منتهى السعادة وعندما أدخل عليهما تقولان:
- خدوه منك النسوان هاتبقه فالح يا حسن زى أبوك..

ولم يكن هناك طفل فى القرية إلا وانتظر عثمان الحلوانى ليشتري منه البلح إذا مرَّ
على بيوتهم فى النهار أو الليل وكان عثمان يبيع بالمليم والنكله وبكوز الدرہ وبرغيف
العيش وبزر البطاطا إنه يبيع نقدًا وعينًا .. ولكن كان عثمان عندما يمر بعربته ليلاً
يلتف حوله الكثيرون حيث يعود الجميع من الغيطان ويرغب الناس في تحلية بُقهم
بعد العشاء..

.. وكانت محطة عثمان الرئيسيه في الشارع الغربى حيث يقف بعربته أمام بيت أخته
مرات عبدالسميع تهاى يشرب معها الشاى ثم يملأ لها صحنا من البلح .. يظل
يجلس معها وأولادها وزوجها حتى يخلص البلح من عربته فيعود إلى بيته في حارة
الظنيني قبلى البلد ..

.. ورغم أننى كنت لا أريد أن أذهب إلى البحر والغيط لأنهما أكبر منى وأشعر
بأننى ضعيف في كنفهما فإننى لم أكن أستطيع مقاومة الذهاب مع أبى لأكون بجواره
وأسمع منه عما جرى هنا وهناك وعما سيفعل ..

.. وفى هذا اليوم لما كنت وأبى ننزل منزل عامر تتحنح أبى ثم عطس فارتعشت
أمواج البحر الهادئة من عطسته وانتفض رجال هيت الذين يرصون الطوب في
قواربهم لينقلوها إلى البر التانى ولولا عرض البحر الذى يحجز فوزى الصياد عن
أبى فى برنا لاندفع بقوة وأصبح بين ذراعى أبى ليقول له .. أمرك يابه الحاج..
ولكنه في الناحية الأخرى راح يلوح بيديه لأبى وهو ينادى بعلو حسه قائلاً :

- أجيلك بالقارب ياعم الحاج ..
- أيوه تعال خدنى يا فوزى ..
- حالا .. حالا ..

.. وكان القارب يقفز فوق الأمواج حتى وصل إلينا ودخل في مجرى الماء الذى يعمل فيه النقالون بقواربهم وأمام أبى ركن القارب وقفز الينا ووقف أمامنا كالعسكرى وضرب تعظيم سلام :

- إتفضل يابه الحاج .. إتفضل يا عمده .. (يقصد أنا)

ونقلنا القارب إلى البر التانى وهرول فوزى إلى عشته وفرشها بحصيره وجلسنا وانصرف فوزى خارج الخص يكسّر جذور الخشب الناشفة ثم أشعلها في رابية محفورة في فتحه باب العشه وقال راجياً أبى :

- والله ما تكسفننى يابه الحاج أنا عندى سمك مش كتير خلّينى أشويهم علشان العمده ..

فقال له أبى وهو يفتس في قهقهه من الضحك :

- خلاص حسن بقه عمده .. عمده مين يا فوزى
- والله يابه الحاج دا عندنا عمده البر كله ..
- طيب إشوى .. عندك عيش ..
- وعيش طرى كمان .. خضره لسه خابزه النهارده ..
- عال يا فوزى .. (ثم سكت هنيهه وقال :
- أنا جايك علشان عايز أعمل قارب ..
- قارب خصوصي يعنى ..
- طبعاً أمال قارب صيد..
- خلاص بيقه يتعمل في ورش منوف ..
- منوف أحسن من هنا ..
- إذا كنت عايز قارب ميه ميه بيقه في منوف ..
- نروح بكره بعد ما تصيد الصبح ..

- أنا تحت أمرك ها تلاقيني هنا فى العشه .. إنده على وأنا
أجيك ..

.. وقَدَّم فوزى السمك المشوى فى طبق صاج كبير ومعه طبق شطه أذاب فى مياهه
شطه حمراء والعادة أن تضع السمكه دقيقة بعد شوائها فى طبق الشطه حتى تكون
شهيه وأنت تأكل منها .. إلا أن أبى قال لفوزى :

- حسن لا يأكل بالشطه .. خللى جزء من غير شطه .. الشطه
مش حلوه عليه دلوقتى .. إحنا يدوبك نستحملها..

ولأول مره أأكل سمك مشوى بصحيح .. وكان تناوله فى خُص الصياد وعلى تارة
البحر ومع أبى وفوزى يقوم بخدمتنا فى كثير من الإخلاص .. هذا كله جعلنى أأكل
بنفس شهية حتى التهمنا كل السمك.. وبعد أن إنتهينا تناولنا الشاي معه وطلب أبى
منه عمل كرسي معسل ليحبس به أكلة السمك .. ولما كنا نقوم حلف أبى عليه
ودس فى جيبه ورقة نقدية .. وعدانا بقاربه إلى بر بلدنا وكان لا يزال النقالون
بقواربهم ينقلون الطوب وهم يرفعون أصواتهم بمواويل البحر .. كان الوقت بعد
العصر وشعرت بأن أبى يريد أن ينام ومالت رأسى مع أبى فى ظل الشجرة الكبيرة
حتى قبل المغرب فقام أبى وصلى العصر وصليت معه .. ولما دخل المغرب كان
العفارون يذهبون إلى البحر ويتقدمهم عبد السميع وأنفار الغيط يغسلون أيديهم
وأرجلهم من مياه الظلمبه .. قام أبى إلى الصلاة فوق فرش كبيره ووقفت خلفه ومعى
بعض أنفار غيطنا والغيطان المجاوره وصليت معهم صلاة المغرب .. بعدها ركب
أبى حمارته وركبت خلفه وهو يحتضن أمامه مقطفا مملوءاً بالخضرة.

فى اليومين الماضيين بلغ أهل الملاء جميعاً أن الحاج حداد يهدم داره لبناء دار
جديده وأنه سينقل معاشه كله إلى الغيط بما فيه أبنائه وزوجتيه وأثاث بيته فى البلده،
إلا أنه كان الغريب أن ينقل طوب الهدد إلى برهيت .. ماذا فى الأمر وراحت تتردد
هذه الأقاويل بين الناس حتى بين محمود ودردير :

- باين عليه شايف له شوفه فى البر التانى

- هي مرات فوزى الصياد حلوه ..

- يمكن يكون بايع الطوب للصيادين
- بيقولوا هايينى بيت لكل صياد وجامع .. طيب ما بلده أولى ما فيه ناس في الملاء قاعدة في عشش ..

ويقول دردير لمحمود :

- مش هوّ دا طوب أبونا .. طيب أنا أولى وانت أولى ..
- طول بالك يا دردير يمكن يكون بايع الطوب
- طيّب نقعد معاه الليلة ونشوف الحكاية منه وفي دماغه إيه..
- هوّ ساب النسوان ومسك في حاجة تانيه ..
- حداد أخويا دا لازم يعمل حاجة غريبة مايقعدش ساكت..
- خلاص نقعد له زي ما قعدنا قبل كده وهوّ أكيد مش هايخبّى علينا حاجة ..

.. ولم أكن أستطيع أن أفترّق بين أبي وعبدالسميع تهاى وهما تحت عفار الرّدّم .. وكنت أندesh وأنا أرى وجه أبي وجسده مدفون فى التراب كأنه عامل هدم حقيقى وكان عبد السميع يضحك ويقول له .. إنت بتكفّر عن اللّى عملته .. لو قعدت طول عمرك تحت التراب اللّى عملته مش شويه، فيتعصّب أبى ويقذفه بالطوب .. فيعود عبدالسميع إلى مناغشته والنقوزه عليه فيغضب أبى ويبصق ناحيته ويترك العفارون ويذهب إلى البحر ليستحم، وفى هذا اليوم وهو السابع من أعمال الهدم مشيت خلف أبى حتى تاره البحر وهناك وجدنا مجموعة من النساء يغسلن القمح فألقى عليهن تحيته .. إزيكم .. كل سنة وانتم طيبين .. فردّت عليه النسوة .. أهلاً يزيدك عافيه يا خال حداد .. فراح أبى يضحك وهو مازال يتابع السير حتى إبتعد عنهن وعند ناصية من البوص الكثيف تدارى فيها وخلع قميصه ونزل البحر بعد أن فرش قميصه فوق نجيل البوص لأقعد عليه .. دخل المياه حتى آخر طوله ثم غطس طويلاً فخفت عليه وناديته بأعلى صوتى :

- آبه .. آبه ..

وكانه سمع صوتى فطلع من تحت الموج وأشار نحوى بيده :

- ماتخافش .. ماتخافش ..

هزّيت رأسى ووجهى ورفعت إليه يدي وكأني أقول له .. الله معك .. وفى قوة إخترق
أبى مياه البحر عائماً حتى وصل إلى وسطه ثم عاد .. وقف على قدميه حتى
غطت المياه قبل كتفيه وراح يتوضأ لقرب صلاة المغرب ولما إنتهى قال لي:

- تعال .. توضأ .. ها نصلّى هنا فى مصلية محمد الهلالى..
فقلت وأنا أطاوعه بعد أن توضأت وتبعته أهرول خلفه ونحن نقترّب من اللائى
يغسلن القمح :

- بيغنوا ..
- خليّهم يغنّوا الواحده منهم ما بتصدّق تبعد عن الشقا .. يغنّوا
ويستحموا ويغسلوا شعرهم بيعملوا كل حاجة .. أي واحدة
منهم بتروح لبيتها وهى على سنجة عشره ..
- وبيعوموا ..
- كلّهم متعلمين العوم من صغرهم دول ستات البحر .. أهل
البحر في كل زمان ومكان بيعكوا مع البحر كل حكاياته..
هو البحر بيتكلم ..
- يابنى طالما الناس بتقضى كل حاجتها في البحر بيقه البحر
بيتكلم ..
- مش فاهم أوى ..
- تعال نصلّى الأول ..

.. طلّعنا نصف منزل عامر وكسرنا على الشمال نقصد المصليه وقبل أن نصلها
صدح آذان المغرب فوق موج البحر من مآذن هيت وكان أقواها صوت الشيخ محمد
قنديل مقرئ قرآن هيت .. كان جميلاً أن يختفى قرص الشمس فى نهاية أفق السماء
ناحية الغرب ومعه تكسو أمواج البحر الهادئة بلونها الرمادى سطح البحر الذى
يغيب عن شمس النهار ويأتى بعدها ضوء النجوم أو ضوء القمر فى لياليه وفي كل
حال يمرح السمك فى الأعماق وتدخل مراكب الصيادين مخترقه المياه الساكنه
بطبولها فتدخل الأسماك الشباك فتعلو طبول المراكب ..

.. وكنا قد صلينا ولم يصلى معنا أحد وكنت لا أريد أن أذهب مع أبى آه لو أظل هنا حتى ينتهى دق الطبول ولما أحس أبى برغبتى قال :

- تعال بكره نيجى نصلّى هنا وتسمع تانى .. ما انت فى البلد بتسمع حاجات كتير ..

- فى البلد باسمع صفاره مكنة الطحين ..

- طيب يعنى فى كل حته بتسمع.. دق الطبول ولأ صفارة المكنه

..

- صفاره المكنة فيها القمح والطحين ودق الطبول .. وسكت ..

- دق الطبول فيها ايه ..

- فيها السمك والبحر والصيادين ..

وصعد أبى تنهيدته عميقه وهز رأسه وتركنا البحر إلى دار الغيط مارين بغيطان وزرايب أعمامى، وكان الصمت والخلاء يخيم مرابطهم حيث انصرف الجميع إلى دور البلده، إرتدى أبى جلبابه وحذاءه وجهز رجب مقطف حاجيات الدار ثم حلّ الحماره من مربطها وسحبها إلى مصطبة المدخل ليمتطى أبى ظهر دابته وفي خفه قفزت خلفه.. وبصوته الأخنف الرخيم وهو يسوق الحماره بعصاته إلى السكه:

- عايز حاجه يا رجب.. خلّى بالك من الدنيا حواليك ..

- حاضر يابه الحاج ..

وراح أبى يدندن بآيات القرآن المجيد وكلما وجد الطريق خالياً رفع صوته، وعند قنطره بركات أنسى سكت أبى قليلاً وضرب بطن الحماره بقدميه حتى تسرع وقال جاهراً :

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وكررها ..

إرتعش جسدى واحتضنته وكأننى ألوذ بظهره فقال كأنه يهْدئ من روعى :

- إيه مالك ..

- شعر راسى قشعر ..

- ليه ..

- لما قلت أعوذ بالله من الشيطان .. فيه إيه يابه .. إنت كل ما
بتيجي هنا تزرق وتقول كده فيه إيه ..
- إنت عارف الدور دى اللّى أدا منا ..
- أيوه ..
- من زمان مش بعيد أوى .. وسكت ..
- أيوه من زمان إيه ..
- فيه راجل هنا وابنه قتلوا إبنهم ورموه هنا فى الترعه لّما طلعت
روحه ..
- يانهار إسود يابه هوّ فيه حد يقتل إبنه ..
- دى حكاية طويلة ..
- وبعدين يابه .. سابوه فى الترعة ..
- لأبعد ما سابوه شويه لّما فاضت روحه خدوه ودفنوه عند ساقية
هناك
- هناك فين ..
- كان فيه ساقية وزريبه مهجورين فى غيطهم اللّى رايح على
شروة حسن
- وبعدين ..
- دفنوه هناك .. ومن ساعتها ..
- أيوه أنا سامع ..
- من ساعتها ماحدش يستجرى يمشى عند الساقية دى بالليل
وإذا فات حد يجرى لأن كتير من الناس لّما بتفوت من هناك
بنتوه وبتتكعبل ويمكن تقع وماتقدرشى تقوم ..
- وإيه سبب قلبهم الإسود ده ..
- بركات أنسى ده من أقسى قلوب الناس إلّى اتخلقت على وجه
الأرض .. لا بيصلّى ولا بيصوم ولا بيزكى ويعتبر من جابرة
هذا الزمان حاش أرضه وعمل فلوسه كلّها وبنى دوره دى من

قسوته على كل أهل بيته .. الداردي ماتعرفش الرحمه من
الفجر يقوم الكبير والصغير يشتغل فى الأرض كل أنواع
الشغل .. وفى عز القياله والحر ماحدش يقدر يسيب شغله
فى البيت إلا إذا أمر هوّ بكده وبعد الشقا والشغل الجبارده
يطلعوا يتغدوا بتاو ناشف وجبنه حادقة وإذا طبخوا فى
الخميس يطبخو كرشه وخبيزه والخبز بتاو برضه وبيعد عليهم
البتاو وإذا حد قرص فى الأكل يقوله حاسب قوم كفاية روح
إشرب ميه من الطرنه ..

- يعنى أهل بيته كلهم شغالين وبس ..
- دول معروفين فى كل الغيطان بجبابره البصل ..
- يعنى إيه ..
- فى أول حياته كان الغموس بصل بس علشان يوقر فى الزاد ..
- إنت عارف الراجل ده ورث عن أبوه فدان واحد هوّ وأخوه ..
- بعد أبوه ما مات كرش أخوه ونشّعه من نصيبه ..
- إنت عارف دلوقتى عنده كام فدان ..
- كام فدان ..
- تمانيه ..
- إنت خدتنى بعيد يابه قتلوا إبنهم ليه ..
- علشان الواد قال لأبوه ماتنفعش العيشه دى حرام عليك قلل من
عذابك لينا وعايزين ناكل شويه دا إحنا ها نتجنن من كتر
الجوع ونشوفية البطن ..
- وبعدين
- أبوه زغده بقسوه وقال لأخوه ربّيه فقال لأبيه ننبهه الأول وبعد
كده إذا كررّها نربيه ..
- وبعدين

- الواد كررّها تانى وقال لأبوه لو ما عيشتناش زى الناس هاروح لخالى وكُبرات البلد أشتكيك ..
- والآخر إيه ..
- بركات أنسى ليه ولدين فيه واحد منهم قلبه قاسى زى أبوه ..
- فى يوم الراجل قال لإبنه خلّص عليه .. خلّصنا منه .. فقال له إبنه نضربه الأول .. فقال له لأ .. بالشمروخ وعلى راسه على طول .. الواد ضربه على راسه بالشمروخ كذا مرّة وبقوه الواد نزل يفرفر على الأرض مستغيث وراح يجعر بصوت عال .. فقال له أبوه ها تفضحنا يابن الكلب خلّص عليه فخلّص على أخوه .. قتله قتله بالشمروخ وكانت موته شنيعه وكل البلد عارفه الحكاية دى ..
- والبلد عملت إيه
- ولا حاجة .. كل واحد في حاله وقالوا كل واحد حر فى داره .. هو إحنا ها نحنن الراجل على ولاده .. إذا كان كرّش أخوه وأخوه غلبان راجل كبير بيشتغل بالأجره عند الناس ..
- ما حدّ بيقدر يقف قصاده ..
- طيب بس الراجل ده ممكن يقتل أى حد تانى ..
- علشان القرش والمعاش والأرض والبهايم ممكن يعمل أى حاجة ..
- إنت يابه راجل أزهرى ليه مابتوقفش الراجل ده لأنه ممكن يقتل ولاده كلهم ..
- يعنى أزهرى أدخل نفسى مع راجل مايعرفش ربنا ..
- ماخدتش منه أى موقف وغيرك عمل إيه معاه ..
- موقفى إن ما بكلموش وكل ما شوفه أقول حسبى الله ونعم الوكيل ومن وقت للتانى أقولُه صلى .. صوم .. إعرف ربنا شويه ..

- بيقولك إيه ..
- ينظر إلى شذراً ويقول .. خلينا الصلاه ليك يا حداد ..
- عايز أشوف الراجل ده ..
- هو في هيئه الجبار .. وجهه كوجه الشيطان عيناه تكاد تقفز من وجهه من شدة تبريقها وله عين عوراء ولكنه يرى بها ..
- طويل يرتدى جلباباً على العرى صيف شتاء يلبس طاقيه فوق رأسه مزينه فيها كثير من البراغيت والقمل كل شهر يستحمه في الترعه ولا يستخدم أى نوع من الصابون إنه يدعك جسده ووجهه ورأسه بطين الترعه .. وكثيراً ما يستحم في هري الطبلية ..
- يعنى إيه هري ..
- يعنى بير الساقية ..
- وآخرتها مع الراجل ده ..
- الناس كلها ضاربه بيه المثل وسايباه للزمن ..
- بس دى حاجة صعبه أوى ليه بتحكيها لى ..
- علشان تبقيه على وعى من الناس ..
- أنا خايف
- إمسك فيّه ..
- أدخلت رأسى فى ظهر أبى وأغمضت عينى ولففت ذراعى حول جسده وكما يقال عبطته ..
- وراح جسدى يرتعش ولما شعر بمدى خوفى قال :
- طيب ماتزعش .. هاحكيلك حكايات تانيه عاديه ..
- مايكونش فيها قتل ولا هري ولا جبار زى بركات ..
- شايف على اليمين ..
- دى دار مين ..
- دى دار أمين الكيلانى

- ليه صلة بستيته الكيلانيه ..
- أخوها
- أنا مش ناقص غم يابه ..
- لأ ده راجل غلبان طول وقته ليل ونهار عيان من كتر الدخان
- أنا عايز أسمع حكايات ناس أصحاء ..
- شوف يا حسن المجتمع مليون حكايات ..
- ودا حكايته إيه ..
- سامع السُّعال .. سعاله علامه من علامات سكة مريان ..
- طيب ليه مايبطلش دخان
- مراته آيه من آيات الجمال ومستحملاه ..
- ليه بيروح للنار ويسيب الجمال ..
- فيه ناس بتحب تروح النار بإيديها ..
- دا عامل زى سيد حجاج شريب الجوزه
- أبوه زيّه بس أمين بيحب أمه ومابيضر بهاش .. إنت عارف أم
- أمين تطلع مين ..
- هَي أخت تهاى أبو عافيه ست ما تسمع ليها حس وخَلَفَتْ
- أمين ..
- يعنى البطن بتجيب الشيطان وبركات وبتجيب برضه أم أمين
- ..
- وانت ليه ما بتنصحش أمين يبعد عن التدخين ..
- نصحته كتير وكل واحد ليه كتير زنانين ..
- يعنى إيه ..
- كل واحد ليه ميت منادى فى دماغه
- طول الليل بيسعل كده ..
- طول الليل ما بينامش "أدان الفجر بيخليه ينام شويه ولَمَّا
- الشمس تطلع يقوم جنب الراكيه يعمل شاي ثقيل طول النهار

وَعَمَّالٌ يَتَفَرَّجُ عَلَى السَّكَّةِ وَعَلَى النَّاسِ وَالِدُخَانِ طَالِعٌ مِنْ
مَنَاخِيرِهِ طَوَّالِيٌّ وَنَازِلٌ تَأْمُلُ فِي النَّاسِ كَأَنَّهُ بِيَكْتَبِ حِكَايَاتِ
النَّاسِ فِي دِمَاغِهِ ..

- مَا بِيَسْتَتَغْلَشُ ..
- مَا يَقْدِرُشْ يَشْتَغِلُ .. مَرَاتِهِ وَأُمُّهُ وَبِنْتُهُ هَمُّ اللَّيِّ بِيَزْرَعُوا وَيَقْلَعُوا
وَيَطْبَخُوا وَيَخْبِزُوا ..
- وَهُوَ رَاضِيٌّ عَلَى نَفْسِهِ ..
- كُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبُ كَيْفٍ مَشْ دَارِيٍّ بِالدُّنْيَا حَوَالِيهِ وَرَاضِيٌّ عَلَى
نَفْسِهِ الذَّلِّ وَالضَّعْفِ ..
- وَفِيهِ كَثِيرٌ فِي الْبَلَدِ كَدُهُ ..
- أَيْوَهُ فِيهِ .. فِيهِ بَنَاتٌ بَتَتَجَوَزُ عُلْشَانَ تَبْقَهُ لِيَهَا بَيْتَ وَخُلَاصِ
بِيَقَعُ نَصِييِبُهَا فِي رَاجِلِ صَاحِبِ كَيْفٍ وَبِتَسْتَحْمَلُ عُلْشَانَ
الْعَيْشَةِ وَوَلَادَهَا وَتَكَافِحُ لَيْلٍ وَنَهَارٍ فِي الْغَيْطِ وَالْدَارِ ..
- يَعْنِي الْكَيْفُ فِي بَلَدِنَا آفَهُ كَافِيَهُ نَاسٌ كَثِيرٌ ..
- الْكَيْفُ وَهُمْ مَوْقَعُ النَّاسِ فِيهِ وَنَاسٌ كَثِيرٌ فِي الْبَلَدِ عَلَى شَاكِلَةِ
أَمِينٍ وَأَبُو حَجَّاجٍ ..
- مَا أَنْتَ يَا بَهْ بِتَشْرَبُ جُوزَهُ ..
- دَا كُلِّ فِينٍ وَفِينٍ ..
- دِي مَعْنَاهَا مَا نَرُوحُشِ الدَّكَانَ وَمَا بِيَقَاشُ لِيَّ شَلَهُ ..
- خَلَّلِيَّ عَمْرِي مَا هَا قَوْلُكَ نَرُوحُ الدَّكَانَ ..
- عَلَى فِكْرِهِ مَرُوحَانَا الْغَيْطُ هَا يَحُوشُ عَنِّي حَاجَاتُ كَثِيرٍ ..
- وَيَعْنِي إِيَّاهُ شَلَهُ .. كَلَامُ وَحْدِيَّتِ ..
- وَاللَّهُ يَا حَسَنُ أَنْتَ لَوْ بَصَّيْتُ فِي شَلِّ بَلَدِنَا تَلَاقِيَهَا كُلَّهَا فِي
قَطْعِ جُدُورِ النَّاسِ وَكَلَامِ وَحْدِيَّتِ وَنَمِيمِهِ وَخَبِصِ مَا بِيَنْتَهِيشِ
..
- هَيَّ زِي الْكَيْفِ ..

- الكيف فى بلدنا فى الدكاكين .. داء عند الناس لو مارحش
الدكان تبقة دماغه ناقصها كثير .. ودا من زمان يا حسن..
- ياريت الناس تورث حاجة حلوه ..
- لازم من التغيير إذا كانت الدكاكين والكيف جابت للناس
الضعف والخراب وهو ده ميراث من سنين بيقه لازم كل
الدكاكين تنهد ..
- لازم تنهد والناس تبدأ من جديد ..
- بس إزأى ..
- إبدأ إنت يابه ..
- ما قدرش لوحدى لازم كل الناس معاه ..
- إنت عارف مين اللى عمل الحكايه دى لوحده ..
- مين ..
- بركات أنسى أحسن راجل فى البلد فى إنتاج الأرض زراعه من
حديد وأهل بيته كلهم شغالين ومافيش دكاكين .. إينه اللى كان
هابيقه بتاع دكاكين قتلوه ..
- بس ربنا مش عايزنا نقتل ولادنا .. مافيش حد فى البلد ميه
ميه ..
- لأ فيه .. لما تكبر هاتلاقى ناس فى البلد كويسين ..
- بكفاية يابه أنا تعبت من حكاياتك ..
- لازم أكمل لك كل الدور ..
- إحنا وصلنا البلد .. بس إنت يابه بتقولى تاريخ كبير أوى
وتعرفنى كل الدنيا حواليه وأنا فى المدرسه لغايه دلوقتى
ماعرفتش أى حاجة ..
- ليه يابنى البركة فى المدرس بدر والمدرس جروان ..
- أهّمه دول من ضمن خراب الدنيا حواليه.. هم دول اللى
خلونى أكره المدرسة أنا وتلاميذ كثير ..

- إنت عارف يا حسن أنا إتعلّمت فين ..
- عارف فى مدرسة البلد ورحت الأزهر فى مصر سنتين..
- أنا اللّى علّمت نفسى ..
- بس إنت مش عالم وما تعرفش حاجة فى العلم ..
- أنا إتعلّمت التاريخ .. والتاريخ دايماً بيسبق العلم ..
- على فكره على إيدك بقيت مدرس تاريخ ..
- ولازم العلم يابنى ..
- بعدين لما أروح مدرسة تانيه غير بتاع صبحى ..
- تبقة لازم تهاجر من البلد لما تكبر .. لأنك لو الناس عرفوا
- إنك هاتبقة عالم هاكرهوك أو يقتلوك ..
- المفروض الناس تفرح بالعالم والشاعر وكاتب التاريخ..
- شنشور بلدنا مابتحبش ولادها .. إنت عارف لما تكبر وتقرأ
- كُتب الكرتونة وتقول للناس أنا قريت كام كتاب فى التاريخ
- والأدب الناس فى بلدنا تعمل إيه فيك ..
- هايعملوا إيه ..
- مش هايسيوك وبهزؤوك ويسخروا منك.. ولما تكبر زى ما
- قلتك هاكرهوك ..
- بيقه بلاش أقول ..
- إنت شكلك كده يابنى مش بتاع بلدنا ..
- أنا فعلاً زهقان من البلد .. بس عايز أسمع كل حكاياتك عن
- كل دار فى البلد ..
- هوّ دا اللّى ها قدر أدّيهولك ..

"أبى ليس حكيمًا ولكنه"

كان أبى حكيمًا يريد أن يصلح أحوال الناس ولكنه غير واع بأحوال نفسه، يريد أن يضع حدًا لكل معتد أثيم ولا يعرف أن ذلك تعدّ لشئون الناس فى هذا الزمن الظليم، أحياناً يقول دع الخلق للخالق ولا يقترب من أحد فى شئونه وأحياناً أخرى يمسك بالشمروخ ليضرب عيال البر الذين يذهبون إلى البر الثانى، وقد كان لفكرته أن يبنى دورًا للصيادين فى برهيت ظانًا منه أن ذلك يمنع الفجور وأن يجعل الناس هناك أتقياء وأقوياء، وكيف له من مال حتى يغنى هؤلاء الصيادين ويفقر نفسه ومازال لأولاده شوط كبير فى الحياة لينفق عليهم، بدأ الناس فى الملاء والعزبه البحرية يتكلمون عن الرجل وأنه أولى بمساعداته فقراء كثيرين فى ناحيته وذهب منهم إلى أخوته دردير ومحمود يشكون حالهم وأنهم أولى من أهل هيت بالمعروف.. وراح كل من محمود ودردير يعقدون الجلسات للتحدث فى شأن وأحوال حداد وعقدا العزم فى مفاتحته وتنبيهه، ولما بدأت أنضج وأفكر وأسأل وأعى بالتصاقى ومجاراة أبى فى كل مكان يذهب إليه راحت رأسى تمتلئ بكل ما يحدث فى بيتنا وغيطنا وحكايات بلدنا عن الناس الذين يسكنون على جانب الطريق الموصل إلى الغيط، وكان من أمتع الأوقات كل مساء أن يأتى لزيارتنا الحاج أمين أبو عافية ليجلس مع أبى فى المندره بعد صلاة العشاء فى المسجد، ولم يكن يصلى كل عشاء فى مسجد أبو عافية المجاور لبيتنا، فإذا صلّى فيه وهذا ما يحدث فى معظم الليالى جاء إلى أبى يجلس معه بعض الوقت ليتكلّمًا عن أحوال الدنيا حولنا ثم يذهب إلى بيته، وكان هذا الرجل يحمل شهاده أزهرية فى وقتها كانت تعتبر شهاده كبيره ولأنه يعرف كثيرًا فى الدين فتم تعيينه منذ سنين مآذوناً لقريتنا، وفي كل ليلة يأتينا يطرق باب بيتنا الكبير فى رقة بالغة فأجرى خلف الباب كعادتى مع كل طارق لأقول :

- مين

- مين

وأكرّر مين .. فيقول مين .. أنا أقول مين وهو يقول مين .. فجريت إلى أبى فى المندرة لأقول له .. راجل بيخبط أقولّه مين يرد على بنفس الكلمه مين .. راح أبى يضحك بصوت عال ولما إنتهى قال طيب روح أفتح علشان تشوف مين وانقلبت إلى

الباب وفتحت السقاطه الحديديه وإذا بى أجد صديق أبى .. عمى أمين.. وراح عمى أمين يضحك ويقول وهو يدخل :

- بسم الله مجريها ومرسيها ويكررها حتى دخل إلى أبى وقال وهو يضحك شفت بقه يا حداد ضحكت على حسن إزاي .. جلس مقابلاً لأبى والدم يئك من وجهه الأبيض النحيل .. كان قصيراً لكنه شديد القوه ربيعاً لكنه ناشف العصب .. يرتدى ثياباً نظيفه ويضع فوق كتفيه حراماً يتدلى من الأمام والخلف حتى منتصف جسده يرتدى حذاءً نظيفاً لامعاً وفوق رأسه عمامته الحمراء الزاهيه وشالاً أبيضاً ناصع البياض يلف عمامته التى تطبق على رأسه النحيله فى شياكه وأبهه .. من أين أتى الرجل بهذه الملامح الجميله وهو من عائلة يعُهما سمرة الوجه وضخامة الجسد وفحولة الملامح وفلحنة اللكنه .. من هذا الرجل وكيف أتى إلى هذه العائلة الغشيمة .. وكلما أتانا جاءت أمى وبعدها أمى لبيبه ومن فتحه الباب تقول كل منهما لعمها أمين :

- إزيك يابه أمين .. إزى الحاجة

- كويس كويسه يابنتى ..

وتذهب كل منهما إلى أعمالها .. وكان عمى أمين شرّيب قهوة .. تعملها أمى وتدخلها أم إبراهيم فوق صينيّه صغيره ومعها كوب ماء .. ولم يكن أحد فى بلدنا معتاداً أن يشرب القهوة فلا تجد البن إلا فى بيوت قليلة وكانت أمى تعملها كويس لأنها فى بيت أبيها كانت تعملها لوالدها وضيوفه .. وكنت أعتبر الحديث بين أبى وعمى أمين زاداً لى .. أستمع اليه وأحفظ منه ما أستطيع من حكمة أو قول مألوف أو عرف جارٍ .. وكان دائماً يقول لأبى :

- خلّى بالك من الست بتاع تلوانه .. وحافظ على حسن

وماتخليهش يلعب مع العيال وخذ بالك من ولاد أبو عافيه ..

دول عالم ضلاليه ..

وكان أبى يقول له دائماً :

- إسأل حسن هاعمله إيه أكثر من كده ..

وكان عمى أمين يقول وهو يخرج من البيت فى أغلب زيارته لنا :

- يا أم حسن .. سلّميلي على الشيخ عفيفى شبايك ..

وكان الشيخ عفيفى شبايك زميله فى الأزهر وكان رجلاً صالحاً على شاكلته فى تلوانه والشيخ عفيفى هذا هو زوج خالة أمى التى أنجبت ولدان وابنه واحد منهما كان مدرساً فى كلية الشريعة ومتزوج من شرف عائلة مدكور باشا والآخر كان مديراً فى التربية والتعليم ومتزوجاً من الإبنه الوحيدة للشيخ طه الفشنى .. أمّا الإبنه فلقد حباها الله بزواجها من رجل القانون المستشار كمال الجرف وكان رئيساً لجهاز النيابة الإدارية فى كل مصر .. وهو من رجالات تلوانه الكبار .. ولا أريد أن أسهب فى القول عن أهل أمى فأينما ذهبت كانت سيرتهم العطره وكان ذلك يزيد من معنوياتى قوه وأنه لا بد لى أن أكون شيئاً مثلهم .. وفى ليلة من الليالى جاءنى عمى أمين بكتاب مقطوع الغلاف وقال وهو يفتحه بين يديه ويقَلّب فيه موجّهاً كلامه لأبى :

- هذا كتاب فى الشعر الجاهلى كله قصائد وشعر لا يستطيع

غلام مثل حسن فهمه الآن .. هذا الكتاب لحسن .. قد ينفعه

.. لا أعرف لماذا أتيتُ بهذا الكتاب الآن وهو فى هذه السن

الصغيرة ولكن هاتفاً قال لى خذ هذا الشعر لحسن .. أخذه

أبى منه وهو يقوله له :

- طول عمرك راجل علم .. وراح يقَلّب فى صفحاته ويبتسم ..

وأقبلت إلى عمى أمين بقوه واحتضنته وقبلته وشد على جسدى بيديه .. وقال وكأنه

يحلف .. حسن أغلى واحد عندى بعد ولادى يا حاج حداد ثم أردف .. بعدين لما

تكبر تقراه يمكن يفيدك ..

وتتحنح أبى وقال :

- كويس إننا بنتكلم ونتفاهم فيه ناس فى البلد لا بتعرف تتكلم ولا

تتفاهم .. ومجيتك عندى فيها منافع للناس .. وسكت ..

فأكمل الشيخ أمين :

- شوف أنا باقضى مصالح الناس فى علم القرآن .. أقصد فى التفسير والحديث والتجويد وشوف الناس مفكره إن أنا غنى علشان لابس نضيف وبتكلم مع الناس بلسان عفيف .. هى فعلاً الدنيا مظاهر وسكت الرجل لكنه كان حزيناً ..
- فيه حاجة يا شيخ أمين .. إنت باين عليك الزعل أوي ..
- أنا حزين ..
- فيه إيه ..
- الأرض شويه والمأذنه على أدها .. حتى الطرنه وقفت ومش قادر أصلحها ..
- طيب عايز إيه .. أنا أخوك الصغير .. أرجوك قولى ..
- أنا صرفت كتير على الولاد .. محمد خلص هندسه وعلى مدرس فى الحسينيه الثانويه بالعباسية وحسن بقه طبيب .. وسكت ..
- شوف يا شيخ أمين مافيش حد فى بلدنا علّم ولاده زيّك وصرفت عليهم كتير ..
- دا صحيح وده شئ جميل لكن العيال كل واحد إنصرف لحاله أوى وسابونى مرّه واحده بعد ما صرفت عليهم كل حالى ومالى عليهم وأدى إنت شايف ولاد هاده مبهدلني على ما آخذ منهم فلوس الإيجار كأنى بلم حق بيض ..
- مين مغلبك ..
- هو فيه غير عبدالنبي ..
- عبد النبي دا شكّل من الصبح شغال هو ومراته شتيمه وردح أجارك الله .. هو باق كم عنده من الإيجار ..
- خمسة جنيه ..
- طيب خدهم مَنى ولما يجيب على مهله آخذ الخمسة جنيه..
- لا والله .. تبقة قعدتنا ولقانا الصافى مابقا ليها معنى ..

- اللّٰى يريحك مش هافرض عليك حاجة .. طيّب نصلّح الطرنبه ..
- معاك شوف واحد يصلّحها وبعدين ياخذ الفلوس على ما يجيب عبدالنبي ..
- عبدالنبي سكته ششم وتته الششم على عينه لّما عينه ورمّت من كتر الفقر والقهر ما إنت شايف المنديل اللّٰى رابطته بين عينيه على طول .. إنت عارف أول ماباشوفه أقول أعوذ بالله من الفقر والقهر ..
- شوف .. الفقر مش عيب والقهر على الفقر برضه مش عيب والناس كلها فى البلد زعلانه على فقرها .. لكن المشكلة الشتيمه والقباحه مع مراته دور ومع جيرانه دور تانى .. آه من عبدالنبي دا بيتخانق مع طوب الأرض..
- والحل إيه ..
- لو يصلّى ويعرف ربّنا شويه أكيد أخلاقه ها تتعدل ..
- فيه ناس كتير فى البلد أسخم منه لكن عارفين ربّنا .. فقر وجهل وقهر لكن القرب من ربّنا بيّنور العقل ويخلّى السكك مافيهاش كعبله ..
- خلاص أنا هاقوم ..
- طيّب سيبنى أتصرف يا شيخ أمين ..
- إرّاى ..
- إنت عارف فى بلدنا واحد بتاع طرنبات .. غريب شخيه لكن المشكلة إنه جفيط ومش نضيف فى شغله ..
- طيّب نجيب مين ..
- هاجيب عبدالسلام بتاع كفر الخضره ومالكش دعوه بحسابه دلوقتى أنا لى معاه معامله
- طيّب يابو حسن .. أنا عارف إن سرى فى بير ..

- ياريتك جيت فى حاجة جامده .. عيب يابه أمين أنا بحافظ على سر الألاضيش .. إنت قلبي يابه أمين .. وسكت أبى ثم طفق بسرعة قبل أن ينصرف عمى أمين :
- قوللى عايز أطمئن .. محمد مهندس فين ..
- فى سنترال التليفونات
- واتجوز منين ..
- من مصر .. إتجوز بنت مدير السنترال ..
- وعلى إتجوز مين ..
- ما انت عارف .. إتجوز من سبك وماخلفش منها .. مدرّس فرنساوى ..
- طيّب كويس أوى .. وحسن فين ..
- اتجوز من اسكندرية بنت واحد لواء .. وانت عارف إنه طبيب جلدية وتناسليه ..
- على فكره ولادك كلهم مالهمش فى البلد ..
- ولا يعرفوا يتعاملوا مع بتوع العيله .. أنا كنت معجون فى الطينه ومعاهم وواحد جنب منهم ويدوبك مخلص نفسى معاهم ..
- إنت عارف كل المشكلة فى إيه .. إن الناس بتتعامل ببطنها وفرجها ولاغيين العقل خالص ..
- من يوم الدنيا ما طلعا فيها وهى كده .. مش كل الناس عندها عقل .. لأن الناس ليس فيهم خاصه إلا قليل، غالبية الناس يعيشون فى العموم فى الخبيز والطبيخ والطحين والأرض والطين ..
- .. هز أبى رأسه وقال مقتنعا بكلامه فى عبره :
- ولذلك قال الله فى كتابه الكريم .. ومن أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا .. صدق الله العظيم ..
- الله يرضى عليك .. قعدتى معاك بنص البلد ..
- وانت فى بيتى كل ليله كأن نور العقل جوايه ومايبسبنيش ..
- .. وهّم عمى أمين بالخروج وألقى السلام على أبى مودعاً وكالعاده هرولت أمامه لأفتح له الباب وطفق يقول مداعباً مثل كل ليله :

- عرفت بقة مين بيقه مين ..
- خلاص عرفت بيقه عمى أمين ..
- تنقه تفتح على طول وبلاش شقاوه معايا يا أمير ..
- خلاص ياعم أمين .. إوعه ماتجيش بكره ..
- هاجى عشان خاطرك يا حسن ..
- .. ولما دخلت المنذرة على أبى وجدته ممدداً على الكنبه ويقول .. آه يا ضهرى..
- وسرعان ما دخلت علينا أمى لبيبته وقالت له مَهْزَره :
- بسرعه كده جالك ضهرك ..
- .. يضحك أبى فى خباثته وهو ينظر لى ويقول :
- خد أمك لبيبته عتّى يا حسن
- طيّب تعالى سيبه ..
- علشان خاطرك هاسيبه يا حسن وعلى العموم أنا ريحه أنام فى القاعه ..

فقال لها أبى :

- والعيال
- نامو
- وأم حسن
- مع الملائكه من ساعه ما دخل عمى أمين ..

"طرنبه عمى أمين ونسوان الصيادين"

الظلمه التى تخرج المياه ليشرب منها الناس فى الغيط والدار يطلق عليها الجميع الطرنبه .. ولما كانت أتعاب المأذون فى هذا الزمن قليله وقطعة الأرض التى يمتلكها الحاج أمين بينشف ريقه على ماياخذ ايجارها من قريبه المقهور على نفسه عبدالنبي هاده .. وكما يقولون مال عليه الزمن شويه وأى إنسان فى حياته لازم يميل عليه الزمان بشدته وقسوته وقالوا الفقر مش عيب ولكن القهر عليه أكبر عيب ولازم الإنسان يستعين بالله علشان يقدر يعدى شدة الزمن .. خاصة وأن عمك الحاج أمين صرف دم قلبه على عياله وكان أول واحد فى بحرى البلد يعلم ولاده أوى بعد ولاد عبد البر فى كفر البلد ..

.. لم يكن أبى يضل الطريق إذا ما عرف أنه يسير فى إنجاز العمل للخير فما باله إذا قام بعمل الخير مرة واحده لهذا الشيخ الكريم .. ولم يكن عمى أمين قريباً لأبى مباشره ولكنه من العائلة، وكانت المحبه بينهما منذ الصغر رغم أن الشيخ يكبر أبى بخمسة وعشرين عاماً، بعد صلاة الفجر فى اليوم التالى ركب حمارته قاصداً كفر الخضره التى تقع يمين كوبرى البحر بعد تعديه قرية قلتي .. وقبل أن تطلع الشمس كانت عصاه أبى تدق باب بيت عبدالسلام مصلح الطرنبات.. ردّ عليه من الداخل :

- مين

- حداد

- حداد مين

- حداد بتاع شنشور

- دقيقة واحده يابه الحاج ..

خرج إليه عبدالسلام فوجد أبى يربط الحمارة فى فرع شجرة، حمل عبدالسلام حصيرته وفرشها بجانب بابه وقال فى طراوة أهل الخضره :

- تعاليه تعاليه يا عم حداد ..

إن أهل الخضره وكفر الخضره يمدّون فى الياء والألف .. إن كلامهم ممدود مفتوح فيه طراوة وهذه لهجة تخصّهم فإذا طلعت الكلمات من فم رجل قال عنه أهل شنشور الذين يُعرفون بخشونتهم .. إيه الراجل المايح ده .. وإذا سمعها رجل من امرأة فى

كفر الخضره قال .. ياسلام على طراوة الستات فى البلد دى .. ولكن هذه لهجتهم، إن إختلاف اللهجات أو مخارج الحروف من قرية إلى قرية فيه جمال وخاصة وصفه تلتصق بهذه القرية عن غيرها والجميل أنه من السعادة يحكون بها عندما يتكلم أهل قرية وأهل قرية أخرى يسمعونهم أو يحكون عنهم .. إنَّ فى إختلاف اللهجات ومخارج الكلمات من أهل قرية إلى أخرى لهو مثار كلام وهزار ومتعه تسعد أهل القرية المجاوره لها .. إذا جاءك صوت من بعيد لسوف تقول .. هذا من تلوانه وهذا من شنشور وهذا من هيت وهذا من الخضره وهذا من مجيريه .. اللغة الواحده فى بر مصر كله واحد ولكل قريه أو مدينه فى بر مصر لهجه ولكل مخارج كلمات إختلاف بَيْن من قرية لأخرى أليس فى هذا الإختلاف جمال وحكايات ورحمه تَحُص مكان عن آخر .. وكان أبى يبتسم وهو يجلس مع عبدالسلام أمام باب بيته .. شربا الشاي ووعدده مصلح الطرنبات أنه سيكون عند طرنبة الشيخ أمين قبل الظهر بقليل .. وركب حمارته باسم الوجه ليخرج من قرية الكلمات الرقيقة وكان يهوى مناغشه ومحادثه كل من يقابله من رجال وشباب ونساء حتى يسمع كثيرا من مخارج كلماتهم :

- سلام عليكم ..
- سلام ورحمة الله ياعم الحا الحاج ..
- صباح الخير يابنتى
- يسعد صبا با حاك يابه الحا الحا الحاج ..

ويبتسم ويسعد لما يسمعه من طراوة مد الحروف من رجل ويسعد أكثر لَمَّا يسمعه من صبيه .. ولَمَّا كان يقترب من كوبرى قلتي سَلِّم عليهم وصَبَّح على كل من قابله ليستمتع بلهجة أخرى تختلف .. بعدها دخل أبى زمام شنشور فقال فى نفسه.. إرحمنى يارب من بلد الرِّق .. إرحمنى يارب من اللّى بينطحوا وراح يضحك كَلَمَّا وجد الطريق خالياً .. عرج على بيته ليطمئن وهو مَمْتطياً لدابته ثم مشيت به الحماره قليلاً حتى دخل باب سور جنينة الشيخ أمين فإذا به يجده جالساً تحت ظل شجرة الجوافه ومعه عبدالحميد أبو طنش خادمه، هذا الخادم يعمل منذ ثلاثون عاماً فى بيت الشيخ .. يسترزق من الطرنبه ويزرع الأرض التى يلفها سور الحديقة وهى قرابة

سبعة قراريط .. يزرعها خضره .. كوسه، طماطم، فجل، جرجير، بامية، ملوخية،
باذنجان .. وكان فى هذا الوقت أن كل من يمتلك طرنبه ويملاً الناس منها المياه
النقيه يدفع أجرته كل يوم أربعاء .. وكانت الأجرة رفيف عيش قمح وشوية بتاو ..
عبدالحميد خادم طرنبة الشيخ يجلس بجوار الطرنبة ليأخذ العيش والبتاو من النساء،
ولماذا الأربعاء .. إن الدور فى قرينتا جميعها تخبز يوم الأربعاء منذ زمن طويل ..
هو يوم الخبيز والخميس هو يوم السويقه وهما أيام العيد والهيصه فى قرينتى ..
يجمع عبدالحميد مالا يقل عن أربعين رفيفاً ومشنة كبيرة من البتاو .. الرفيف
مخبوز من عجينة القمح والبتاو معجون من عجينة الذره .. وبعد المغرب من كل
أربعاء يدخل عبدالحميد الإيراد من عيش وبتاو فى غرفة صغيرة منفصلة عن البيت
ليأخذ الشيخ حاجته من خبز ويعطى ما تبقى وهو الكثير لعبدالحميد ..

.. كانت زوجة الشيخ أفرنجى لا تعرف كيف تخبز وكان يقضى لهما حاجة الخبيز
فى الأيام الأولى من حياتهما مرات عبدالحميد أمينه ولما ماتت منذ سنوات قليلة ..
كانت مشكلة الخبيز تؤرق الشيخ فاضطر أن يأخذ من الزاد ما يكفيه هو وزوجته
ولكن دون أن يشعر به أحد ولم يكن يعرف هذا غير خادمه عبدالحميد أبو طنش،
وفى ليلة الأربعاء هذه يجمع عبدالحميد كل أنواع الخضار فى أشولة من حديقه
الشيخ لينزل بها صباح الخميس هو وابنته إلى سويقه الخميس لبييعها ويأتي بإيرادها
لسيده الذي يناوله أجرة الجمع والمشال والبيع، وكان الشيخ حريصاً على أن يشتري
الطيور بنفسه من البائعات الفلاحات وهن ينزلن إلى السوق وحريصاً على شراء
اللحمة بنفسه من السويقه .. أبلغه أبى بموعد مجئ مصلح الطرنبات فشكره الشيخ
كثيراً وقال له :

- كده كتر خيرك روح بقه غيطك شوف مصالحك وهاجيلك
بالليل ..

كان حديث دردير ومحمود كثيرًا كل يوم عَمَّا سيفعله حداد فى البر الثانى وأن هذا ليس طبيه أو عمل خير ولكنه عبط، وحثَّ محمود دردير على أن ينصح أخيه فى أن يرجع فى هذا الموضوع وأنه يعمل فى ناس ماتستهلش والخير مايتعملش بالطريقة دى ولكن دردير لم يسمع كلام أخيه لأنه لن يقدر على حداد وقال لمحمود :

- حداد مش هايسمع كلامى .. قوله إنت ..

هزَّ محمود رأسه كناية على أن دردير لا ينفع فى شئ وقال له :

- طيب أنا هابت له بالليل لما أروح ..

- تحب أكون معاك .. بس مش هاتكلم ..

- اللى إنت عايزه يا دردير ..

.. لم أترك أبى وكنت ملاصقًا له فى أى مكان يذهب إليه .. حبى له كان شديدًا وملازمتى له فائده كبيره لأعرف هذا العالم فى قرىتى .. تعودت على الصمت والإستيعاب نشأت على أن أشتري ولا أبيع وكانت رأسى قادره على إستيعاب الكثير، ولما بدأت أكبر وزاد صمتى مع هدوئى الشديد وتأملى الذى لا ينتهى كان بعض الناس حولى يقولون عنى أننى تربيه مره "إمرأه .. تربيه أمى وكنت أسمع ذلك بأذنى من نجيب درويش وغنيمه وغيرهما، وكان ذلك يزدنى إصرارًا على أن أكمل حياتى كما هى، ولكن فى حقيقه الأمر أننى تعلّمت كل شئ من أبى واستوعبته ولولا ملازمتى لأبى ومعرفة كل الأشياء فى الدنيا حوله لكنت غيبًا، هو الذى علّمنى وأطلعنى على كل الأسرار الخاصة به والخاصة بالناس لكى أكون قويًا فى المجتمع الذى أعيش فيه، وتعلّمت من أمى عزة النفس والنظافة والنظام وكثير من أصول الأدب، وكانت قرىتى فقيره فى تعليم أطفالها هذه الصفات فالولد أو البنت ينشأ شيطانى .. وهى التى حافظت على من أولاد الشارع وكانت تقول لى دائمًا :

- الأولاد هنا هوجه فى فوضى ولكن فى بلدى كل بيت له

صفاته فى تربيه أبنائه..

.. ولم أكن أفهم كل ما تقوله .. وكان ملازمتى لأمى وهى تزور أهلها فى تلوانه أفادتتى فى أن يكون لى هدف وأن فى الكتب الكثير منذ أن رأيت عمها المستشار وهو يقعد إلى مكتبه .. كان شئ يكبر فى داخلى عرفت بعد ذلك أنه الطموح،

وعندما كنت إعدى البحر فى مركب مع أمى إلى بر تلوانه كنت أشعر بأنه يجب على أن أشق بحورًا حتى أصل إلى ما فى رأسى من أفكار طموحه وتطور هذا الشعور من سنة لأخرى.. وكنت أشعر أيضًا بأن مياه البحر الأعمى تغسلنى من أى شئ عالق فى نفسى ولا أحبه .. كانت مياه البحر الهادئة ومدى البحر طولاً وعرضاً أمام عيني كأنه المدى الكبير الذى لا بد أن أعبره .. ولكن أى مدى وأى طموح وأى مشاعر كثيرة تلقنى وأنا أعبر البحر وأعود أيضًا إلى قريتي عبر البحر .. وفى كثير من الأحيان كنت أبكى لشعورى بضعف شديد وعدم قدرتي على عمل أى شئ حتى الآن .. دعونى أنسى ما حدث فى الصف الثانى والثالث فى مدرسة صبحى .. إنها أيام مثل المعجزة معجزة الطينه الملبّخه أو هباب محمه الفرن .. أيام كلها حزن على واقع مؤلم من مدرسين وتلاميذ وفراشين، واستطعت أن أحافظ على مكنون نفسي وأن أدافع عن كيانى إلى أن جاء العام الدراسى الرابع والذى فيه أبلغنا الرجل الأمين .. أمين أبو عافيه والذى جاء خصيصًا فى هذه الليلة إلى بيتنا ليقول لى ولأبى :

- مبروك يا حسن .. القبول الإبتدائي هذا العام من سنة تالته ..
إنت فى سنه كام..

فقال له أبى :

- يعنى إيه ..
- يعنى أى تلميذ عايز يقدّم فى القبول من سنه تالته يقدّم المهم
ينجح ..
- طيب دا خبر كويس أوى حسن فى سنه رابعه ..
- من بكره يا حاج إعمل التقديم لحسن .. وأنا هاجيب له المدرس
إللى هاينجحه
- مين هوّ المدرس ..
- عبدالمحسن دردير الشيخ أحمد
- كويس إنك قلت لنا بدري ..

.. انصرف عمى أمين فى هذه الليلة وأبى جد مسرور بهذا الخبر ولما أفهمنى أبى شعرتُ بأننى أطير من الفرح لخلاصى من مدرسة صبحى .. وفى أيام قليلة جاءنى عمى أمين بكافة الملخصات للمواد التى فى برنامج امتحان القبول لمن يؤدون الإمتحان فى السنوات البدرية قبل أن يصل التلميذ إلى الصف السادس .. وفى هذه الليلة أخرج أبى محفظه نقوده ليحاسب عمى أمين قائلاً له :

- ربنا يجازيك خير .. بكام يابه أمين الكتب ..
- كويس عايز تحاسبنى ..
- طبعاً كفايه تعبك ..
- طيب إنت صلّحت الطرنه بكام اللى فات عليها سنتين ومش راضى تاخذ فلوسها ..
- ياه إنت لسه فاكّر ..
- طبعاً .. الله يكفيك يا حداد .. جه وقت رد الجميل .. قولّى الله يرضى عنك ..
- خمسين قرش ..
- الكتب دى كلّها بخمسه وأربعين قرش .. بيقه ليك خمسة صاغ ..
- ياه على الدنيا الحلوه اللى معاك .. أول مرّه فى حياتى يجيلى خير من حد فى أبو عافيه
- وما تنتظرش أبداً إنه يجيلك ..
- وهزّ عمى أمين رأسه وقال وهو يمد يده بالخمسة قروش :
- علشان خاطرى خد الباقي ..

.. لو عدتُ إلى الماضى قليلاً قبل عامين منذ أن وقع هدد البيت القديم وتحويل كثير من الطوب إلى البر التانى إنتهى مشروع أبى الخيرى بجلسه شديده وقاسيه مع إخوته محمود ودردير، وكان محمد سعيد أحد العمال المخلصين فى عمله عند أبى محمود قد جاء أبى فى ليله بعد العشاء ليخبره بعجل أنّ أبيه محمود يريد أبى فوراً، صرفه أبى وذهب إلى دار عمى وأنا معه كالعاده .. ولأول مرّه أقعد فى مندره دار

أبى محمود .. إنها ضمن أربعة غرف فخمة وصاله كبيره تتوسط تلك المنادر التى شيدت كلها من الطوب الأحمر وزين سقفها بخشب تحف أطرافه أشكال من فن الأرابيسك.. السقف من خشب الزان وأرضيه البيت كله إتكتست بأفخم أنواع ألواح الخشب .. كانت الجدران سميكة فى عرض متر وللمندره نافذتين كبيرتين طويلتين فى إرتفاع متران وعرض ثمانون سنتيمتر مترا من أمتن أنواع الخشب وأغلاه ولطول الشباك فإنه يفتح أو يقفل فى ثلاثة صفوف تعلو بعضها البعض شيش وزجاج ومفصلات معدنيه لامعة، وأنفقت كثيرًا من الوقت فى تأمل النوافذ والسقف وأرضية الغرفة التى فرشت بطاولات من السجاد القديم.. بابان للغرفة ممتدان لأعلى فى شموخ وضلفتان من الخشب الزان الثقيل تحضنان هذا العلو الفخم .. باب ناحية البوابة الكبيره للضيوف وباب آخر ناحية الدار القديمه .. بطول الغرفه ناحيه الشارع وقعت النافذتان وكنبتان مكسوتان بالقطيفه ومساند ومخدات زينت بأشكال تتعب عيناك فى تأمل هذه الأشكال التى زينّت بها المساند والمخدات وفى الجانب الأيمن من الغرفة وذلك هو الجانب الطويل الممتد خلف حائط الجيران تم رص سته كنبات بمساندها ومخداتها بنفس الطراز وبين كل كنبه وأخرى وضعت منضده صغيره أو كرسى خيرزان وفى الجانب الأيسر من المندرة ناحيه الأبواب تم رص ثلاث كنبات على نفس الشاكله .. وقرب الباب الجوّانى للمندره جلس عمى محمود وبالقرب منه عمى دردير .. وأمام الباب فى صالة البيت الكبيره .. جلس شعبان عامل الشاى وساقى الماء وحوله جلس عاملان زراعيان يحملان صينييه الشاى إلى داخل المندره ويساعدان شعبان أو ساقى الماء الذى يناول كل من يطلب الماء ماءً باردًا من عدة قفل وضعت فى صينييه من النحاس الأبيض، كانت التحية بين أبى وإخوته إذا تقابلوا أو قعدوا أو ذهب أحد منهم إلى دار الآخر هى القاء السلام ويجلس دون أن تسلّم اليد على يد أخرى .. وممكن أن يتصافحوا إذا كان يوم عيد إذا التقوا فى الدار أو الدوّار .. إلا أن عمى محمود عندما ألقى أبى السلام وجلس وأنا أهمّ بالجلوس فى جانبه مدّ أبى محمود ذراعيه لى وقال :

- تعال.. تعال .. عايز أحضنك ..

وكم سعدت بقوله واندفعت إلى ذراعيه التي أخذتني إلى صدره في حنو وطبطب
يكفى يديه على ظهري وراح يقول .. يومى سعد يا حسن .. أنا بحبك أوى زى
عبدالرحمن :

فقال له عمى دردير فى خبث وأنا أنفلت من بين ذراعيه لأجلس بجوار أبى :

- طيب حبه زى السيد بكفايه ..

فرد عليه عمى محمود وكأنه يشخط :

- بيقه مابحش حسن .. يعوض على ربنا شوف السيد إبني بلغ

وبقه راجل وداخل طالع عليه ولا سلام ولا كلام .. زى ما

يكون شريكى فى الأرض ..

- وبتقوله إيه يا محمود ..

- هاقوله إيه يادردير .. من أول ما نزل من بطن أمه وهو

مخاصمنى .. طبعاً أنا مش هاستجدى الحب من ولدى ..

فى يوم زهّنى وكان دائماً يبص لى فى غضب وكنا قاعدين

كلنا فى القاعة .. كانت الدنيا شتا .. وعمره ما طاوعنى

ويدينى ضهره .. وأنت عارف من قرفى منه .. قلت له ..

إطلع من القاعة لأقتلك .. ومن ساعتها .. كان سنّه يومها

عشر سنين ومن ساعتها بقه لى عدو فى الدار .. جته نيّله

هو وأمه والعبادله إللى جايه منها ..

- يعنى ولاد مجيده أحسن ..

- من يوم ماتجوزت من القطان عرفت يعنى إيه زوجه وحسيت

بأن لى ولاد ..

.. كان أبى صامتاً يسمع أخيه محمود ولا يعلق على كلامه لأنه إذا تكلم فلن يعجبه

كلامه .. كان أبى يحب السيد ويشفق عليه من قسوة أبيه ..

.. لم يضافحنى دردير ولم يحتضننى ولكنه قال لى وكأننى أغضبته فى شئ :

- إزيك .. قالها فى جحود وكأنه يشحذ الكلمه من أحد أو يشتريها بفلوس .. وشعرتُ بأننى أكره هذا الرجل .. أكره هذا التور .. أكره هذا العم ..
- .. أخذت القاعده قعدتها وانتهى الجميع من شرب الشاي وانصرف العمال واحداً بعد الآخر وأتانى عبدالرحمن بطبق البرتقال واليوسفى ووضعهُ أمامى قائلاً .. كل .. كل .. كل يا حسن .. قليل من الوقت ودخل علينا السيد ليصافح أبى فقط :
- إزيك يابه حداد ..
- إزيك يا سيد أقعد ..
- أنا رايح الدكان .. وانصرف تتبعه نظرات والده شذراً ..
- وتنهَّد عمى محمود وقال :
- عرف أبو هنطش .. تصوروا بلغنى إنه بيشرب حشيش مع أبو هنطش ..
- .. سكت الجميع ولم يعلّق أحد على قوله .. بعدها تتحنح أبى وقال :
- ياترى عايزنى ليه ..
- هزّ محمود رأسه وقال :
- كفايه طوب البر التانى يا حداد ..
- مش فاهم .. يعنى إيه كفايه
- إنت بتعمل جميله فى أهل هيت وهَم ما يستهلوش
- البر التانى خال من قوضه دول ناس غلابه قاعدين فى عشش ..
- ..
- طيب إنزل هيت تلاقيها كلها عشش يعنى هاتبنى بيوتهم كلّها ..
- ..
- لأ بس شوية قوض للصيادين .. وعاييز أبنى جامع ..
- أنا عارف الصيادين واحد واحد دول ناس ما بيصلوُش ..
- طيب إعمل مصلّيه فى الأول ..

- أصل الموضوع أساسه إن عيال من عندنا بيعدوا البحر
وبيعملوا المنكر فى العشش
- أقعد هناك بالشمروخ يومين وهوَّش على العيال يوم واتنين
تلاقى العيال راحت حته تانيه .. العيال دى بايظه وفى أى
حته هايقضُوا .. طيّب البوص مليان حد بيشوفهم هىَّ جت
على البر التانى ..
- .. ويتمايل دردير يمنة ويسره وهو يضحك ويقول مداعبًا حداد :
- هوَّ إنت منشَّن على حد من نسوان الصيادين ..
ويبتسم محمود ويزيد على كلام دردير :
- هوَّ فيه حد من النسوان هناك هايقولُك يا خال ..
وهزَّ أبى رأسه ونظر إليهما فى ضيق شديد وهمَّ واقفًا وقال غاضبًا وأنا أقف بجانبه :
- هوَّ أنا جأى عشان أتهزَّا يا محمود .. يالَّه يا حسن ..
وفطس أبى محمود من الضحك واندفع نحوه وأمسكه من ذراعه وهو مازال يقهقه
وراح يُقسم :
- والله تقعد .. ياراجل عيب .. يا حداد عيب إحنا بنضحك معاك
.. أقعد يا حسن ..
- .. وأخذنى أبى محمود بجانبه وأجلسنى .. وتابع يقول لأبى بعد أن قعد ثانيه وهو
يهز رأسه ..
- يا حداد مش هاناخذ الدنيا كلها جد لازم نضحك شويه .. والله
ياريت أنا كنت شقى زيَّك ..
طول عمرك واكل الجو منا وكل الستات بتحبك ..
ويرد عليه أبى فى جديه :
- الواحد فيكم عايش مع نفسه بس .. حد منكم حل مشكله ست
أو راجل .. حد منكم ستر وليه أو ساعد فقير .. حد منكم
إدَّى بهيمته لواحد غلبان تساعده فى الكباس أو المحرات ..
حد منكم دافع عن الحق ووقف جنب الغريب زى ما وقفت

مع لظيمه .. إنتو قاعدين مكانكم وشاطرين فى الكلام عن
الناس .. حد منكم شغل ناس فى مصر .. الواحد منكم
مايعرفش يروح مجيريه لوحده .. الواحد منكم بكتيره يروح
لغاية المَحَدَّه الشرقيه ويرجع أحسن يتوه ..

ويبتسم محمود فى هدوء ويقول محاولاً تهدئته :

- والله كل الكلام بتاعك صحيح .. خلاصة الكلام إحنا خايفين
عليك من بتوع هيت .. نسوان الصيادين لابسين الجلابيه
على العرى وكل شئ عندهم ببلاش .. خايفين عليك لأن
الصيادين دول إللى إنت فاكركم غلابه دول أمكر ناس سواء
فى هيت أو غير هيت ..
- طيب أعمل إيه ..
- كفايه الطوب إللى راح .. إبنى على أدّه هناك وماتعملش
جامع على شط البحر إعمل كذا مصليّه وافرشها وعلم الناس
تصلّى ..

.. ولأول مرّه أسمع عمى دردير وأشعر أنه قال كلاماً مفيداً والذى أكمل كلام عمى
محمود قائلاً :

- إبنى لهم قوض على أد الطوب تبقيه عملت خير على أد نيتك
.. وكويس إعمل مصليّات علشان يصلّوا فيها .. بس على
فكره مش هاتقدر تمنع عيال تروح هناك .. العيال دى فى أى
حته بيقضوا حاجتهم .. طيب ما البوص على حرف البحر
كلّه شغالين فيه .. العيال دى ترجع بالشمرخ بالضرب
بمطاردتهم بالعنف .. إنت من ناحيه واحنا من ناحيه ..
ومانخليش حد يروح البحر من غير ما يكون له مصلحه فيه
.. حاجات كتير أوى ممكن نعملها من غير نقل طوب ولا
قوض ولا ..

ويهّز أبى رأسه موافقاً على كلام دردير :

- والله الكلام بدا يدخل فى دماغى :
- وفى صوت واحد قال كل منهما :
- إحنا إخوانك وعائزين مصلحتك .. حَوْل نقل الطوب
- لعبدالسميع ودردير ياخذ يكمل زربته
- من بكره ..
- المشكله إنى عملت مركب ..

فيقول محمود :

- عايز تبقيه صَيَّاد ..
- أَبَدًا علشان أعدى من غير ما احتاج معدى ..
- فيضحك دردير وكأنَّ أحدًا يزغزغه :
- خلاص بيقه قارب نتفَسَّح فيه ..

.. ولأول مرَّة فى حياتى أجدُ أبى فى حيره وأنه كان فى حاجة لمن يرشده ويوافقه على رأيه .. وعندما عدنا إلى البيت وجدنا كل من فيه نائمًا .. جلسنا فى المندره دون أن ينبس كلانا بكلمه ورحت أرقب أبى الذى بدا عليه الصمت .. خلع حذاءه ومدَّ جسده بطول الكنبه وقال :

- روح نام يا حسن
- أنا عايز أسألك سؤال يابه ..
- إسأل ..
- أول مره أشوفك بتطاول إخوانك ..
- أنا فعلاً خايف من البر التانى ..
- ولما إنت خايف بتروح ليه ..
- فى الأول قلت أحوش العيال .. ولما بدأت أودى الطوب
- مالقتش عيال ..

وسمعت إن العيال إتحوّلت للبوص والسواقى ..

- وبعدين ..

- فى يوم لقيت نفسى قاعد فى عشة فوزى ومرات فوزى قاعده
قصادى ..
- وبعدين ..
- زى ما قالى إخوانى .. نسوان قالعه ملط ومابتختشيش ..
- وبعدين عملت إيه ..
- عملت لى شاي .. وبعد ما كنت قاعد رقدت قصادها فى
العشة أتفرج عليها ..
- وسابت نفسها عريانه برضه ..
- أيوه .. وعملت نفسها مش واخده بالها ..
- وقالت لك يا خال الحاج ..
- لأ .. يابه الد الحاج .. وتمط فى الحاج أوى بطريقة فيها
مياعه جامده أوى يابنى .. حسيت ساعتها إننى بانهزم ..
- ومرات صياد هاتهنى وهابقه فضيحه فى البر التانى ..
- وقالت لك إيه لما لقتك نمت وعَمال تتفرج عليها ..
- قالت .. أنا هنا خدامتك يابه الحاج .. قتلها فوزى فين ..
- قالت فوزى مش هاييجى البحر النهارده .. قلت لها طيب
هاقوم أعدى .. فقالت تعدى فين يا حاج قِيل معايه النهارده
.. الخص طراوه والشمس بره جامده أوى ..
- وبعدين يابه ..
- قلت لها عايز سمك مشوى .. قالت أجيب لك جمبرى ..
- وقامت نزلت البحر تفضى جبية سمك ..
- وبعدين ..
- ما صدقت نزلت البحر وقمت قايم جرى زى العيل الصغير
وهربت من الخص ومشيت بسرعة كأنى أجرى على السكة
اللى توذى لغاية كوبرى الشاطر ..
- وبعدين ..

- وهناك عدّيت في مركب .. واحده صبيه حلوه أوى عدّنتى للبر
التانى .. وسكت ..
- يعنى إنت فى عز ما بتهرب من مرات صياد بتطمع فى مرات
صياد تانى ..
- إنت عارف يابنى المصيه فى إيه .. (وراح يضرب كفاً
بالأخرى) فقطعته ..
- فى إيه يابه ..
- برضه لابسه الجلابيه على العرى ..
- وش عَرفك ..
- عَمِلت كذا حركة وهى بتجَدّف شفتها زى ما شفت مرات فوزى
..
- يعنى دا عالم الصيادين .. نسوان شاطره وخفيفه وحركه
وبتحب تبقة جاهزه ومابتحبش تلخم نفسها بهدوم ..
- هوّ كده بالظبط يا حسن ..
- طيب وعائز تروح النار برجليك ..
- باحسبهم ناس غلابه .. لقيتهم عالم كبير واسع له عاداته
ماقدرش عليه ..
- طيب يابه .. وهاتروح تبنى الطوب وتعمل مصليّه علشان
يصلوا ..
- الطوب حلال عليهم بينوا بيه اللّى عايزينه
- والمصليه ..
- اللّى يصلّى الأرض كلّها مصليّه ..
- عرفت بقه إن الستات فى كل بلد ليها لغة وسلو وكلام ..
- أيوه يابنى فى بلدنا كلمه السر ياخال وعند الصيادين يابه
الحاج .. وماتعرفش لّما تتجوّن فى كل بلد سلو النسوان إيه
(سلو يعنى عاده تعود الناس عليها)

- وعلشان كده طلع كلام أبويا محمود ودردير صحيح ..
- من غير ما يعرفوا الحكايه ..
- طيب والمركب اللي عملته ..
- هاديه لصياد غلبان من بلدنا اسمه منصور أبو أمنه ..

"زواج أختي في سنة القبول"

لَمَّا مَرَّتِ السَّنَوَاتُ بِي وَوَجَدْتُ نَفْسِي أَمَامَ مَرَحَلَةٍ أُعَدِّي فِيهَا مَرَحَلَةُ الدِّرَاسَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ الْتَهَمْتُ الْكُتُبَ وَبِرَنَامِجِ الْقَبُولِ .. وَكُنْتُ أَحْفَظُ وَلَا أَفْهَمُ .. وَلَا أَعْرِفُ كَيْفَ أُعْطَانِي اللَّهُ الْقُدْرَةَ عَلَى حِفْظِ الْمَوَادِّ خَاصَّةً الْجُغَرَفِيَّةِ وَالتَّارِيخِ وَالْعَرَبِيَّ وَكُنْتُ أَكْرَهُ الْعُلُومَ وَعِلْمَ الرِّيَاضَةِ، وَكَانَ الْمُدْرَسُونَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّي نَبِيَّةٌ وَذَكِيٌّ وَلَمْ أَكُنْ كَذَلِكَ .. وَكُنَّا مَجْمُوعَةٌ كَبِيرَةٌ نَأْخُذُ الدَّرْسَ فِي دَارِ عَبْدِ الْمَحْسَنِ دَرْدِيرٍ وَكَانَ مَعَنَا فِتَاتَانِ وَاحِدَةٌ مِنْ عَائِلَةِ الْقَطَانِ وَأُخْرَى مِنْ عَائِلَةِ أَبُو عَافِيَةٍ، وَزَادَنِي أَبِي دَرْسَ آخَرَ إِضَافِيٍّ مَعَ تَلْمِيزٍ يَدْعَى مُحَمَّدًا مَعْوُضَ وَكَانَ هُوَ فِي الصَّفِّ الثَّالِثِ وَأَنَا فِي الصَّفِّ الرَّابِعِ، وَكَانَتْ أُمِّي كَعَادَتِهَا تَهْتَمُ بِهِنْدَامِي وَمَلَابَسِي وَأَنَا أَذْهَبُ إِلَى الدَّرْسِ وَكَأَنَّي ذَاهِبٌ إِلَى الْمَدْرَسَةِ، وَفِي الدَّرْسِ الْإِضَافِيٍّ كُنْتُ آخِذٌ أَوْرَاقِي وَأَمْشِي قَلِيلًا حَتَّى مَنَازِلَ مُحَمَّدٍ مَعْوُضَ لِنَمْشِيَ سَوِيًّا إِلَى الْمُدْرَسِ مُحَمَّدِ طَرَادٍ وَيَسْكُنُ فِي آخِرِ شَارِعِ دَرْبِ الْعَرَبِ عِنْدَ قُبَّةٍ عَالِيَةٍ .. وَكَانَ يَدْرُسُ لَنَا فَوْقَ السَّطْحِ تَحْتَ ظِلِّ عَنَبَةٍ (تَكْعِيَّةِ عَنَبٍ) وَفِي طَرَفِ الظِّلِّ وَتَحْتَ التَّكْعِيَّةِ كَانَ يَتَكَوَّرُ فِي شَكْلِ حَرْفِ يَوْ وَالدَّهْ الْمَسْنُ وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَوَجَّعُ وَيَبْنُ وَكُنَّا نَسْمَعُ تَأَوُّهُ الرَّجُلِ مِنْ وَجَعِهِ وَنَحْنُ نَتَنَاوَلُ الدَّرْسَ وَكَلَّمَا زَادَ الرَّجُلُ مِنْ آهَاتٍ وَجَعَهُ وَعَلَا صَوْتُهُ كُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّي أَسْتَزِيدُ مِنْ هَذَا الْمُدْرَسِ ..

وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِي أَحَبُّ مَدْرَسًا لِأَنَّي كُنْتُ أَفْهَمُ مِنْهُ وَكَانَ رَجُلًا بَسِيطًا مَهَذَّبًا كَرِيمًا فِي التَّعَامُلِ مَعَنَا .. وَرَغْمَ صُغُرِ عُمُرِنَا أَنَا وَمُحَمَّدُ مَعْوُضُ فَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ يَقُولُ مِنْ وَقْتٍ لآخر .. فَهَمَّتُو يَارْجَالَهُ .. نَبْتَسِمُ وَنَقُولُ لَهُ .. أَيُّوهُ .. وَكُنَّا نَفْهَمُ فَعَلًا .. وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الرَّجُلُ فِي الْأَصْلِ مَدْرَسًا وَلَكِنَّهُ كَانَ مُتَقَفًا فَقَطْ وَعَرَفْتُ فِيمَا بَعْدَ أَنَّهُ لَمْ يَكْمَلِ الصَّفِّ الثَّالِثَ الْإِعْدَادِيَّ لَكِنَّهُ كَانَ وَاسِعَ الْمَعْرِفَةِ وَعَرَفْتُ مِنَ النَّاسِ فِيمَا بَعْدَ أَنَّ ظُرُوفَ وَالِدِهِ هِيَ الَّتِي مَنَعَتْهُ مِنْ اسْتِكْمَالِ دِرَاسَتِهِ وَهُوَ يَعْمَلُ مُوظَّفًا بَسِيطًا فِي الْمَدْرَسَةِ الْإِعْدَادِيَّ وَكُلَّ عَمَلِهِ تَسْلِيمُ الْكُتُبِ لِلتَّلَامِيذِ .. وَكَانَ أَهَمُّ مَا يَمَيِّزُ هَذَا الْمُدْرَسَ أَنَّهُ دَائِمًا يَبْدُو إِحْتِرَامَهُ لَنَا فَلَا يَنْتَقِلُ مِنْ فِقْرِهِ أَوْ مَعْلُومِهِ إِلَى أُخْرَى إِلَّا إِذَا جَعَلْنَا نَرُدُّهَا بِلَا شَخْطٍ وَلَا شَتِيمَةٍ وَلَا عَصَاهُ، وَكَانَ أَحْيَانًا يَتْرَكُنَا خَمْسَ دَقَاقٍ وَيَنْزِلُ إِلَى دَارِهِ فِي الطَّابِقِ الْأَوَّلِ فَأَسْأَلُ مُحَمَّدًا .. رَاحَ فِينِ .. فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ .. رَاحَ الْكَنْيَفُ .. وَتَيَقَّنْتُ بَعْدَ ذَلِكَ إِنَّهُ يَخْرُجُ رِيحَهُ بَعِيدًا حَتَّى لَا يُوْذِنُنَا وَكَانَ هَذَا إِخْتِلَافٌ كَبِيرٌ

ومدرس من نوعية أخرى وليس مثل المدرسين فى مدرسة صبحى أو مدرسة الرفاعى .. فلما أحببت صفات هذا الرجل فهمتُ وحفظت كل ما قاله من درس، ولم أفهم من عبدالمحسن دردير الدرس كما فهمت من محمد طراد وكان له الفضل الكبير فى فهمى لدروس القبول الإبتدائى وليس حفظها فقط، لأن عبدالمحسن كان يثريق على كثير من التلاميذ وهو يلقي الدرس فكانت نفسية كثير منهم تنزل فى الحضيض من كثره نفوزته وتريقته عليهم رغم أن عبدالمحسن كان قد حصل على ليسانس فى اللغة العربيه فى العام الذى قبله .. ولولا هذا محمد طراد لما نجحت فى برنامج القبول وانتقلت إلى الصف الأول الإعدادى كان ذلك فى عام ١٩٥٦ ..

.. وكان محمد معّوض يذهب معى إلى الدرس وهو يرتدى قميصاً طويلاً يغطى حتى تحت ركبتيه دون أن يرتدى سروالاً وفى قدميه قبقاباً يقعد يرن فى مشيته حتى نصل إلى المدرس فى درب العرب وكنت أضحك وأقول له :

- ما تلبس جزمه يا محمد ..

- أنا بحب الرنه .. رنة القبقاب بتخلينى أفوق ..

وكان كثير من الغلمان والشباب فى القرية يرتدون القبقاب فى الشارع لأنه كان تقليعه جديده وكان فى أدمغة الناس أيامها أن إرتداؤه يعتبر تمديناً وحضاره، وكانت السيدة أم الرزق تسعد برنة قبقاب محمد لأنه كان ولدها الوحيد على بنت واحده، والغريب أنها كانت تضع له فى كيس كتبه شقه عيش مليانه بيض مسلق علشان يأكلها فى الطريق ولم يكن محمد يأكل شيئاً منها ويعود بها ولكنه قلب الأم.. وبعد ذلك أيقنت أن هناك فرق فى تربية أمى لى عن أولاد البلد جميعاً وأن هناك فرق بين أم من تلوانه وأم من شنشور مع التحفظ أنه ليس كل أم من تلوانه مثل أمى وليست كل أم من شنشور مثل أم محمد .. وكنت دائماً أقارن بين الأمهات حولى وأمى فأشعر أننى منفرد بهذه الأم الكبيره ..

.. وأثناء دراستى فى السنه الرابعه كانت أختى سعاد قد كبرت وتجاوزت الخامسة عشره، وفى ليلة من الليالى جاء إلى بيتنا قريب لنا وهو الحاج حسن عبدالعال وخطب أختى لإبنه على الذى يعمل مدرساً فى الإبتدائى .. وكان على هذا قد سبق له الزواج من فتاه تدعى فتحية الصبى وظل متزوجاً بها لمدته تزيد عن خمس سنوات

ولم ينبج منها ولما طُلقت منه بناءً على رغبتها لأنها تريد الإنجاب مَّيل على بيتنا وجاء أبوه لخطبة أختي ووافق أبي وقُرأت الفاتحة وفي هذه الليلة ظَلَّت أُمِّي تضرب بكلتا يديها على صدرها لأنه كيف يزوج رجلاً لا ينبج .. فيقول لها أبي حكمة ربنا .. ما خَلَفْش من بنت الصبي إن شاء الله هاخلف من بنتنا وكان هذا منطقه، وذهبت أُمِّي إلى أهلها في تلوانه لتشتكيه عند أبيها وأُمِّها وكان أهلها من عادتهم ألا يتدخلوا في مثل هذه الأمور ونصحوها .. خلاص يا حميده هو أبوها وهي بنته يمكن تخلف .. ولم تمر أيام على خطبة أختي حتى جاءنا في ليلة الحاج عبدالعاطي طراد ليخطب أختي سعاد للشيخ مناع القطان وكان وقتها شاباً صغيراً .. فقال له أبي بعد أن رَحَّب به في داره :

- والله مايتعرَّش يا حاج عبدالعاطي .. أنا إديت كلمه للحاج حسن عبدالعال .. وإنصرف الرجل، وراحت أُمِّي مرَّة أخرى ومعها أُمِّي لبيبه تضربان صدريهما وتتدبان حظ الفتاة الصغيرة التي سيزوجها والدها رجلاً عقيماً .. ولم يقدر عليه أحد من إخوته في إثثائه بالرجوع عن هذه الجوازه .. بعد ذلك بعام تقريباً علمت وأنا صغير أن الشيخ مناع هذا كان من شباب الإخوان المسلمين وكان من المطلوب القبض عليهم ولكنه إستطاع الهرب إلى السعودية وظلَّ هناك حتى وصل إلى أكبر مناصب جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض حيث كان أستاذًا بها ومشرقاً على قسم الدراسات العليا بجامعة الإمام هذا ما عرفته بعد ذلك عندما كبرت ..

وبدأ يتسرَّب من أبي أخطاء كثيره لأنه شعر بعد ذلك أنه أخطأ في سرعه الموافقة على الزواجه ..

.. وقبل أن يتم دخول أختي سعاد على زوجها إتفق أبي مع زوج خالتي علام عماره على أن يأخذا كل من سعاد وسميحه ابنة خالتي إلى مدينة منوف لتصويرهما بفستان الفرح مع بعضهما ثم كل بمفردها عدة صور وكانت هذه عادته إعتاد عليها أهل العروس في بعض أسر تلوانه وأصرت أُمِّي على ذلك حباً في عادات بلدها ..

وكان من فرط سعادتي أنني ذهبتُ مع أبي وأختي وأمي إلى مدينة منوف مع زوج خالتي وخالتي وسميحه إبنتهما العروس والتي كانت ستتزوج من قريب لها يُدعى منير عمارة صاحب أرض زراعية .. وكانت مدينة منوف بالنسبة لكثير من القرى قَمَّة المدن حيث تُقضى معظم حاجات الناس وهي مدينة تجارية منذ زمن طويل وهي أفضل بكثير من مدينتي أشمون والباжور من كل الوجوه .. وكان في مدينه منوف إستوديوهان للتصوير .. وتم التصوير في إستوديو أبو علم بعدها ذهبنا جميعًا إلى مطعم أبو النور وهو أشهر مطعم للفلل والطعمية في المدينه، وكان من الجميل في هذا اليوم أن القافله ذهبت إلى منوف بالركايب (الحمير درجة أولى) ركبْتُ خلف أبي وركبت أُمي ركوبة أبيها وخالتي ركوبة منير عريس سميحه وعمّي علام ركوبته ثم ركبنا العروستان ركوبه الحاج عمارة جد سميحه ..

.. خمسة ركايب كلّ منها بلجام ويردعه حمرا وكان ركبا جميلاً يستحق التأمل من كل من مرزنا به من الناس أهل قرى السروهيّ وسرس الليان حتى وصلنا إلى مدينة منوف، وفي مدخل المدينه أدخلنا الركايب إسطلب الحمير وكان يقع قرب محطة مياه منوف، ولا أعرف كم وأنا في عمر العاشره أحببت هذه المدينه من أول دخلة لها بالركايب مع أهلى ولن أنسى أنه طول الطريق ثلنا كل فرجه وتأمل وانبهار من كل فلاح وفلاحه في الطريق حتى وصلنا إلى منوف :

- شوف ياختى الركايب
- صلاة النبى تلاقيه العمده
- شوف الناس حلوه إزراى
- إنتو منين ياعم ..
- ياختى يا حلاوه .. يا حلاوة ركايبكم ..

.. ولم يسكت زوج خالتي عن الحكى مع أبى حتى وصلنا .. وكان هذا الرجل غاوى حكايات بمعنى أنه كان يروى عن أحداث ومقاطع من ألف ليله وليله وعن الشاطر حسن وعن الشيخ عبدالعال شيخ الصيادين ولا يمل ولا يتعب وكنت أشد من فى الركب ولعاً بحكاياته وكلّما أنهى حكايه أقول له .. تانى وإيه كمان .. قول يابه علام وكنت أتصوّر وأتخيّل كل ما يرويه حتى ثبتت فى مخيلتي وكأنها جزء من حقيقة

الحياة حولي .. وكما حفظت تاريخ وجغرافية مواد القبول حفظت كل حكايات زوج خالتي، وكنت أقول لنفسى خاصة بعد أن عدت من هذه الرحلة .. أن هذه الحكايات حقيقه وهى أفضل بكثير من كتب المدرسه والتي أحفظها مجبراً حتى لا أعود إلى مدرسه صبحى، وبعد هذا المشوار إلى منوف بدأ يملأ كل كيانى ما رأيته فى هذه المدينة وأصبح عالقاً فى ذهنى .. وكما أحببت الذهاب إلى درس محمد طراد فى درب العرب أحببت أن أذهب إلى هذه المدينه لأسمع حكايات زوج خالتي مرة أخرى، وما كان يمنعنى عن تحقيق ما أتمنى هو أنه لابد أن أنتهى من إجتياز الإمتحان بنجاح، ولكننى إنطويت كل يوم وأنا أستذكر دروسى فى المندره أن أفرغ قليلاً فى نشر ما كان فى الكرتونه من كتب أمامى فوق المنضده الدائريه وكنت حريصاً ألا يرانى أحد حتى لا يتهمونى بأننى لا أذاكر فأقفل باب المندره بالترباس من الداخل فإذا نقرت أمى الباب قلت لها زاعقاً أنا بذاكر يأمه سيبينى شويه هافتح بعد ما خلّص فتقلب إلى وسط دارها، ورحت أبحث فى الكتب عن حكايات فوجدت كتاباً واحداً مقطوع الغلاف وسبحت فى قراءتها من يوم لآخر ووجدت متعه كبيره رغم أننى لا أفهمها على نحو كبير، ووجدت كثيراً من كتب الشعر القديم وكانت صعبه ولكن إذا ما قرأت بعضها كل يوم إرتحت كثيراً وكأن شيئاً جميلاً يسبح فى داخلى، وعندما أمسك برأسى فى ضيق لأننى لا أفهم كل شئ أمسك المجلات وأتصفحها فأرى نساءً جميلات يرتدين فساتين وتتورات وبلوزات مختلفه الأشكال فأنبهر بجمالهن وحسن وجوههن وانسياب أجسادهن فيذهب قلبى إلى سميره وأتذكر كل ما حدث معها فيتحرك كل سكون بى وأضرب المنضده بقبضة يدى .. إننى أريد أن أمسك بهذا العالم وحقيقه الواقع أننى لم أكن أستطيع حتى أن أقرأ ما فى هذه الكتب فينتابنى شعور بالضعف وكأننى أريد أن آتى بأيام عمرى المقبله هذا اليوم وأراها تنتهى حياتى من تلك الحياه وأعرف كل شئ سيأتينى، وتوصلت بعد أن هدأت قليلاً أو بعد أن أهدأ قليلاً عندما تنتابنى هذه الحالات أن الله فى مقدوره وحده أن يأتى بأيام عمرنا الينا وهو الذى يتحكم فيها وتقلّبنا فيها كيفما يشاء وأن ما يحدث لى هو شئ من جنون غلام .. وتعلّمت فى هذه الفترة أن أكتم كل أفكارى فى داخلى وأن

أخزَّنها لكى تخرج فى وقت آخر بعد أن أنتهى من هم ثقيل على قلبى وهو الامتحان ..

.. ولما مرَّت الأيام وأنا وغيرى من التلاميذ نندمج فى أخذ الدروس والمذاكره إقتربت أيام زفاف أختى سعاد، وكان يوم خميس ولم أكن أريد أن أذهب إلى درسى هذا اليوم لكن أبى قال لى إننا سننتظرك .. ولما عدت من درسى يوم زفافها بعد المغرب بقليل لم أجد أختى ووجدت أمى تبكى فى غرفة الخزانة وقد قفلت الباب عليها وأبى نائماً على كنبه المندرة وأمى لبيبته قفلت الباب عليها ومعها عبدالعزيز فقلت لها :

- فىن سعاد
- راحت .. قالتها فى حزن وهى تهز رأسها ..
- راحت فىن ..
- عند ابن الحاج حسن ..
- يانهار إسود إتجوّزت ..
- هوّ فعلا يوم إسود علىّ أكثر من أى حد فى الدار دى..
- وأنا .. ليه تجوزوها .. ليه توذوها من غيرى ..
- إسأل أبوك .. لأول مرّه أنا غضبانه على أبوك ..
- يلعن أبويا ..
- وأبو أبوك كمان ..
- وأنقلبِت إلى إلى المندره لأشخط قائلاً :
- فىن أختى ..

إنعدل الرجل وجلس فى وهن ومسح دموعه فى كم جلبابه وقال :

- ماترعلش .. مافيش حد حضر .. والدنيا كانت بتمطر أوى
- بس أنا أخوها ..
- معلّش يا حسن الناس لخمّتنى واستعجلونى وأخبرتهم أن حسن فى الدرس وكان ردّهم جميعاً .. الدار ورا الدار بيقه يروح لها بعدين ..

ورُحِتْ أبكى بكاءً حارًا حتى جاءتني أمى وأمى لبيبه وعبدالعزيز ومحمد .. جاءوا جميعًا إلى المندره والتفوا حولى وراحوا يطبطبوا على .. وكان محمد هو الوحيد الذى لا يدمع رغم أن الجميع راح يبكى حتى عبدالعزيز الزرور .. ورحت أنظر اليهم جميعًا بعد أن قعدوا ثم قلت لأبى :

- وأنت ليه بتبكى يابه ..

- مش عارف هى قطعّت قلبى .. أنا حاسس إنى رميتها..

وزعقت أمى لبيبه وكأنها تصرخ وطفقت :

- أمّال أنا أعمل إيه كان لسه بدرى ياحداد .. سعاد صغّيره تديها

لواحد أكبر منها بثلاثة وعشرين سنه عشان إيه واللّى زاد
وغطّى مايبخلفش ..

وزادتها أمى :

- قعدت معاه فتحيه بنت الصبى سنين طويله ولا ابن ولا بنت ولا

تيلّ والناس كلها قالت العيب منه .. أنا مش عارفه إنت
عملت فيها كده ليه ..

فقال أبى وهو يجفّف دموعه :

- معلّش أهو اللّى حصل حصل .. أنا إتكسفت من الحاج

حسن .. راجل أكبر مّنى وقريبى وأول مّره يدخل دارى ..
معلّش يمكن ربّنا يجبرها وتخلف ..

وانفتحت أمى لبيبه بوابل من الكلام وكأنّها تخزن الكثير :

- همّ دول ناس .. المفروض بعد الدخله يأكلوا الناس خاصه

إحنا أهل العروسه زى الناس كلها ما بتعمل .. وايه خاله ده
محمد عبود اللّى كرهّ الناس كلّها فى الصلا وراه .. قال يزعق
.. يالّه كلّه يروح بكفايه غنا وزغاريد .. بالذمه دا راجل سئى
وعارف ربّنا .. يكتّم الناس بالشكل ده الراجل ده كان لازم
يتهرّأ .. صلاة النبى عبود مين وخاله مين هوّ صنف

عبدالعال ده من زمان لا بنقبله ولا بيقبلنا إحنا بنجوزهم بنتنا
ليه ..

ويحاول أبى تهدئتها :

- لا لأ ماتقوليش كده .. إحنا مناسيين سيد عبدالعال ومديينه
أخت محمود خضره
- الحاج سيد راجل طيب دونهم كلهم ..
- وبعدين يالبيه
- يا قلبى يا كتاكت ياما قلبى مخبى وساكت ..
- مش فاهم إنت عايزه تحطى عليه كمان بكفايه
- مش عليك إنت على أمه فاطمه الشخ ..
- مالناش دعوه بيه ولا بأمه ..
- هو إنت مش عارف الحاج حسن مشاها ليه من داره وروّحها
دار البلد ..

وكان أبى ينظر إليها مندهشاً لأنها لم تتفتح فى كلامها على أحد كما إنفتحت اليوم
ويبدو أن أخذ سعاد منها بهذه السرعة جعلها تجن، وسكتت قليلاً وهى تنظر إلينا
جميعاً فى غضب فقالت لها أمى طالبةً منها أن تزيد :

- روّحها ليه .. طيب ماقلتيش الكلام قبل كده ليه ..
- فاطمه دى نشفت ريق الحاج حسن من أكل الخبيزه والكرشه ..
أحسن أكل عندها هو أرخص أكل ماتعرفش يعنى إيه لحمه
أو فراخ وإذا عملت الفطير بيقه زى العيش اللى من غير
خميره .. طول عمرها هو دا أكلها خلّت جوزها حلف عليها
بالطلاق إن تروح دار البلد وما تدخل عليه بيت ومنعها من
بيته اللى فى الغيط .. دا غير إنها إمراه مالهاش فى الرجاله
..

فتقول لها أمى :

- أمال إتجوزها ليه

- زى كل الرجال ما بتتجوّز هو حداد إتجوزك ليه أهى أسباب ..
هو كان فاكّر إنها من بيت طيب يعنى ها تريحه .. اتجوزها
بعد ما أم أحمد ماتت .. حاكم أحمد وإبراهيم وأم إبراهيم من
أول واحده إتجوزها من براشيم..
- وبعدين يا لبييه
- هو بعد كده عزل ولاده كلهم .. أحمد طفش على مصر وعزل
إبراهيم فى دار لوحده وأم إبراهيم إتجوزت خضرى أبو عافيه
..
- وبعدين ..
- الحاج حسن من أحسن الرّجاله فى أبو عافيه .. راجل جد
وشاطر فى الأرض راجل كبير بصحيح بس مافيش حد من
ولاده طلع له .. وعلشان كده من فراسته بعدهم عنه..
- مش هو إللى متجوز خديجه بنت الحاج على ..
- إتجوّز خديجه بصحيح .. خديجه دى إيه .. ست فوّضته عن
عمره اللّى فات .. جابت له فكرى ولد لسه صُغير لكن
هايكون بولاده كلهم ..
- طيّب خلينا فى اللّى يخلصنا ..
- على ده هوّ وأمه وش واحد .. بخيل وشحيح وعامل نفسه
متدين زى خاله ..
- قوليلى خاله كرّه الناس فى الصلا ليه .. فى الركوع ثلاث
دقايق وفى السجود خمس دقايق وفى صلاة العصر رغم إنها
سرّاً بيقرى سور طويله والناس تنتّنها لما تسرح وتزهق .. ومن
ساعتها الناس إتعدت تصلّى وراه .. والرسول قال خفّوا فى
صلاتكم .. لكن اللّى خد سعاد ده نسخه من الزفت زى خاله
.. وبيقولوا على خاله إنه سلفى وهوّ صديق الشيخ عبد الرازق
عفيفى أبو السلفيه فى السعوديه .. إنت عارفه ياحميده مين

بيصلي وراه دلوقتى الشيخ بكرى بس وهو راجل باله طويل
زيه وهو اللي بيسحبه رايح جاى ..

- يعنى إيه بيسحبه ..
- عشان أعمى .. ضرير .. تلاقى بكرى ساحبه من شماله
ويمينه ماسك عصاته بيخبط بيها فى الأرض .. إحنا ماكنش
لينا الناس دى ..
- طيب يالبيه دى قسمتتا مش المفروض ننام بدرى علشان
الصبح نعمل فطير الصباحيه ..
- والله لو بخاطرى ما نعمل فطيره واحده ..
- نعمل كام فطيره ..
- صينيه عليها أربع فطائر ..
- يالهوى يالبيه إنت عايزه الناس تفضحنا ..
- بكفايه الحلل اللي راحت .. بط ووز وفراخ عز عمرهم ما
شافوه ..

وكان أبى يضحك ويهز رأسه بالموافقه لأن ما قالت لبيه كُله صحيح فقالت له أمى
:

- لَمَّا إنت عارف كل ده عنهم بتجوزه سعاد ليه ..
 - علشان خاطر الحاج حسن ..
 - علشان خاطره ترمى بنتك ..
 - أهو اللي حصل .. الأمر لله ..
- وفجأه سمعنا تخبيطاً .. نقرّاً شديداً بالباب .. وبعدها صوت لمجموعة من النساء
تغنّى بصوت عال :
- وضحكنا عليكو وخذناها ..
- .. فقالت أمى مين دول .. شوف الفال يا حداد ..
- ثم علا الصوت ثانية بكلمات أخرى :
- قولوا لأبوها الكبير يقوم بقه يتعشى ..

وأخذوا يكرّرونها مع تخبيط بالباب ..

جريت نحو الباب وفتحت لهم فوجدت أربعة من النساء يرقصن فى دبكة عنيفه ويصفقن ويدورن فى شكل دائره وقد تشابكت أيديهن الثلاثة فى دائره وراحت الرابعه ترقص فى وسطهن وعلت وجوهن بفرحة وإبتسامه عندما شرع الباب ووجدن كل عائلة العروس تتفرّج عليهن وعلا الغناء وارتفعت أصواتهن وانطلقت الزغاريد .. وكانت أحلى الكلمات والتي أسعدت أبى وأمى خاصة .. قولوا لأبوها يقوم بقه يتعشّى .. وبعد أن قطعن شوطا كبيراً فى الرقص والغناء أدخلتهن أمى إلى وسط الدار ووضعت لهن طبقاً كبيراً من الأرز ووزعت عليهن دجاجه، بعدها نقدهن أبى قرشاً لكل واحده منهن .. وكان هذا المنظر هو ما أسعد الجميع وجعل بعض الفرحة تدخل إلى قلب كل منا وعوّضنى كثيراً فى عدم حضور دخلة أختى ..

.. وكانت العاده فى قريتى أن يؤخذ وش "عرض العروس" بالإصبع وتوضع قطرات الدم على عدة شاشات من الشاش الأبيض مقاس متر مربع .. ويحملن النسوه هذه الشاش ويسيرن فى البلده معلنين فرح الأسره بعرض العروس الشريف .. ولكن أختى دخلت بسنة الله ورسوله باتفاق الطرفين على ذلك .. وقليل فى هذا الوقت من الناس من كان يأخذ بالسنة والكثير يأخذها بالصباغ ..

وكانت أهم أغنيات النسوه وهن يحملن الشاش ويدورن به فى شوارع القرية هي :

- قولوا لأبوها الكبير يقوم بقه يتعشّى .. يعنى أبوها يطمئن على عرض إبنته الشريف والمعلن وعليه أن يقوم بقه يتعشّى ويتهنى بعد الإطمئنان على شرف إبنته ..

.. ولم يحضر جدى أحمد لمرضه لكن خالتي فهيمه وزوجها علّام عماره حضرا وعادا بعد الدخلة مباشرة وكذلك حضر نجيب شكرى ابن عمده تلوانه، وفى هذه الليلة الأولى لغياب سعاد عن بيت أبيها والأحرى عن بيت أمها لبيبه التي كانت أحزن من فى البيت على فراقها، ونامت على الكنبه وتركت عبدالعزيز وحده فى سريرها وكلّما تقلّبت فى نومها قالت محزونة يا عينى يابنتى .. غير أن أبى فقد نام نوماً عميقاً بشخيره المعهود وكذلك نامت أمى بعد طول وقت وهى تفكّر فى أهل زوج إبنتها أكثر من التفكير فى إبنتها لإندهاشها بجحودهم وبخلهم، وفى الصباح قام أبى

وصلى عند الباب الخارجى قرب حوض الطرنبه ثم دخل من الباب الكبير ونقر على
لبيبه والتى دخلت فى نومها منذ قليل لفراق سعاد لها فقالت وكأنَّها فى حلم :

- مين
- تعالى
- آجى فين
- تعالى القاعه
- طول عمرك رامى الدنيا ليك نفس لسه فكّر شويه فى بنتك ..
- هاتيجى ولا أروح لحميده ..
- النار فى قلبى منك عمرها ما تهدى .. رميت بنتك يا حداد..

خط الباب وزعق :

- مرجوعك لأمك ياما نكدت على خالى .. روحى فى داهيه ..
- أحسست به يمشى وسط الدار الداخلى وكانت جزمته تكحت فى الأرض .. بصق
فى الزريبه وتتحنج بصوت عال عسى أن تقوم حميده وتخرج إليه .. إقترب من باب
الخنزيره وفتحه فى هدوء ووقف عند قدمها وأمسك به وراح يهزّه :
- حميده .. حميده قومى تعالى عايزك ..

توقّف شخيرها وانتبهت للصوت الذى يناديها واعتقدت أن لبيبها هى التى تناديها
لعمل الفطير .. فقالت شويه .. شويه يالبيبها .. فقال لها وهو يهمس :

- أنا حداد .. أنا حداد .. تعالى القاعه ..
- طيب خلّى الليله لبنتك لازم فى يوم زى ده .. ما تهدى يا حداد .. أنا تعبانه ..

- قومى علشان أدعيلك تعالى ورايا ..
- والفطير .. عايزه أقوم أحمى الفرن على ما لبيبها تقوم وأم
إبراهيم تيجى ..

- لسه بدرى دا خمس دقائق يعنى مش لينا نفس زى ابن فاطمه ..

- ما تروح للبيبها ..

- جتها داهيه مارضييتش باين عليها زعلانه أوى على سعاد..
- ليها حق طيب روح .. بس بسرعه ..
- .. فتحت باب الغرفه لأسمع أصواتا بالقاعه كما سمعتها من قبل وفجأه نادانى محمد من فوق الكنبه :

- واقف ليه يا حسن

إرتبكت وفوجئت بسؤاله ..

- لأ .. لأ هاروح الكنيف ..

- أمال فين أمى ..

- مع أبوك فى القاعه

- بيعملوا إيه ..

- لما تكبر تعرف ..

ضحك محمد وقال :

- عارف

- عارف إيه يا محمد ..

- سمعت أبوك وهو بياخد أمك ..

- مش فاهم يا محمد .. إنت لسه صغير يا محمد ..

- أنا ساكت وعارف كل حاجة .. يا بختهم ..

- معقوله كلهم بيقولو عليك طيب وعبيط ..

- عرفت أبوك وأمك فى القاعة ليه ..

- بيعملو الحلبسه ..

- يانهار إسود عليك دا إنت شيطان ..

- تعرف أنا زعلان ليه

- ليه

- علشان الناس بتفكر إنى عبيط وهابائل ..

- يعنى إنت نمس عارف كل حاجة وساكت ..

- أنا عايز أشوفهم وهم بيعملو الفطير

- وأنا كمان .. إيه رأيك قوم وتعال نصلّى سوى فى المندره ..
- أنا فرحان علشان بتتكلم معايا كويس ..
- إنت أخويا وحبيبي .. تعالى نتوضى سوى فى حوض الطرنبه

..

.. ولّما كنا ندخل من الباب الكبير لنصلّى فى المندره وجدنا أم إبراهيم تدفع باب السور ولّما رأتنا أمامها قالت فى فرح :

- صحيتو يا حلوين من بدرى أوى ..

إبتسمت لها وقالت :

- إنت جايه بدرى أوى ..

- علشان أحمى الفرن للفظير ..

.. دخلت أمامنا قاصده فوق السطح لتحمل الحطب على ظهرها إلى تحت أمام الفرن .. وقعدت وأشعلت الفرن وراحت تغنى ونحن خلفها نضحك ومرّ وقت فيه صدحت البلاطه واحمرت وفجأه إنتبهت وقالت وهى تستدير نحونا :

- أمّال فين أمك وأمك لبيبه .. فين العجين ..

- أمى فى القاعه

- يالهوى مع أبوك ..

- أبوه ..

- مش العاده أمّال فين أمك لبيبه ..

- فى قوضتها ..

- ياريتنى ما ولّعت الفرن دلوقتى .. فين العجين وفين الخبازه ..

- إندهى لأمى ..

- لأ هاروح للبيبه إنت عايز أبوك يشرودى ..

ونفرت بابها ونحن نقف بجوارها :

- قومى يا أم إبراهيم أنا قدحت الفرن ..

- طيب روحى أنا جاية .. حميده صحيت

ضحكت أم إبراهيم ضحكة مكتومه وقالت وهى تدفع باب الوسط :

- قومی إنت صحّیها ..

وبسرعة توضأت أمی لبیبه من طلمبة الحوض وفرشت حصیرتها وصلّت ثم سبّحت قليلاً بعدها دخلت القاعة لتعاير الدقيق لعمل عشرين فطيره .. كما عقدت فی نيتها عشره للعروسه وعشره للبيت وهی تعلم تمامًا أن هذا العدد لن يعجب أم حسن التي قالت لها فی الليل مش أقل من عشرين فطيره ..

.. كانت أمی لبیبة تعرف بواطن الأمور فی بيت على حسن وأن الذی سیأكل الفطير أبناء إخوته .. إنه بيت مش واخذ على اللقمة الطريه والفطير عندهم ناشف وكل فين وفين لّما يعملوه .. خساره فی بطاينهم ولاد عبدالعال .. إش هاینوبها بنتنا من الفطير ولّا من غيره دول ناس جعانيين .. هکذا كانت أمی لبیبة تكلّم نفسها فی القاعه وهی تعاير الدقيق ثم وهی تعجن عجین الفطير وأنا محمد نضحك لكلامها ..

"الصباحية والفطير والنقطة"

ولما كانت أمى لبيبة تلت وتعجن فى عجين الفطير بعد أن خلطته بالماء وقليل من الملح، كان أبى يلت ويعجن فى القاعة مع أمى واستغرق ذلك وقت طويلاً حتى نادى أمى لبيبة قائلة :

- الشمس طلعت وبانت يالّه يالّى فى القاعة ..

وكنا ثلاثتنا نضحك من هيجان وثورة زوجة أبى حيث شعرنا رغم أننا صغاراً أن هذه لبيبة فى ثوب جديد بلهجة جديدة وصراحه لم نكن نعهدها من قبل فيها، وفتحت أمى باب القاعة وخرجت إلينا منكوشه الشعر .. شعرها القصير الذى يصل بالكاد إلى قرب كتفها .. كان شعرها جافاً خشناً مخاصم شعر النساء .. خرجت إلينا متبهله خائفة القوى شبه مكسوفه خجله .. ويبدو أن أبى قد أنتقم منها وكسّر عظامها وأفرغ ندمه على تزويج إبنته فأنزل بجسدها الغضب، ولقد تركته يفعل بها ما يشاء مستسلمه كأنها تقول .. أنا شريكه لك فى رمى إبنتى لهذا العاقر وأنا نفسياً فى حاجة لمن ينتقم منى أو ينال منى تكفيراً لعدم بذلى الجهد اللازم لمنع هذه الزواجه .. جلست عند الكانون فوق كرسى الأرض وأشعلت النار تحت حله الإستحمام وأمسكت رأسها بيدها كأنها تتوجع فقالت لها أمى لبيبة :

- مالك .. باين عليك إديتى أوى .. ما يستهلش ..

ضحكت أم إبراهيم وراحت تفهقه إلا أن أمى جالت بناظرها نحونا وكأنها تبحث فى وجوهنا عن شئ .. ياترى هم الأولاد داريين بحاجة .. مش عارفه .. دفعت فرع العنب إلى النار ومسحت أنفها بذيل جلبابها ثم هزت رأسها وابتسمت فى حزن ولكن فى شئ من إقناع نفسها بالرضا للمقسوم وقالت :

- كله بتاعه .. كله بتاع ربنا .. خلاص يالبيبة العجين على

التقريص "يعنى التقطيع"

- أيوه .. شهلى وحمّيه علشان يدوبك نخلص على الضحى ..

تفحصت أمى عجين الفطير بالقروانه (طشت أبيض متوسط الحجم معمول مخصوص لعجن الفطير والمخروطه ..) وقالت :

- العجين شويه

- يعمل خمستاشر فطيره
 - المفروض نوْدَى كام فطيره ..
 - عشرة كفايه ..
 - الناس تَعْيِب علينا ..
 - عشرة بكفايه .. مش هَمّ دول الناس إلّى تعرف القيمه أو تعمل لك واجب فى يوم من الأيام .. وخمسه لينا والعيال والأنفار فى الغيط ..
 - اللّى تشوفيه .. دى مواضيع من بلدكم وإنّت تعرفي الناس فيها أكثر مَنى ..
 - إحنا وقعنا وماحدّش سمى علينا
 - طيّب هانتكلم واحنا بنخبز يالّه قرصى الفطير
 - ماتحمّمش .. دخلى الحلّه وسيبيه يحمّى نفسه بكفايه عليه الدلع اللّى فات ..
 - معلّش يا لبيبّه مش هاياخد فى إيدى خمس دقائق ..
- ورحنا نلعب أنا وعبدالعزيز ومحمد .. نطلع فوق السطح ونبص على سطوح الجيران وكنت أتجنب النظر إلى بيت عبدالنبي هاده وشوق عسر وبيت حواش عوض، وأخذت إخوتى إلى وسط السطح وأشرت إلى مقاعد بيت الحاج حسن (وهى غرف تُبنى فى الدور الثانى بالمنزل ويسمّون الغرفة مقعد) وقلت لهم .. شايفين المقاعد دى .. هّى دى القوض (الغرف) اللّى فيها اتجوّزت سعاد .. كان بيت على حسن خلف بيتنا بعدة بيوت وعلى مسافه لا تزيد عن مائة وخمسين مترًا..
- فقال عبدالعزيز بصوت عال :
- أنا رايح لسعاد .. وجرى نحو السّلم ..
- جريتُ خلفه وأمسكته من ذراعه وقلت له فى حزم :
- هوّ إنت عبيط .. كلّنا هانروح لّما يعملو الفطير ..
- فرجع معى إلى بقية السطح ناحية التربة لنتأمّل ثلاثتنا بيوت القطان على اليمين وبيت زكى أبو شنب صاحب مكنة الطحين وصاحب أرض زراعيه يزرعها له

مجموعة من أولاد أبو شنب الفقراء وقد تناثرت عششهم فى حضان بيت قريبهم الغنى زكى أبو شنب .. كنت أشعر أن هؤلاء القوم الذين يخدمون عم زكى أنهم كتيبه مصفحه تعمل ليل نهار .. النساء فيها يعملن قبل الرجال والأطفال فيها أشداء .. كل فرد فى هذه الكتيبه يعمل من شقشقه النهار حتى بعد العشاء .. إنهم لا يملكون متراً واحداً من الأرض ولكنهم يملكون سواعد قويه جباره رأسمالهم العمل الشاق كي يعيشوا .. المرأه فى هذه الدار تجيد كل أعمال الغيط كما تجيد أعمال البيت .. حافيات أصحاب قمصان سوداء وأثمال باليه إنهم جحافل عامله ومكافحه كى يهزموا الحاجة وليرضى عنهم قريبهم صاحب الأرض .. إنهم دائماً تحت رجليه كما يقول الناس ..

وقلت لإخوتى مشيراً بيدى نحو العشش :

- شايفين دول .. أنا بخاف منهم وجسمى بيقشعر منهم وبصراحه دول مبوطين جسر الترعه أدامنا .. كان نفسى بيقه أدامنا ناس أنصف من كده ..

وطبعاً لم يستطع محمد أو عبد العزيز الرد على لأنهم لا يفهمون ما أقوله .. واستندنا ونحن نحتضن سور السطح ناحية اليسار قليلاً وقلت :

- السكه دى سكة رحيله اللى تودى تلوانه لجذك أحمد ..

ولم يرد أحد منهم ولكنهما كانا ينظران ويستمعان بشغف إلى أى شئ أشير إليه وأتحدث عنه ..

.. وهذا بيت عبدالواحد الشاذلى الرجل صاحب الصوت القوى ومشهور إذا قال له أحد سلام عليكم .. ردَّ بصوت قوى .. سلام والرحمه .. وهو علامه ممّيزه ومعروف عنه ثقافته لطبيعه عمله مع محامى فى أشمون حيث يعمل كاتب محامى وهو الرجل الوحيد فى الحته الذى يشتري الجورنال ويقرأ وهو جالس أمام بيته وكل من فى الحته غاوى يقرأ الجورنال يروح يقعد مع عم عبدالواحد ليقراً الجورنال أو يسمع منه أهم الأخبار .. فقال محمد :

- أنا سمعته مره بيقول عليكم السلام والرحمه ..

هزّيت رأسى لأخى الصغير وقلت له ..

- برافو يامحمد هو كده بالضبط ..

ثم أشرت مكماً دوراني حول من يسكنون حولنا .. وراء بيت عمك عبدالواحد شارع أبو سمك كله من أوله لآخره غجر أنصف واحد فيهم زكي أبو راكيه .. فقال عبدالعزيز :

- وانت في المدرسه رُحت لعبت فيه مره وفي يومها قلّعونى الجزمه وخدوها ..

- الجزمه الجديده ..

- لأ .. القديمه وعلشان كده ماقلتش لحد ..

- ماتروحش تانى الشارع ده ..

.. ثم كان من تحتنا معمل الحاج حسين للألبان الذى تركه الخواجه خريستو وزوجته منذ عام وهو الآن فى يد واحد مصرى اسمه عباس .. كل كام سنه يتغير واحد اللى يدفع أكثر ياخده .. وعلى فكره إنتوا شفتوا قاعة الغموس منشّعه من تحت وهاتقع لأن حسين عامل بير شرش للمعمل قريب من حيطة القاعه .. منه لله حسين هايوقع الدار ..

فقال عبدالعزيز :

- نردم البير ده .. وأبويا مايردموش ليه ..

- علشان ابن أخته ..

- يعنى يهد الدار ..

- هو أصلاً ما عندوش دم وعنده طمع فى أخواله .. دا ناهب

عمى محمود لأنه خاله شقيقه وكل ده علشان يعمل قرشين

يكوش بيهم على أرض ولاد شاهين ..

ثم شمننا رائحة الفطير فقلت لإخوتى :

- تعالو ننزل ناكل فطير ..

ولما نزلنا إلى وسط الدار وجدنا زوجه عمى محمود وابنتها نبيله يقمن بمساعدة أم العروسه فى عمل الفطير وكذلك وجدنا سعديه بنت عمى دردير جاءت لنفس الغرض .. وسمعنا زوجة عمى محمود وهى تغنى وسعديه تغنى وشوط آخر تغنى أم

إبراهيم .. وهذا الغناء والزبطه أسكت أمى لبيبه فى الحديث عن أولاد عبدالعال وعلى حسن وأمه فاطمه .. ووجدت حلتين كبيرتين حملت واحده منها أمى مجيدة القطان وبها كثير من الزيد وحلة أخرى حملتها سعيده بنت عمى دردير يمتلى نصفها بالظفر " الوز والبوط المذبوح " وبعد قليل دخلت علينا الحاجة أم سلامه بنت عمتى وهى تغنى وكلما إقتربت منّا علت بصوتها حتى قعدت على طبليه أمى لبيبه وأم إبراهيم ثم جاء بعدها مجيده بنت عمتى .. دخلت علينا وقعدت على طبليه زوجه عمى محمود وسعيده دون أن تغنى .. وتفرقنا على الطبالى أنا ومحمد وعبدالعزیز وراح الغناء يتوزع على كل الطبالى وكل طبليه تغنى أغنيه وأدارت أمى مفتاح الراديو العتيق حيث إستمع الجميع إلى قرآن الإذاعة دون أن تتطرق واحده بكلمة أغنيه، ثم غيّرت المحطه إلى محطه يغلب فيها غناء مطربين ومطربات وظاظ الجميع بين مستمعه ومغنيه وحكايه وكان من رأى مرات عمى محمود أن يزيد العجين ليزيد عدد الفطير وكان رأيها أن كل واحد بيودى قيمته بغض النظر عن الناس حلوين أو وحشين وأغضب ذلك أمى لبيبه غير أن أمى رجتها ألا تزعل... .. وراحت مرات عمى تضحك وتقول :

- آه مَنك يالبيبه .. هوّ إحنا الدراوشه .. إحنا مش هانبل على بنتنا ..

ولم ترد أمى لبيبه ولوت بوزها الناحية الأخرى وتمتت بكلمات عدم الرضا .. وقامت سعيده دردير لتعجن عجنة أخرى .. ومضى أكثر من ساعتين حتى إنتهى الجميع من عمل الفطير وتم بعدها خبز عيش وتم تلدينه .. وقامت أمى بوضع فطير على طبليه وطبق عسل إسود وجبن قديم حتى يفطر الجميع من فطير العروسه .. وبعد الفطور عملت مجيده بنت عمتى شايًا على نار المحمه وتناولن جميعًا الشاي وسط الغناء بالدور واحده بعد أخرى تغنى وترغرد وكانت أبدعهن فى الغناء بنت عمتى الحاجه أم سلامه حيث أنّها تحفظ كثيرًا من الغناء القديم المبدع وكُن يردّدن بعدها ويصفّقن .. ولّما بدأت كل واحده منهن لحمل صوانى الفطير .. دخل علينا إثنان من الشباب .. عبدالمنعم وزكريا إنهما أولاد خالى عبدالحميد جاءا بحموله للعروسه من بيت جدها أحمد .. ربط كل منهما حمارته فى شباك المندره بالسور

الخارجى ودخلا يحمل كل منهما قفه .. وألثف الجميع حولهما وراحت أمى تقبل ولدى أخيها ثم أخذت تخرج ما فى القفتين .. وعاء مملوء بالأرز المحمر وآخر بالمكرونة ثم وعاءين أحدهما فيه ظفر الدجاج والآخر به ديكين رومى محمرين ثم وعاء آخر به أرطال كثيره من زبده الجاموس وزبده البقر الصفراء وأخذت أمى زوجة عمى محمود من يدها ودخلت بها القاعة لتشاورها عمّا تأخذه من زواده أبيها لسعاد ..

وأخبرتها زوجة عمى أن هذا كثير وكفى أن توضع دجاجتين فقط مع حلة المكرونة ورطلان من الزبده فى سلطانيه على صينييه .. والباقي لأهل الدار .. طاوعتها أمى فى مشورتها غير أن أمى لبيبه لم تكن راضيه .. ولم يكن أبى قد عاد من الغيط ليتقدم النساء فى ركب فطير الصباحيه إلى إبنته العروس .. وعلى وجه السرعة شددت أمى عبدالمنعم وزكريا ليقعدا على طبلية ويأكلا الفطير والعسل ولمّا إنتهيا قام كل منهما وغسل يده من طرنبه الحوض ودخلا سوياً إلى عمتهم ليستئذنا بالعوده فقبلتھما أمى وانصرفا إلى تلوانه ..

.. طال إنتظار النساء لأبى ولكن جاء عمى دردير وجلس عند السور ثم جاء عبدالرحمن الصغير ابن عمى محمود لأن السيد أخوه الكبير تمرد على أبيه ولم يطاوعه فى الحضور الينا لأداء الواجب ثم جاء عبدالمنعم دردير والتفنا نحن الصغار فى شبه دائره وكنا فرحين لأننا رجال صغار وسنمشى أمام ركب الفطير .. وكان أول تجمع للصغار أولاد العم .. عبدالمنعم يكبرنى ثم أنا وعبد الرحمن وعادل ثم عبدالعزيز ومحمد سته رجال صغار كانوا سعداء بذهابهم لأول مره فى صباحيه سعاد أختهم وابنة عمهم، وكان قد بقى على صلاة الجمعة ساعة ويجب أن يذهب فطير الصباحيه إلى دار العروس قبل أذان الجمعة .. وسمع الجميع عطسة لأبى ونحن وهو يدخل البلده عند دار الحاج أمين .. وحمل النساء الصوانى ووقفن فى طريقة السور الخارجى .. فى مقدمه أبى وعمى دردير ثم نحن الستة من الغلمان الصغار خلف الكبيران ثم بدأ الركب يتحرك نحو دار على حسن وعلت الزغاريد من واحده لأخرى حتى دخل الجميع الدار التى تقع خلف بيتنا على بعد أمتار قليله .. ومكثت النساء وقتاً طويلاً عند العروس واطمأنن عليها .. وقبل أن تذهب كل منهن

إلى دارها أعطت النقطة للعروس، وكان الجميل أن كل ولد من الصغار أولاد عمي
نقطاً إبنة عمه وذهب كل منهم إلى داره بعد أن صلينا جميعاً في المسجد مع أبي
وأبي دردير ..

وبلغت نقطة أختي عشرون جنيهاً ممّا جعل أبي يشتري لها جاموسه حلاًّ به وبخرجها
شركه عند جوده النصيري فلاح من سكة رحيله، بعد ذلك علمنا من أختي كيف
تخرج فاطمه عبود أم على السمن للطبخ والبيض للقلّي وكيف يتم ذبح دجاجة من
وقت لآخر، ولم تستطع أختي أكل طعامهم الناشف الشحيح لكنّها تعودت بعد فترة
أن تأكل مثلهم مُرغمه، وكما يقولون كنا نرسل لها كل أسبوع اللقمة الطرية أو هي
تأتي إلى بيت أبيها لتأكل ما تشتهي .. وقالت أُمّي لبيبه لأبي .. إقبض .. ولسه
هاتشوف من ابن فاطمه .. وياريت على كده هاتخلف يا حداد .. عمرى ما هاسمحك
.. رميت بنتى رميه سوده وأنا كده خلاص إنت يا حداد دقيّت في نعشى آخر مسمار
للعيشة معاك، ولّما زهق منها فى يوم من كثره ردحها له .. قال لها مش معاك
عبدالعزيز .. فقالت له عبدالعزيز مين دا مرّهقنى فى عيشتى أنا كنت مستحملاه
علشان أخته .. دا سرسوع وزرزور ماحدش يطيقه .. مما جعل أبي يفكر كثيراً كيف
يرضى لبيبه ؟

"قرار لببيه بالهجره إلى مصر"

وانكفأت على مذاكراتى آخذ دروسى وأعود إلى البيت لأستذكرها بقوة والذى لا أفهمه أحفظه، وكنت أحب ماده الجغرافيا والخرايط والمناخ والتضاريس والنشاط السكانى، كانت الجغرافيا تخرجنى إلى بلاد كثيره كانت الهجره النفسيه عندما أتضايق من واقعى أو من واقع من حولى .. كانت الجغرافيه علاجاً لأى مأزق نفسى أمرُّ به أو أضجر من تكرار أحداث البيت والحقل، ثم أحببت التاريخ لكننى كنت أكره بعض فصوله التى تحكى عن الحرب ولم أكن أطيق كلمة العسكر ..

.. كالعاده كنت أقفل المندره بالترباس من الداخل فلما أتعب من المذاكره أنام قليلاً على الكنبه أو أقَلِّب فى كتب ومجلات الكرتونه التى أهدتها لى سميره وبدأت أفهم ما فيها ولكن بعقليه غلام مازال جاهلاً .. فأنا على أعتاب العلم وعلى أبواب الحياه التى لم أدرك من أحوالها إلا القليل ..

وكانت عندى تساؤلات وعلامات إستفهام لاحصر لها ولكنى كنت أكتمها وأؤجلها حتى أنتهى من إمتحان القبول الذى سيخرجنى من هذه المدرسه إلى مدرسه أخرى عسى أن تكون أفضل .. وكان نفس الإهتمام من أمى فى طريقه إطفامى أمام الكانون أو إدخال الدجاجه بالشوربه لى فى المندره لألتهمها وحدى وكانت تتخلّص من عبدالعزيز ومحمد بأن ترسلهم مع أبى إلى الحقل أو تقفل على عبدالعزيز غرفة أمى لببيه لأنه كان دائماً يطرق بابى ويصرخ لأنه كان يريد أن يعرف ما سر قفل باب المندره الدائم على، ولما كانت تخبره أننى أذاكر .. كان يقولها لها أذاكر معاه .. وكانت أمى عندما تملُّ منه تزغده وتضربه حتى يسكت .. أما محمد فكان سهلاً فلم يطرق بابى ولم يدخل على دون موافقتى وكانت أمى تشغله فى أن يلعب فوق السطح بكرة شراب محشوه قطن .. وكان عبدالعزيز كما يقولون طفل عفش .. كان يغوى مسك الكلاب الصغيره من السكه ويأتى بها إلى داخل البيت غايه أن يربّيها حتى تكبر وكان يحب القلط ويلعب بها فى حجره مما كان يسبب لأهل البيت مشاكل كثيره نتيجة تربيته الكلاب الصغيره والقطط .. وكانت أمى وأمى لببيه تجدان صعوبة كبيره فى إثثائه عن دخول الكلاب والقطط الغرف التى يجب أن تكون نظيفه

.. ولم يستطع أبى إثناؤه عن هذه الهوايات التى تجلب للبيت وأفراده الكثير من التعب ..

وفى يوم قالت أمى لبيبه لأبى :

- خد الواد دا الغيط
- إزّأى .. آخده إزّأى ومين يراعيه ..
- هات له واحده من نسوان الأنفار تقعد معاه
- يعنى إنت مش عايزاه ..
- خَلّيه يسيب القوط والكلاب
- مش قادر عليه
- الواد دا مكانه الغيط .. وما حدّش هاتقدر عليه لّما يكبر
- هاييقه من العيال الباتعه .. على فكره أنا زهقت ومش قادره عليه .. خده مّنى إديّه لأمه ..
- أمه مش هاتقدر عليه زهقانه منه أكثر منك ..
- شوف يا حداد أنا بصلّى والقوط والكلاب بتنجّس فرشى ومصليتى حتى الصلاه مش قادره أصلها صح ..
- والعمل ..
- إعمل له قوضه فوق السطح ..
- حتى لو عملت كده هاتبقى لوحداك .. مش ده كان عيّل من عيالك ..
- لّما كان صُغِير .. دلوقتى بقه بتاع قوط وكلاب ومش طايقه عمايله .. إديّه لأمه ..
- مش عارف أعمل إيه ..
- شوف أنا مابقتش طايقه نفسى .. زهقت بعد سعاد مش قادره أقعد فى البيت
- مش فاهم ..
- لّما أتخنق خالص هاروح أقعد عند حد من إخوانى ..

- يانهار إسود ..
- معلّش يا حداد لّما العيال كبرت أنا مش قادره أستحمل نفسي ..
- يعنى مش عبدالعزيز لوحده ..
- شوف بلاش تفاصيل أكثر من كده .. سيبنى أفكر ..
- تفكرى فى إيه ..
- أروح عند مين من إخوانى
- وتسيبنى ..
- تبقه تعال ..
- أقرب واحد ليك مين
- أمين .. أمين قاعد فى مصر وأنا زهقت من البلد كلها عايزه أهج منها
- بس مصر بعيدة على ..
- تعال كل شهر مره ..
- إنت بنتكلمى جد ..
- أنا فكرت كثير أوى .. أنا مش قادره أقعد .. الدار لعيالها ..
- والأيام الحلوه فى القاعة ..
- ضحكت فى قهقهه للحظات ثم قالت فى حزن :
- كل حاجة لها نهاية .. خلّى القاعة لحميده ..
- إنت لسه بتغيرى من حميده ..
- على فكره حميده مايتغارش منها .. سبعة إردب تمانيه إردب
- ومش بتاع رجّاله علشان أغير منها .. حميده دى أم بس وأم
- لحسن بس .. أكبر حاجة فى حياة حميده حسن إبنها ..
- وعلى فكره هى مش زعلانه على سعاد أدّى ..
- مابقتش فاهم حاجه ..

- على العموم يا حداد أنا مش هاقدر أقعد وقريب هامشى .. وإذا كنت بتحببنى زى زمان تبقة تعال مصر ..
- راح أبى يقهقه رغم إندهاشه من قرارها ثم طفق قائلاً :
- المشكلة إن مصر مافيهاش قاعه ..
- المهم بيقه فيه قوضه تشوفنى فيها ..
- القاعه .. القاعه .. من غير القاعه مش هابقه ميه ميه ..
- مش فاهمه ..
- مش مهم تفهمى ..

ومرت أيام أخرى وبقي على الإمتحان عشرين يوماً وكان بعض التلاميذ فى الأيام الأخيرة يذكرون مجموعات وعرض على أحد التلاميذ ذلك فقلت له إننى لا أحب الدوشه ولا أستطيع تغيير برنامجى وطريقتى فى مذاكرة دروسى، وكان زميل آخر قد حكى لى فى يوم أن بعض أولاد الدرس يريدون أن يذكروا معك فى بيتك فلما قلت له ومش معنى أنا فقال لأن عندك ترائيزه وكراسى فرفضت فى هدوء لأننى لا أريد أن يضطلع أحد على خصوصيتى خاصة أننى أقرأ فى كتب الكرتونة بين أشواط المذاكرة، ولم يكن أحد فى قريتى من الغلمان لديه مثل هذه الكتب والمجلات مما يجعل ذلك حديثاً بينهم فيه كثير من السخريه، وكنت متأكداً تماماً أن أمى سترفض لأنها لا تريد أن أختلط بأبناء دراستى لأنهم نفس فصيلة أبناء الشوارع حولى، وكنت أجد فى وحدتى سعادته لأحد لها .. فأنا متأمل وصامت لكل شئ حولى مما يجعل وقتى ملكى وحدى دون أن يضطلع عليه أحد.. وكنت أرى فى إنطوائى على نفسى أغلى شئ فى حياتى وأننى مضطر للإختلاط مع التلاميذ أقرانى فى أوقات الدرس الجماعى الذى بعده أقر من دار المدرس عبدالمحسن إلى دارى تاركاً كل الأولاد خلفى، وكنت مضطراً لأن أذهب إلى الدرس الآخر فى درب العرب لأن المدرس محمد طراد أحببني فيما أتلقاه منه، وكنت أجد متعة كبيره فى سماع وجع وآهات أبيه الشيخ الكبير الذى كان يجلس فوق السطح فى آخر التكعيبه التى نجلس تحتها،

وكما كنت أستمتع بأنين وجعه وهو يقول آه .. آه .. كان شرح ابنه للدرس يجد طريقه إلى نفس أعماق نفسى مثل وجع أبيه ..

ولما كنت لا أحب أرى غلمان قرىرتى يرتدون القمصان الفلاحى التى يرتديها أنفار الغيط أثناء عملهم وكذلك فإن كل الرجال عدا الأنفار يرتدون هذه القمصان التى تغطى سيقانهم حتى أسفل الركبه، ولم يكن هناك فى قرىرتى فى هذا الوقت من يرتدى الفانله ثم السروال تحتها (اللباس) وكان السروال طويلاً قد يصل حتى القدم، وكانت هذه القمصان يتم تفصيلها عند الترزيه الذى يحيكّون الجلايب الفلاحى والصديري، وكانت هذه القمصان والسراويل من قماش الدبلان أو النمر، ولم يكن فى ناحيتى من يرتدى الفانله والشورت المصنوعان من قماش الفانله غيرى أنا وإخوتى والفضل فى ذلك يرجع إلى أمى التى كانت تنتقد بشده من يرتدى هذه الأرديه الغشيمه والخاليه من الذوق .. وكانت تقول .. كيف يذهب الأطفال والغلمان إلى مدارسهم كما يذهب الفلاحون إلى حقولهم بنفس الملابس .. ولما كان الأطفال والغلمان فى قرىرتى يعلمون أن واحداً منهم يرتدى الفانله والسروال الأنيق كانوا يعييون عليه ويسخرون منه بل ويقولون أن هذا الولد مش راجل وتنقصه الرجله لأنه يرتدى ملابس داخلية قريبه من ملابس النساء، رغم أن النساء فى قرىرتى يرتدين ملابس داخلية مثل الرجال لكنهم كانوا يتصورون ذلك، وكنت حريصاً على عدم إظهار ماذا ألبس من ملابس داخلية حتى لا أتعرض لهجومهم وسخريتهم، وهكذا كانت تسرى المعتقدات والأفكار المتخلفه والغيبه بين أهل قرىرتى والتى لم يكن أحد يستطيع إيقافها أو التصدى لها .. وأعود إلى زميلى الذى كان يذهب معى إلى درس درب العرب .. كنت أكره الذهاب معه لإرتدائه هذا القميص وأنه يُعتبر القبقاب أحدث تقليعه لإرتدائها فى القدم .. واستطعت أن أتغلب على الذهاب معه بأن كنت أذهب وحدى إلى الدرس وأنتظر تحت التكعيه حتى يأتى، وعندما كنا ننصرف أمشى معى قليلاً ثم أقول له .. تعال سابقنى فى الجرى ولم يكن يستطيع الجرى معى لأنه كان يرتدى القبقاب ولم يكن هدفى أن أجرى وكان هدفى التخلص منه .. وكان زميلى يجد فى طرقة القبقاب بالأرض لذة كبيره حيث يلتفت الناس اليه ويبتسمون، وكان كثير من الناس يسأله من أين إشتراه حتى يشترون مثله ..

وفى كثير من الأيام كان عبدالعزيز يدخل غرفتى ويقَلِّب فى كتبى المدرسيه وغيرها من الكتب، ولَمَّا بدأ يمزق بعض أوراقها إشتكىْتُ لأبى فضربه بشده على وجهه وراح ييكى بلا كلل وكانت أمى لبيبته ممتته فى قلبها لضربه لأنه كان فى أيام يفتح دولابها ويعبث بمحتوياته وفى يوم كنت أستريح من مذاكرة دروسى وأجلس على مصطبة الفسحة الخارجية وكانت أمى لبيبته تصلّى وأمى تقضى أعمال البيت فى غرفه الداخليه .. ولَمَّا كانت كعادتها بعد الصلاه تسبّح على مسبحتها بصوت هامس كنت أسمعهما وأرتاح لها كثيرًا .. وفى هذا اليوم أمعنت النظر إلى وجهها فوجدته بشوشًا وكانت تغمض عينيها كأنها تتعس فقلت لها فى رقه متناهيه :

- أنا مبسوط منك أوى ..
- ليه يا حسن ..
- بتقعدى كثير تصلّى وتبسّجى ربّنا ..
- ما عنديش حاجة تشغلنى
- أمى وأبويا بيصلّو بسرعه ..
- علشان وراهم عيال .. أصل العيال بتتعب أهلها وتوترهم .. وأنا .. وسكتت .. فقلت لها :
- سكتنى ليه .. قولى ..
- كنت الأول بصلّى بسرعه علشان أشوف سعاد عايزه إيه .. لكن دلوقتى ما عدشى ليه حد ..
- يعنى إنت زهقت وزعلت بعد سعاد .. طيب ما عبدالعزيز كان معاها وكنت مستحمله ..
- كان صغير وكانت أخته بتلهيه وممكن يكون بقه شرس بعدها، لكن دلوقتى بيحط هُمة فى اللّى حواليه .. هُو أبوك ما قالشى أدّامك
- على إيه ..
- إنى ماشيه ..
- فين

- على مصر
- أيوه بس المره دى مش زيارة هاتتى هناك على طول ..
- إوعى تعملى كده أنا هازعل أوى ..
- بجد يا حسن
- آى والله
- بس إنت طول عمرك بتبعد عنى ..
- كنت زعلان منك علشان قرابيك كانوا بيضايقوا أمى ..
- هم كانوا غلطانين يابنى لكن أهى فتره وكل واحد راح لحاله ..
- أنا مش عايزك تمشى .. حبيبتك أوى لما لقيتك زعلانه على
- سعاد وحبيبتك أكثر لما لقيتك بتتصحى أمى على حالنا من
- ولاد عبدالعال، أقصد على حسن وأمه ..
- إحنا فى الآخر واحد ومصلحتى إن ربنا يبارك فى دار ابن
- عمى أبوك .. أصل أنا عارفه البلد أكثر من أمك .. طيب
- لما رُحنا هناك كتير بعد الفرح ماقدموش لينا التوتيه ولا حتة
- كوباية شاي من غير سكر .. وكانوا بيقدموا لينا الكحك
- بتاعنا ولما خلص خلاص ..
- شيوخ وبيقولوا قال الله وقال الرسول وما يعرفوش أى أصول ..
- شوف فيه ناس فى العيله بيعرفوا الأصول من غير التمحك فى
- الدين .. الدين مش عايز كلام ولا تمحيك .. الدين أصول
- ومبادئ وكرم .. الدين معاملته .. شوف يا حسن التربيته هى
- الأساس والبيئه ..
- يعنى أختى راحت فى بيت شح ..
- وياريت هاتخلف ولا فى بيت كريم .. شوف أقرب حاجة ..
- وسكتت ..
- أقرب حاجة إيه ..

- خد مصلحته وماقدرشى على نفسه يروح تلوانه ليشكر الست
- جليله مرات عم أمك اللى نقلته من إيشان فى كفر الشيخ
- وجابته بلده ..
- وماحدش قال له روح أشكر الست دى ..
- أبوك وأمك قالوله كتير وهو ولا هنا ..
- يعنى واحد ما عندوش دم ..
- أهى دى أقل قواعد الذوق ..
- دا بيخطب فى الجامع .. للأسف خطيب فى الجامع ..
- لو فيه راجل فى الحته كان ينزله من على المنبر ويقول مش
- إنت اللى تخطب فى الناس ..
- اللى يخطب فى الناس لازم يكون راجل صالح فعلاً .. والبلد مليانه ناس صالحين
- بيخطبوا فى الجوامع بس فيه قله تعبانة يا حسن ..
- والحل إيه فى أختى اللى وقعت ..
- أبوك رماها كأنه دفنها دى أكبر غلطه غلطها فى حياته ..
- طيب أبويا يطلقها ..
- مش ها يحصل .. من دلوقتى هاتقعد على أد ما تقعد وفى
- الآخر هاتطلع من الدار دى أكثر من صفر وعوضى على
- الله فيها ..
- طيب دا كوم ومشيك كوم تانى ..
- دى راحتى وأنا هانتى آجى أزوركم وأشوفكم ..

كان هذا الأمر محزنًا وحاولت ألا أفكر فيه الآن حتى أركّز فى تحصيل دروسى، وفى هذا اليوم عندما أبلغت أمى قبل أن أنام بنية أمى لبيبه ذهبت إليها فى غرفتها وقفلت الباب حتى تتحقق من هذا الأمر .. وبعد ساعه من وجودها بخصوص هذا القرار خرجت أمى من غرفتها باكيه وكنت متلهفًا لأن أعرف نتيجة لقائهما وفى أول الأمر لم تجبنى أمى وكان وجهها متجهما فتركتهما حتى تهدأ ورُحت إلى إستكمال

المذاكره، وفى الليل كان أبى ساهداً شارداً فأخذته أمى بعيداً عنى لتسأله عما حدث فى هذا الأمر .. جلسا قُرب الفرن وراحا يتحدثان فى همس لكننى تركتُ كتبى وأخذت أُنصت عليهما خلف باب الخزنه (غرفة نومى) حيث قالت له أمى :

- عرفت بموضوع لبيبه ..
- عرفت
- وهاتسيبها تمشى ..
- خَلَّيها براحتها
- الناس هاتقول كرشوها
- مش مهم الناس .. المهم دى راحتها ..
- أنا حزينه لمشيها ..
- والله إذا كان دا صحيح بيقه شئ طيب ..
- ماتعرفشى أنا فى السنه الأخرانيه دى حبَّيتها أوى ..
- كويس
- إنت أعصابك بارده أوى ..
- يعنى هاعمل إيه
- طيب بلاش دلوقتى لِّما حسن يمتحن ..
- هاقولِّها ماتمشيش دلوقتى لِّما حسن يخلِّص إمتحان..

وسكتا .. ولِّما عرفت نهاية الموضوع إنقلبت إلى المندره من الباب الداخلى ورُحِت أذاكر دروسى بلا تركيز، وبعد قليل جاءنى النوم فأويتُ إلى فراشى قبل أن أتناول وجبه العشاء .. ومَرَّت أيام أخرى كثيره بعدها أديتُ إمتحان القبول وأنا أشعر أننى وفقت فى أدائه، نمتُ يومين فى فراشى واستكنتُ فى الدار مع أمى أحكى لها وتحكى لى وكانت أمى لبيبه فى هذه الفتره بعد الإمتحان قد ذهبت فى زياره إلى أخيها نجيب فى شروة حسن، وكان عبدالعزيز يغوى محمد كل يوم بعد الضحى ويذهبا إلى الغيط وحدهما أو مع أبى، وكانت أمى تسعد لذلك حتى تتجنب شقاوه عبدالعزيز وتستطيع أن تطعمنى الطعام الخاص دون أى مشاكسه من الغلام السرسوع ..

.. فى أثناء وجودها عند نجيب أطلعتہ عَمَّا تنتويه فقال لها فى حزن :

- يعنى إنهزمت ..
- وانت عايزانى أعمل إيه ..
- يعنى هَیْ خادته كله بأرضه وولاده ..
- عمرى ما حسبتها كده .. الولاد من عند ربنا والأرض هاينوبك إيه منها مش هَیْ دى أرضه عايز منها إيه..
- إذا كان كده مالوش بطاطس عندى ولا تقاوى ولا هازرعها..
- قولهُ من دلوقتى يعمل حسابه أحسن تقوته الزرعه ..
- لأ سيبیه مش هاقوله ..
- حداد غلبان وأنت بتضحك عليه كل سنه وبتجيب له تقاوى مغشوشه
- على العموم كنت باخد رزقى .. إمتى ها تمشى ..
- حسن خلّص إمتحان .. فى أى وقت هامشى ..
- هاتيجى عندى ..
- المكان اللّی يريّحنى .. رغم رزالتك لكن بحب أقعد عندك ولّما أزهب هاروح عند أمين فى مصر ..
- خدى منه فلوس كفوك ..

وعلى مضض قالت :

- طيّب يا نجيب ..
- .. وفى اليوم التالى أرسلت مع واحد من شروة حسن رساله إلى حداد ابن عمّتها وزوجها .. تقول له .. إعمل حسابك نجيب السنه دى مش هايجيب تقاوى البطاطس ولا هايزرعها .. إتصرف من دلوقتى .. ولّما وصلت أبى الرساله شعر ببعض القلق وعرض الأمر على أمى التى أسعدها ذلك وقالت له مرّجّه :
- أبويا أحسن واحد يزرع بطاطس فى تلوانه ..
- والتقاوى ..
- صديقه المقدّس سعد يجيب لك أحسن تقاوى بطاطس ..

- أنا مكسوف أقول لأبوك ..
- روح بكره تلوانه وقول لأبويا هاتشوفه يعمل إيه ..
- .. وفى اليوم التالى بعد الضحى ذهب إلى جدى فى تلوانه ليعرض عليه الأمر ..
- وراح جدى يتدبر ترتيبات عمله الزراعى فى الأيام المقبلة التى فيها ينتهى الفلاحون من زراعة البطاطس وهزّ رأسه وقال فى ثقّه :
- التقاوى والزراعه سيبها علىّ السنه دى ..
- معلّش أنا هاتعبك .. إنت تعبان وعيان وأنا هازوّد عليك التعب
- لأ .. مالکش دعوه بتعبى .. هاجى شنشور أزرع لحسن البطاطس ..
- أد كده بتعبه ..
- أمّال هاحب مين يا حداد ..
- .. كان ذلك فى منتصف عام ١٩٥٧ وكنت أسمع أن جدى مريض بسرطان الأنف وازداد عليه مرضه بعد موت ابن عمه المستشار عبدالقادر فوده والذى مات فى عام ١٩٥٤ .. حزن عليه كثيرًا حتى أنه كان لا يذهب إلى غيطه أيامًا من شده مرضه وكان يأتيه طبيب من منوف كل أسبوع ليتابعه، وكان يرعى كل الأمور المتعلقة بأرض ومواشى عبدالقادر فوده كأنها خاصه به، وكانت السيدة جليله عبدالله ابنة عمدة تلوانه تثق فى شطارته وقوه شخصيته وأمانته فأوصت له بكل أمورها وأمور زوجها المرحوم عبدالقادر ليديرها ويحصدها ويجنى أموالها خاصة أن هذه السيدة كانت كثيره السفر إلى مصر لظروف عملها كمديره عامه فى التربيه والتعليم وكانت تسكن فى حى العباسيه بجوار كليه الشرطه، وفى هذا اليوم وقبل أن يعود إلى بلده تناول مع جدى الغداء وانصرف بعد أن طمأنه جدى بأنه بعد أسبوع سوف يكون عنده بتقاوى البطاطس وفى يوم الزراعه سوف يكون معه المقدس سعد أبو البطاطس فى تلوانه وعمدة النصارى وصديق جدى الحميم..
- .. إطمأن أبى وشكر الله لأنه رزقه وعوّضه عن تحكّم نجيب فيه، وكانت عادة جدى بعد موت عبد القادر فوده أن يذبح عجلًا ويوزّع ما استطاع على الفقراء والمحتاجين

والباقي للأقارب وأهل البيت وكان غالباً ما يؤزّع نصفه على الفقراء رحمةً على قريبه، وفي هذا اليوم لابد أن يحضر الذبيح والطبيخ أُمى وخالتى فهيمه وأقاربه من الرجال والنساء فى تلوانه، وفى صباح هذا اليوم ذهبت أُمى كالعاده كل سنه وركبت أمامها الركوبه حتى وصلنا إلى دار جدى التى تقع عند الترعَة الكبيره فى منتصف المسافه بين هيت وتلوانه وعند زاوية الطريق المؤدى إلى مدينه منوف وقرب عزبة سعد عطيه ..

.. وكنت أجد متعه كبيره فى رؤية كيفُ يذبح العجل ويتم سلخه وتقطيعه وكيف يقوم أهل الدار بعمل الفته وسلق كميات كبيرة من اللحم وتقديمها فى أزيان للضيوف وكل من حضر فى المندرة الكبيرة .. وكان قبل الطعام يتم عمل حضرة وذُكر من جماعة من الرجال فى نفس مندرة الجلوس وأمام كل الضيوف الذى يشترك معظمهم مع جماعه الذُكر من ترتيل للقرآن ودعاء طويل للميت وكانت هذه الحضرة تستمر لمدة ساعتين، وكان جميلاً أن أرى كل ذلك أمامى وأستوعبه والحقيقه أننى كنت غير قادر على إستيعاب هذه العادات التى تعمل فى ذكرى المتوفى والترحم عليه، وكيف أن أهل أُمى أوفياء لموتاهم .. ولم يكن فى بيت جدى على كما سمعت أو فى بيت أحد من أعمامى أو أقاربى فى شنشور شيئاً من هذا البته .. وكنت أحرزن فى داخل نفسى وأتساءل .. ولماذا فى بلد أُمى فقط هذه العادات والذكريات الجميله والتى لا يقوم بها كما علمت إلا القادرين من الناس..

.. كانت أُمى تحب أن تأكل رأس العجل فقطعوها لها وأعطائها جدى كثيراً من اللحم ولما قالت له أُمى :

- دا كتير يابه ..
- المنقوله تاخذ أكثر من أخواتها .. وبعدين علشان تطبخى من اللحم فى يوم البطاطس
- بطاطس إيه ..
- أنا جاى قريب ومعايا المقدس سعد نزرع لكم البطاطس
- هاتيجى تنور البلد

ولما دخلت إلى أمها تسلّم عليها مودعه قالت لها أمها :

- وده جاهز للعيال ولبييه

- كمان يأمه دانا خدت كتير ..

- هو أنا باشوفك غير كل فين وفين ..

.. كانت حله نصفها فتّه ونصفها لحمه .. قبلّتهم جميعًا ولّما خرجت كان زكريا ابن خالي يضع فوق ظهر الركوبه خُرجاً (وهو مثل الجراب له فتحتين يوضع فوق ظهر الحمارة لتضع فى جيوبه الكبيره كل متاع من طعام وخبز وفاكهه بعدها يركب من يركب فكل ما تحملها الركوبه بعيدًا عن ظهرها لا يزاحم الراكب فهو يتدلى على جنبى الركوبه .. وكان فى البيت أكثر من عشرين سيده زوجات خالى وعمّات أمى وأخوتها البنات وصديقات جدتى هذا غير مجموعه من الشغالات .. حتى أن أمى تعبّت من كثره السلام والقبلات .. ونادوا على جدى من المندره لتودعه أمى وكان وداعًا حارًا وراح جدى يدعو لها حتى خرجت الركوبه من باب السور الخارجى وكان الوقت ينتصف ما بين العصر والمغرب حتى تكون الشمس حنيّنه على رأس أمى وأنا رغم أن أمى تفرّد فوق رأسنا شمسيه لتحميننا من أشعة الشمس (شمسيه تعنى مظله) ويقولون عن هذا الوقت (طراوة العصريه)، وكنت سعيدًا لّما راحت أمى تحكى لى عما حدث أمامها فى بيت جدى وكيف التقت بعماتها هانم المتزوجه فى قلتي وأمينه المتزوجه فى تلوانه، وأسهبّت فى الحديث عن الشيخه صبحه التى كانت تتشد أناشيد دينيه وسط النساء وكيف أن بعضهن كن يردّدن معها وختمت الشيخه صبحه أدعيّتها بالدعاء للمتوفى عبدالقادر فوده والذى أخبرتني أمى بأنه مات وهو يضع رأسه فوق زجاج سيارته والذى مات وهو فى منتصف العقد الخامس من عمره، ولّما إقترنا من فيلته المقامه على الطريق المؤدى إلى شاطئ البحر .. قالت لى أمى فى همس :

- الفاتحه

وقرأت معها الفاتحه ثم قلت لها :

- على مين ..

- شايف الجامع شايف المبنى الصغّير اللّى وراه ..

- هو دا قبر عمى ..

- مش فاهم ..
- لَمَّا مات عمى فجأه دفنته زوجته فى مقبرة من مقابر فوده
وبعد الدفن بخمسة أيام كانت حرمة الكريم قد بنت القبر
وطلسته ودهنته من الداخل والخارج ثم حصلت على إذن
بنقله من مقابر العائلة إلى مقبرته الخاصة وهذه كانت وصية
كل منهما للآخر وأن يبني مسجدًا أمام القبر وكما ترى يابنى
القبر خلف المسجد وكلاهما ملاصق للفيلا واعتبر الناس
جميعًا خاصة من أهلنا أن الست جليلة عبدالله زوجة عمى
سيده عظيمه لأنها قامت بتنفيذ وصية زوجها على خير ما
يرام .. ولَمَّا إنتهت أمى من حكايتها الغريبه كُنَّا نقترّب من
كوبرى قلتي فقلت لها بعد أن شطحت فيما روته :
- دى حاجة غريبه .. هوّ كل الناس الأغنيا بيعملوا كده..
- دى حاجات ما بيعملهاش إلاّ قليل من الناس .. فى كل البلاد
حوالينا عمرنا ما سمعنا كده ..
- فى بلدنا فيه ..
- مافيش .. فى شنشور ما بيحصلش الكلام ده .. الناس فى
بلدكم يا حسن بتهتم بالطين والأرض والسوق والبهايم .. الناس
فى بلدكم المعانى الجميله والنبيله مالهاش مكان فى حياتهم
.. الناس فى بلد أبوك جابرة حياه .. إوعه تزعل مَنى يا حسن
دا واقع هنا وهناك ..
- طيّب أنا أعيش زى مين ..
- عيش زى الناس فى بلدك ..
- وليه مايكونش لى معانى زى الناس قرايب أمى ..
- دى حاجة مابتجيش بالكلام ولا بالتمنى ..
- أنا محتار ..
- لسه بدرى على الحيره يا حسن ..

وأشرت بيدى نحو دار الشافعى وقطب شاوئش وقلت :

- مش هى دى دار الطيبين
- أيوه يا حسن والله يابنى تروح الدنيا وتيجى وتحيا ناس وتموت ناس عمر ما حد ييجى فى طيبة وأخلاق الناس دى ..
- ولا فى تلوانه
- ولا فى تلوانه .. عمرى ما شفت ناس فى الجيره دى كلَّها ولا سمعت زئهم ..
- يعنى كل بلد فيها وفيها ..
- فعلاً ودى عظمة ربنا علشان الدنيا تعمر وكل حتته وليها ناسها .. وانت لو بصيت للدنيا حواليك عمرك ما هاتلاقي بلد زى بلد ..
- يعنى غلط أقول أبقيه زى مين ..
- طبعاً غلط .. تبقيه زى نفسك وانت ماتعرفشى بكره لأن بكره بتاع ربنا ..
- آه يا قلبى يامه .. قلبى وجعنى ..
- لأنك شاغل نفسك بحاجات أكبر منك
- ودى دار مين .. يانهار إسود على الكلب ..
- دى دار شعبان الخواجه ودا كلبه ..
- الكلب عايز يطلع على ظهر الحماره ويهبرنا ..
- تعرف يابنى الغريبه فى إيه .. إن الناس قاعده أدام الدار وسايبيته على الناس وما فيش حد بيحوشه ..
- أهم دول نوعيه من الناس برضه ..
- دا أشرس كلب فى رحيله ..
- تفتكري الكلب بيبكون زى أصحابه ..
- أهو دا سؤال صعب ما عرفش أجابه ..
- ودا كباس مين ودى دار مين ودى كلاب مين ..

- دى كلها بتاع الصاوى
- وليه الكلاب نايمه كده فى الجرن ولا حس ولا خبر ..
- الكلاب دى بتاكل كتير وعلشان كدة بتنام ..
- أنا دُخت .. عايز أنام لَمَّا أروّح ..
- خلاص وصلنا ودى دار عبدالله أبو إسماعيل
- دى دار فاطمه ..
- أيوه فاطمه الشرّحه الطويله ..
- دى حلوه أوى يامّه .. أهى دى فلاحه وحلوه .. أهى دى
- الفلاحه الوحيدده لَمَّا كانت بتبوسنى وأنا صغير كنت بشم
- ريحه حلوه ..
- علشان فاطمه دى أصلها من الكفر
- أنا بحب الكفر أوى يامّه ..
- أنا عارفه ياحسن ..

"موت أم إبراهيم ومرض جدي"

.. منذ فترة طويلة وأم إبراهيم شرفه الشغالة المخلصة مريضة تأتينا يوم وتغيب عشرة، وتكفلت أمي بعلاجها ودوائها لحبها لها وكانت تذهب لزيارتها في دارها التي تقع في شارع شعبان فرج وكنت أذهب معها في كل مرة، وهذا الشارع يسكن فيه ناس أقل مستوى من شارع أبو سمك نفسه ولكن العيال فيه غالبة، وكان ما يعكّر صفو هذا الشارع منذ سنوات أن شأنه كانت تسكن فيه هي وأبنائها وإخوانها وإخوتها الرجال، وفي هذا الشارع دار الست الحلوة العاشقة لرجل من غرب البلد وعلى عينك يا تاجر أمام زوجها يدخل ويخرج ويقول له العيال يا عم حنفي.. وهذه المرأة العاشقة لرجل واحد نموذج فريد يختلف عن نساء البلدة وعن رجالها في حالة زوجها الرجل المكافح الذي ينكفئ في غيطه يعمل ليل نهار وخلف حمارته بالسباخ والرتش ووسط بهائم منعك في النيلة من أجل أن يحوش كل سنة أرض وهو رجل موطي نذل ديوس ولكن هو لا يعرف عن نفسه هذا ولكن هو يعتقد أنه رجل عادي تزوج من امرأة جميلة ترضى عنه إذا تركها في حالها وهو بطبيعته يحب يوطي ومراته تركبه زي ما في شيمة بعض الرجال وكان دائما يقول:

- أنا ماسواش حاجة واتجوزت أحلى واحدة وخلفت منها بنات حلوة كلهم اتجوزوا في مصر رجالة غريبة وغنية.. مافيش بنت من بناتي ممكن تكون فلاحه وترضى تقعد في بيت فلاحين تخبز وتعجن وتحمي الفرن وتساعد جوزها في الغيط.. أنا بناتي جمالهم خرّجهم من البلد واتجوزوا ناس ذوات في مصر.. مافيش حد زيي في العيلة أغنى واحد في عيلتي بناته إتجوزوا في البلد..

.. وكانت زوجته تسمع كلامه وأفكاره وتسعد بها لأن هذه معتقداته والتي منها سعادته والتي منها أيضا يعتبرها كنز داره وهو رجل دماغه كبيرة متفتح حر رغم أنه من طينة الفلاحين الأجلاف.

.. وكان هذا العاشق يأتي في أي وقت وكالعادة إذا وجد العاشقة وزوجها يتناولان الفطور جلس بينهما وأكل معهما وشرب الشاي معهما.. بعد ذلك في ذوق وخسة يقول الزوج للرجل:

- أنا هاقوم أودّي نقله الغيط وأكل البهايم تبقي إبعيتلي الغدا عن إذنك يابو وداد البيت بيتك..

.. فيقول له الرجل طائراً من السعادة لأنه يأخذ بيت من بابه.. العيال والزوج.. إنه عاشق العلن والرضا من الجميع.. إن الجميع يحنون له ويتمنون منه أن يرضى عنهم.. إنهم جميعاً يشتركون في إسعاد أهمهم والرجل يسعد في استمتاع زوجته وفي مرة قال لصديق ودود له في الغيط:

- ياخويا خليّه.. أهو حايشها عني دا لولا هو كانت طلعت من الدار تدور على راجل برّة.. أصلها جامدة أوي.. وبعدين ما حدش مشاركني كل واحد يدور على بيته.

فيقول له الرجل:

- ناقص يا مغوري تدخل تمسك راسها ليه.
- شوف أنا مريح دماغي.. شوف العز اللي أنا فيه مافيش عيل فلاح كل العيال طلعت مصر اشتغلوا في النصف إخوانهم البنات شغلوهم.. في الأساس لولا إمكانيات مراتي الحلوة ماكانتش إمكانيات البنات الحلوة.. جمال مراتي حل مشاكل كثير.. العيال طلعت من الزرايب والبنات إتجوزت بهوات وبقه قرشي وتعبي في جيبني كل سنة باشتري أرض.. ماعدش في الدار غير الواد الصغير شويه وهايترحل على مصر..

.. ولم يكن يستطيع أحد من الشارع اعتراضه لأنه عاشق العلن، ولا أعرف كيف عرجت على حكاية هذه الدار التي تقع في شارع شعبان فرج وأنا أدخل لحضور جنازة ودفن أم إبراهيم.. وهناك كان أبو عوف الذي يدق طبل الإعلان عن

الوفاة ووجدت أبي يجلس وسط الرجال فجلست بجانبه ولم يكن يشغلني عن الطبل إلا مسح دموعي التي تغرق وجهي بين الفينة والأخرى.. ولاحظت أن الفقير في بلدي فقير حتى في موته.. فلا يوجد غير ابنها شوقي وعبدته وعدد من الرجال الغلبة لا يتجاوز العشرة، حتى أنني أسمع النساء في الداخل يصرخون ويهتفن في صوت واهن وكأنهم يستحون من حزنهم.. وكان أبي قد أرسل في شراء الكفن وهو الذي دخل وحاسب المغسل وهو الذي أعطى لابنها خمسة جنيهات ليشتري لزوم البيت من لحم ودقيق وسمن.. وخرجت الخشبة من البيت فتشجبت باليكاء فربت على ظهري أبي ثم إحتضنني ابنها شوقي وقال.. أد كده زعلان فتشجبت أكثر.. وتقدم أبي من يمشون أمام الميت ومشيت بجانبه وانضم إلينا في العزبة عدد قليل من الرجال الغلبة ولم يمشي في جنازتها من الأعيان غير أبي وعمي دردير، وكان هؤلاء الرجال جميعاً الذين لا يتجاوز عددهم العشرون رجلاً يتناوبون أربعة بعد أربعة في حمل الخشبة حتى وصلنا إلى المقابر في قبلي البلد.. ولمّا عدنا عاد كل إلى داره وكان أبي دائماً يتحسر على حال البلد فإذا كان الميت فقيراً ودعته مجموعة صغيرة من الرجال الفقراء فلا يمشي في جنازة فقير غني، وإذا مات غني مشى في عقبه كل الأغنياء وكل الفقراء، وكان أبي هو الوحيد الذي يمشي في جنازة الفقراء قبل الفقراء جميعاً وكان يتقدمهم، ويمشي في جنازة الفقير قبل الغني، وكان أبي دردير يرافق أبي فكما يفعل أبي يفعل هو.. وكان عمي محمود غير حريص على واجب العزاء والدفن لا فقراء ولا أغنياء.. كان ينصرف إلى أعماله في حقله وداره فهو أشطر فلاح في ملاءة مريان والفدان عنده يطرح أعلى إنتاج وكان يعتمد في واجب العزاء على حداد ودردير فإذا سأله أحد لماذا لا تعزّي في فلان فيقول.. بكفاية حداد ودردير فاضيين لكده.. وكان كثير من الناس يعرفون عنه الكبرياء فإذا ركب ركوبته للذهاب إلى البلدة في آخر النهار وكان ذلك غالباً بين المغرب والعشاء فلا يلقي السلام على أحد.. وكانت ركوبته يسمونها الجحشة إذا نغزها في بطنها بقدمه أسرعت الخطى مثل الرهوان "الحصان" الذي أمره صاحبه بالجري..

.. وكنت أعتبر عمي محمود فيلسوفاً.. وكلّما كبرتُ زاد اعتقادي وكنت أنا الوحيد بين غلمان عائلتنا الصغيرة الذي يشخط فيه قائلاً "إريك" وكنت دائماً أندesh

كيف يقول لي أنا وحدي ويعامل ابنه السيد بقسوة بالغة، ويوماً بعد يوم رأيت بنفسني عدم إنصياع السيد لطاعة أبيه فهو دائماً يعارضه فكانت العادة أن يغضب أبيه عليه وانخرط السيد بعد ذلك في إقامة غرز الحشيش التي تسهر في الدكاكين الخاصة بذلك ثم التي تسهر في الغيطان عند أجران القمح وكان له شلة من الأقارب والأصدقاء تشاركه سهراته في الليل.. واشتهر بعد ذلك بأنه صاحب كازينو الشجرة الليلي..

ذهبت أم إبراهيم شرفه وأصبح البيت خالياً على أمي بدونها، وذهبت أمي لبيبه إلى بيوت إخوتها الكثيرين في البلدة وكانت تقعد بقرشها والتي كانت تصرف في شيء من البذخ على بيت إختها بشكل يغطي مصاريف أسرة كاملة.. وحزنت أمي على بخت سعاد وتركتهما للزمن، وعلى فراق أم إبراهيم وعلى هجرة لبيبه للبيت.. ولم يعد في البيت غير أمي وأنا.. وعبد العزيز ومحمد يعشقون الغيط فهم يذهبون إليه منذ أول النهار ويعودان مع أبيهم قبل العشاء.. ولما يعودا يأكلان ثم ينامان بسرعة من كثرة شقاوتهما طيلة النهار في الغيط..

.. وبدأ مرض جدي أحمد في قسوة.. ولم أكن أفهم معنى سرطان في الأنف وفي يوم رُحْتُ ألحُ على أمي بأن نذهب لزيارته في الليل حتى لا تلهبنا أشعة الشمس وشاورت أبي فوافق على الفور وبعد العشاء في ليلة.. ركب أبي ركوبته وبعده ركبت ركوبة أخرى وخلفي محمد وأصرَّ عبد العزيز أن يركب ركوبه وحده وهي جحشة صغيرة اتخذها حمارة له.. أربعة ركايب تجتاز سكة رحيله مارة بحب على دار الشاويشة الطيبين إلى سكة قلتي ثم الكوبري.. وهذه فيلا عم أمي وكوبري الشاطر بعدها حتى مكنة الميّه والتي يديرها رشدي عمارة قريب لجدي ثم كانت دار جدي..

.. نزلنا واحداً بعد الآخر وقابلنا زكريا وعبد المنعم وأخذنا الركايب ليدخلوها زريبة المواشي التي تقع في حديقة المنزل، وكان هناك جمع من الناس يزورون جدي.. فدخلت مع أبي حيث يرقد في المنذرة.. أقاموا له سريراً في ركن بها ودخلت أمي ومعها الأولاد إلى حيث جدي والتي كان معها عدد من النساء جنن لزيارة جدي

والسؤال عنه، ولولا حزن جدتي على جدي لاستطاعت أن تعبر عن عميق سعادتها بمجئ أمي وأولادها الثلاثة وشعرت بقوة أن الله نصر إبنتها.. وطلبت جدتي من خالتي عزيزة بأن تأتي بكل ما في البيت من طعام وفاكهة ليأكل الأولاد منها فأحضرت كل ما عندهم من طيب الطعام حتى طفح الأولاد من كثرة الطعام وبعد مرور بعض الوقت جاءت خالتي بالهريسة (مثل الكيكة) والتي كانت تجيد عملها فأكلت أمي والأولاد منها حتى نام محمد من كثرة الطعام أما عبد العزيز فقد جرى نحو الكانون في القاعة الداخلية ليلعب مع القطط الصغيرة.. ولم أكن أتصور أن جدي وكى مرة واحدة (ضعف أمام المرض) فهم يقعدوه وينيموه مرة على جنبه وأخرى على ظهره ولا يستطيع أن يفعل ذلك وحده فالناس هي التي تعد له وتراعيه وكان أكثر الناس خدمة له (تحت رجليه عبد العظيم الحر وزكريا وعبد المنعم أولاد خالي عبد الحميد، وانصرف كثير من الناس ولم يبق في الغرفة غير القليل فاندفعت نحو سريره وأمسكت بيده وقبّلتها فقبض على يدي الصغيرة وقال:

- اطلع.

كان السرير عالياً فطلعت إليه فقال:

- تعال في حضني..

ارتميت عليه لأحتضه فأطبق على ظهري بذراعه..

.. وكان عبد العظيم الحر يمسك بي حتى لا أكون بكل ثقل على صدر جدي ولكنه قال له:

- سيبه يا عبد العظيم.. أحضني يا حسن أوي..

ظللت على صدره وهو يحتضني ويربت على ظهري حتى بكيت فقال والدموع تتسال من عينيه:

- كده.. دمعك قريبة زي أمك.. فين حداد..

وكان أبي يقعد على كنبه قريبة من السرير فقام إليه فأمسك جدي بذراعه وقال:

- شوف يا حداد أغلى ما في ولادي صبيان وبنات إنت عارف مين..

- مش عارف..

- حميده يا حداد.

فهز أبي رأسه ثم تابع جدي وأغلى أحفادي مين..

- مين يابه أحمد.

- حسن.

- مش معنى.

- هيه كده.. أرجوك يا حداد ماترغلش حميده أبداً علشان أرضى عنك في تربتي.. خللي بالك من ولادها.. وحسن دا حاجة تانية ربنا أداهولك علشان يعوضك مرة واحدة وعلى فكرة المعلم سعد ورجالته هايحبوا التقاوي وييجوا يزرعوك البطاطس وهابعت لك زكريا يقولك هاييجو امتى..

- ماتشغلش نفسك المهم إنت تخف وتتعافى وبعدين نفكر في الكلام ده..

وانتهى كلام جدي لأبي فترك ذراعه وجلس أبي عند حافة سريره بعد أن عدله عبد العظيم في النوم على ظهره.. وأغمض جدي عينيه وراح في النوم وكأنه إرتاح بعد وصيته وسعد من حوله بنومه لأنهم يريدون له أن يرتاح بعض الوقت، وأسرع زكريا بقل نوافذ المندرة حتى يسكن الجو من حوله وسكت الجميع ونزل أبي إلى الكنبه ثم قال لي:

- روح لأمك خلّيا تيجي تشوف أبوها علشان نمشي..

وجاءت إليه متلهفة وانحنى على كف يده لتقبله حتى بكت فأحس جدي بها وفتح عينيه ليمسك بها في لهفة:

- حميده.. تعال في حضني..

وارتمت أمي على صدره وتشنجت بالبكاء حتى إقترب منها زكريا ابن أخيها
ليهدأ من روعها.. ورحت أبكي على بكاء أمي وأنا أمسك بين ضلوعي حزن جدي
لي الذي فيه شعرت أن هذا الرجل الكبير كم يحبني وأنه رغم قسوته في أمور الحياة
إلا أنه يحمل جبلاً من الحب والحنان..

.. وراح جدي بعدها في نعاس آخر.. ودخل علينا عبد العزيز يحمل كلباً
صغيراً ويتجه به نحو سرير جده قائلاً:

- شوف الكلب يا جدي..

فقال له عبد العظيم:

- عايزه خده..

فرح عبد العزيز واحتضن الكلب وصرخ قائلاً:

- هو اسمه إيه..

فقال له عبد العظيم وهو يكتف ضحكته:

- مالوش إسم..

واستيقظ جدي على صوت عبد العزيز المسرع ورأى الولدان ومدّ يده لهما
وسلماً عليهما وهو يبتسم فقال له عبد العظيم:

- عبد العزيز ماسك في الكلب وعايز يعرف إسمه..

فقال جدي في ابتسامة أخرى:

- عبد العزيز ده بتاع كلاب وقطط..

وضحك الجميع وهرش محمد الصغير في رأسه وقال:

- هانسمي الكلب أحمد على إسم جدي..

وكان جدي قد نتع نفسه من وهنه في لحظة حتى قهقهة ولما إنتهى قال
والجميع ينهمكون في الضحك:

- هاتسميه أحمد ليه يا محمد..

- علشان جدي.. أن بحب جدي يبقه نسَمِّي الكلب على إسمه..

وانفجر الجميع في نوبة عالية من الضحك واهتز جسد جدي في سريره وهو
يضحك فعدلوه على جنبه حتى يكمل ضحكه من شدة ولع الحفيد به.. ولما سكت
الجميع مد يده لمحمد وقال:

- تعال بقه عايز أبوسك..

"المقدّس سعد يزرع البطاطس"

في طلوع شمس يوم الخميس وصلت إلى غيطنا القافلة التي تقود زراعة البطاطس.. كان كل من زكريا وعبد المنعم يسحب كل منهما شباكاً (طور.. ثور) حتى البهيم القوي الذي يجر محراث الزراعة أرسله جدي.. ولم يكن لدينا في هذا الوقت غير بقرتين وجاموسة فقال أبي للولدين:

- حتى البهايم بعتها جدكم..

فردّ كبيرهما زكريا:

- هوّ دا جدي لما يحب يعمل حاجة يعملها من أولها لآخرها..

جلس المعلم سعد هو ورجل معه يساعده مع أبي على رأس الغيط بعد أن فرش رجب حصيرة كبيرة وجلس يعمل الشاي ثم جاء بكري وهو عامل صغير السن بجردل عنب مغسول من الطرنبه وأرسلني أبي راكباً الحمارة إلى أمي في البلدة لإحضار فطور للضيوف.. وكان أبي حريصاً على الترحيب بالمقدّس والذي كان دائماً ممتناً يهّز رأسه ويرد على أبي:

- أنا لسه باقول ياهادي.. هاعمّلك يا حاج زي ما بعمل للحاج أحمد.

- التقاوي الليّ جت من عندك إمبراح شكلها غير..

- كنت بتجيب تقاوي منين قبل كده..

- ابن خالي كان بيحبها من مجيريه..

- أنا عارف بتوع مجيريه بيحبوها منين.. وكانت بتجيب على كده..

- أبداً على طول خسرانة معايا..

- التقاوي الليّ جبتها لك درجة أولى وبنفس سعر بتاع مجيريه.

- ياريتني عرفت كده من زمان..

وكان كل من عبد المنعم وزكريا يضعان أمام الثورين كثيراً من الأخضر ثم راحا يسقيان البهيمان بجردل مملوء بماء الطلمبة، وكان المقدّس مستغرقاً في تأمل الأرض الواسعة الممتدة عبر المدى فقال بعد أن إستوعب شيئاً ما في نفسه:

- هوّ إنت هاتزرع المساحة دي كلّها..

- أربع فدادين.. وأشار أبي إلى حد يقطع الأرض من شرقها إلى غربها.. لغاية الحد الليّ هناك..

.. كان المقدّس طويل أبيض صاحب وجه أحمر يبك الدم منه يفرش وجهه شارباً أصفرّاً يكاد يصل إلى قرب أذنيه كأنه عسكري إنجليزي أو ديك رومي نافش ريشه..

.. وكانت أمي سعيدة لوجود بواقي فطير مشلتت يكفي لإطعام عشرة.. نصّفت الطبق عيش ملدّن ثم وضعت الفطير حتى إمتلأ الطبق وفي مقطف صغير وضعت برطماناً من العسل الأسود وآخر بعسل النحل وفي سلطانية مقفلة ملأتها بالجبن القديم والليمون المخلّل.. واستطعت أن أقبض بيدي على الطبق والمقطف.. وكانت سعيدة لأنني كبرت وأستطيع أن أوصلّ الطعام إلى الغيط وخرجت معي حتى باب السور الخارجي وهمست في أذني قائلة:

- قل لأبوك هابت غدا يكفي عشرين راجل ومايشيلش هم..

فقلت لها:

- كلهم يدوبك عشرة..

- طيب إمسك الحاجة كويس أحسن الحمارة تعتر..

وبدأت الشمس تعلو قبل الضحى الأول ولمّا وصلت إلى حيث يجلس أبي قام وأخذ بيده الطبق والمقطف وقال إفرش وهو يضعهما بالأرض وتسابق كل من رجب ويكري في فرش مفرشين من المشمع.. وجلست مع أبي والمقدّس سعد والمساعد كامل وتناثر الآخرون حول الفرشة الأخرى.. ومضى قرابة الساعة حتى انتهى الجميع من تناول الفطور.. بعدها تبعثر الزارعون حول محراثين تم تعليق ثوري تلوانه

في محراثٍ وعَلَقَتْ بقرتينا في محراثٍ ثانٍ.. وكان يقود محراثٍ بهائمٍ جدي زكريا فهو قرفة محراثٍ البهيمين وهما يألفانه.. وسَّير محراثٍ البقرتين رجب حيث يقودهما في براعة.. وراح المقدَّس سعد وأبي وأنا بجانبهما نمشي خلف المحراثين نتفرَّج على حلاوة الحرث مع حلاوة تقاوي البطاطس التي يتم غرسها حسب الأصول وتعليمات المعلم سعد وكان مساعد المقدس يتابع كل عملية الزرع في رشاقة، وكما تبعثر الزارعون مع الحرث إرتشأت في أرضنا عدة مجموعات من الشباب فلاحي الملاء يتفرَّجوا على فن زراعة البطاطس إلى أن مرَّ وقت وكل الأمور تسير في سلاسة مصحوبة بالجهد الذي يبذله الجميع في مزاج ورضا.. وكان من أنجح زُرَّاع بطاطس الملاء عبد الرازق حجاج الذي جاء وحيًا المعلم سعد وجرى بينهما حديث طويل فهم من خلاله المقدَّس أن تقاوي البطاطس التي تصل معظم شنشور هي جميعها درجة ثانية نصفها ينبت ونصفها يموت في باطن الأرض.. وراح عبد الرازق يتابع سير المحراثين وكيف يتم زراعة حبه حبه وأخذ يمسك بالتقاوي ويتفحصها ويقول.. آدي التقاوي بصحيح.. ثم جاء حسين ابن عمتي وعبد الرسول علي وعبد العال وجميعهم من أهلنا ليشاهدوا مولد زراعة البطاطس عند أبي.. ولمَّا بلغنا الظهر كان كل من زُرَّاع الملاء قد إتفقوا مع المقدَّس سعد على أن يشتروا تقاوي البطاطس من عنده، ولم تكن هناك مشقة في نقل التقاوي من بلدة أُمي إلى بلدتنا حيث يوجد عدد من القوارب الكبيرة لدى الصيادين وسوف يسعدون بذلك لأنه سوف يضيف إلى دخلهم دخلاً آخر غير السمك وزاد النشاط البشري الزراعي بين تلوانه وبر شنشور وظلَّت المراكب أياماً كثيرة بعد زراعتنا تنتقل أطناناً من تقاوي البطاطس إلى زراع ملأتنا وفرح البحر بأسطول جديد من قوارب البحر يروح ويجيئ بين البرين من أجل الوصول إلى زراعة جيدة لكل قيراط أرض يُزرع بطاطس.. وكان عَبَّاس شخيخة وهو أكبر مورد لتقاوي البطاطس لمعظم زارعي بلدنا كان قد علم بالأمر فحزن حزناً كبيراً وجاء إلى أبي يعاتبه قائلاً:

- كده يا حاج تنقه السبب في قطع عيشي..

- جاي بعد ما تاجرت في الناس وضحكت عليهم السنين دي
كلها بتقاوي تعبانة وتقوليّ قطعت عيش.. طيّب يا عباس تاجر
في النضيف.. إنت أكبر تاجر غشاش في بلدنا.
- كده يا حاج.. طيّب سيّني أكل عيش..
- كل ماحدش حايشك والناس الليّ تحكم..
- طيّب حوش المعلم سعد ماينزلش بلدنا..
- ماحدش يقدر يحوشه الراجل ببضاعته بيشتغل والناس هاتجري
وراه من هنا ورايح..

- وأنا..

- إنت زي قريبك غريب بيصلّح طرنبات الميّه بقطع غيار بايظة
وعلشان كده طرنبات بلدنا كلّها عمّالة تعطل على طول.. آه يا
ولاد شخيحه..

وظلت حكاية زراعة أبي لتقاوي درجة أولى وكيف زرعها المقدّس سعد لنا،
وبقيت حكايات أخرى كثيرة إنبهر بها أهل الملاء وهي شبابات جدي.. ثوري.. ثيران
جدي.. وفي الدارج يقول فلاحو بلدنا عن الطور شب.. وكان الناس في الملاء
يعتقدون أنه لا توجد ثيران أقوى وأضخم من ثيران عمي محمود فلماً رأوا ثيران جدي
إنبهر الناس بها لأنها أقوى وأضخم وراحوا يتحدثون عنها ويضحكون مع أنفسهم
بعبارة.. هوّ بياكلّ الثيران دي إيه..

وكانت زراعة البطاطس والتي استمرت ثلاثة أيام فرصة لأن يقوم كل من
أبي محمود ودردير بعمل الواجب للمقدس سعد ومساعدته وكل من جاء من أهل
تلوانه.. حيث قدم عمي محمود في اليوم الثاني الفطير المشلتت والذي جلس مع
المعلم وقتاً طويلاً ليعرف كل الأمور الفنية لزراعة البطاطس وكيفية الحصول على
تقاويها، أما عن أبي دردير فلقد قدم في اليوم الثالث السمك المشوي والذي شواه

أنفار الغيط فوق راكية كبيرة ولعوها بتقضييب العنب الناشف وهو بدوره لم يتعب نفسه
بسؤال المقدس عن شيء في هذه الزراعة لأنه مقتنع بزراعة المحاصيل التقليدية ولا
يرغب في إدخال نفسه في زراعات جديدة وراح يضحك ويقول بعد الغداء وهو
منغمس في تدخين الجوزه.. بس أنا أقدر على القمح والدره.. ولما جلس أبي في
نهاية اليوم الثالث ليتحاسب مع معلّم البطاطس
قال أبي:

- حسابك كام يا مقدّس سعد..
- الحساب يوم الحساب يا حاج..
- كلامك صحيح.. إن كنت إخوات إتحاسبو..
- حسابي مع أبويا أحمد.. عيب علىّ آخذ منك الحساب..
- ياه أد كده فيه أصول بينك وبينه..
- من زمان وأحنا ماشيين بالأصول..
- هاتعدّي بالمركب ولاّ أجيب الركائب توصّلكم..
- المراكب أحسن..

.. وذهب كلّ إلى حال سبيله ومن شدة التعب نام أبي في المندرة يومين
كاملين وكان يتألم من وجع في رأسه نتيجة تعرّضه للشمس كثيراً من الوقت أثناء
مباشرة الزراعة وكان يأتينا لمباشرة علاجه دردير الشيخ أحمد الذي يقيس له درجة
الحرارة ويعطيه حبه ويترك له أخرى حتى تخلو رأسه من وجع الشمس وكان الناس
تأتي لزيارته ويقولون.. دي راسه مفتوحة.. دي ضربة شمس..

.. ومرّت أيام أخرى فيها إسترد أبي عافيته وكان يأتينا كل ليلة أثناء مرضه
عمي الحاج أمين وفي ليلة فاتحه أبي في موضوع يخص واحداً آخر في العزبة
قائلاً:

- إنت عارف نبوت الدبور .

- أيوه..
- عنده ابن بيقرا قرآن وصوته حلو وعائز يعلمه عندك أصول الترتيل والتجويد..
- مالتش غير ابن الحرامي وتجييه..
- ربنا بيخلق من ضهر الفاسد عالم ومن ضهر العالم جاهل..
- لا.. لايمكن.. داأبوه لغاية دلوقتي مش مبطل سرقة..
- علشان خاطري وأجرك على الله.. إعمل الطيب وارميه البحر..
- ضحك عمي أمين لما وجد أبي مصراً على طلبه.. ابتسم نحوي وقال:
- إنت إيه رأيك يا حسن في الكلام ده..
- فقلت له مؤكداً طلب أبي:
- معلش يا عم أمين علشان خاطري علمه وأجرك على الله.. مالکش دعوه بأبوه..
- هيه.. علشان خاطرك يا حسن..

"حسن أفندي يسمع عن النعّارين"

.. كنت أشعر أن الآفاق من حولي واسعة أجوبها في أي وقت وكان الناس هنا وهناك يوسعون لي فأنا في تلوانه فاكهة عند جدي وفي شنشور تنتوع الدنيا من فوقني ومن تحتي، إنني في هذه السن لا أستطيع أن أعلم الناس شيئاً والذين يعيشون بدوني فالخبز والماء والمال هو مطلبهم وهو نيلهم في هذه البلدة، وإن كثيراً من الناس لا ينفقون جهداً من أجل أن يحبّهم الناس ولكن حميم الحياة يكتسح أي شيء أمامه من أجل الحصول على الخبز لأن الخبز هو الشيء الوحيد في كل أرض العالم إذا أكلته شبعنا والناس سعداء بخبزهم وليسوا سعداء بمعاني للسعادة والفلسفة تساق إليهم من فيلسوف وهم جائعون، وليس أسوأ من شيء أن يحرق الإنسان أرضاً ضيقة لا تأتي له بقمح يكفيه وأن من يقود الناس لأجل تحقيق حياة كريمة أن يكون أول أهدافه توسيع رقعة الأرض لأن كل أنواع الخبز والطعام تأتي جميعها من الأرض، وكل منا ذكي بالفطرة عندما قام في أول عهد له بالحياة بأول عمل له وهو حراثة الأرض وكلما أخذ كل ما يجده في بطنها إزداد ذكاؤه وكان قادراً على مواجهة الحياة، وليس هناك غني في قريتي فكلنا فقراء لأنه لا يوجد في قريتي من يشبع كل حاجياته.. وإن أكثر الظواهر شيوعاً حولي هو درجات الحاجة المنتشرة هنا وهناك حتى نحن في بيوتنا التي نعتقد أنها غنية، والحقيقة أننا نخفي ونلهث من أجل أن نحصل على الكثير من حراثة أرضنا والأرض لا تعطي زيادة عما في بطنها وبطوننا دائماً جائعة وكل منا جائع إلى حاجاته التي لا يستطيع أن يشبعها.. الفقر في متناولنا جميعاً لأننا لا نستطيع أن نشبع كل حاجياتنا والأكثر فقراً هو الذي لا يستطيع أن يحصل على الضروري وأسوأ مافي بلادي أن كثيراً من الذين يحصلون على الضروري وهم الطبقة العظمى يحصلون عليه بعد أن تهان كرامتهم..

..وإنني أرى بعد أن توسعت مداركي قليلاً أن ما قامت به حركة العسكر في ١٩٥٢ أنها كانت حركة إستيلاء وأكثر ما فيها أعمال النهب للقصور والبنوك والأرض وأنهم لم يقوموا وحتى الآن وبعد خمس سنوات من عمرها بعمل شيء من أجل الخبز وما أحلى الجعجعة والصوت العالي والخطب الرنانة وتحيا

عبد الرؤوف الزلباني، وكأننا كنا في حاجة إلى نعمة.. ياسيدي إعطني النعمة والعنجهية وبعدها إعطني حاجتي.. لكن هؤلاء أعطوا الشعب بأكلمه النعمة وبعدها كانت الحسرة التي أراها اليوم تقف على باب كل بيت، ولكن كيف أتوقع أن تكون حاجة الناس شديدة في القريب وأن الذي أعطانا النعمة لا يستطيع أن يعطي خبزاً طالما أن الصوت العال هو الأول والآخر، وسألت نفسي عندما جاء أحد العمال إلى قريتي فاقد الأمل في مصنع التحق به في عام ١٩٥٤ وعاد بلا رجعة إلى مصنعه فقلت له:

- ليه رجعت يا فتحي مش المصانع أحسن..
- خُدت.. وكنت عايز أدفع الفقر عني أو ضيق الرزق.. قلت مصر أحسن.. لكن لقيت الرزق هو هو.. مصانع في مباني إتصرف عليها دم قلبنا لكن المصنع جوه مافيش إنتاج مرة تيجي المادة الخام ومرة تتأخر ومرة ماتجيش..
- مش المادة الخام موجودة في البلد..
- المادة الخام موجودة بس دايماً يعملو العجينة غلط لأنها بتبقة ناقصة مادة بتيجي من بره وطالما الحاجة مش في إيدك اللي برة بيتحكم فيك..
- وليه ماعملوش مصانع مادتها الخام في البلد..
- فيه ناس مصلحتها يعملوا مصانع وخلص ومش مهم بعد كده المصنع يمشي ولا يقف..
- كان لازم تصبر..
- أصبر على إيه.. إذا كان مدير المصنع عسكري لا يفهم في الأمور الفنية ولا التجارية ولا الإدارية.. أهم حاجة عنده كله تمام.. وتمام يافندم وكل حاجة بايظة.. أهم حاجة ينفذها نطلع مسيرات تأييد عبد الناصر ونهتف.. وكلنا بنحبك.. يعني إحنا

رُحنا نشتغل في المصانع علشان نبقه جمهور العمال اللي في مصر كلها بيايد الزعيم.. بقينا كلنا خدم لشخص واحد وأهم حاجة إننا نشجب ونؤيد ونهتف بحنجرة تهز الدنيا.. لقيت لعبة إن إحنا كلنا عمال ومدير جينا المصنع ده علشان حاجة واحدة خايبه.. ناس عايزة تظهر وتقع على الكرسي لكن المصنع إتعمل علشان ينتج ويعمل حاجة للبلد ونشتغل بجد مافيش الكلام ده.. إذا كان المدير نفسه مايعرفش يعني إيه إنتاج وعلشان كده كان فيه ثلاث حاجات.. وسكت..

- إيه همة..
- مافيش إنتاج وإذا كان فيه إنتاج فهو إنتاج بايظ واحنا كده جينا علشان نهتف ونبقه ضمن النقابة العمالية لعمال هم في الأصل غير فنيين ومافيش حد علمهم يشتغلوا صح.. العملية كلها تهريج في تهريج..
- لكن إنت إزاي يا فتحي عرفت الكلام ده كله وإنت أصلاً راجل مش متعلم وكنت هنا في البلد ماتعرفش غير الغيط والحمار..
- هو أنا محتاج لتعليم علشان أعرف كل حاجة باينه أدامي وعلى فكرة اللي عنده كرامة مابيرضاش عن الوضع ويبطلع من المصنع يشوف شغلانه تانية أو يرجع لبلده..
- يعني حلمك راح منك في مصر..
- أنا كنت فاكِر إن المصانع دي عالم كبير وفيه إنتاج وناس وإدارة.. تعرف إن أبويا حداد وأبويا محمود يشغلوا المصنع ده أحسن من أي لواء كان في الجيش.. إنت عارف ليه لأنهم ناس مدنيين بيعرفوا يعني إيه إدارة وعلى فكرة الإدارة مش عايزة كتب ولا تعليم.. الإدارة فكر ودماغ وفن..

- إنت بتقول كلام جامد أوي..
- أنا لما رجعت بلدنا هاكسب نفسي على الأقل دمّي مش هابتحرق من البوظان اللي موجود في المصانع.
- أنا خايف عليك لأنك إتسرعت شويه وهايبقه صعب عليك ترجع للحمارة والطبلية والمحرات..
- لأ هاقدر طالما أنا عارف إني بانتج بصحيح.. وعلى فكرة أنا عندي موضوع في دماغي عايز أكلّم أبويا حداد فيه..
- كلمه هوّ لسه ماجاش من البلد..
- هاستنأه..

.. كان الوقت قد بلغ الضحى العال وكنت في هذا اليوم ولأول مرة آتي إلى الغيط مع إخوتي عبد العزيز ومحمد.. وكان عبد العزيز لا يكل ولا يمل.. مرة يركب الجاموسة ويذهب بها إلى البحر ومحمد يتبعه ماشياً، ومرة يركب جحشة.. حمارة صغيرة في السن على وش ركوب.. ومحمد إينما ذهب يتبعه، أما أنا فعندما وصلت معهما إلى دار الغيط والتي لم يكتمل بناؤها بعد، جلست مع رجب وبكري أتناول معهما لقيمات من الخبز يسخنونها فوق الراكيه ويغمسونها بالجبن القديم والباذنجان الأخضر، سعدت بالجلوس معهما وشاركتهما الطعام وأنا في داخلي أحاول أن أعمل مثل ما يعمل أبي، وكان الأنفار يسعدون لذلك كثيراً ويحكون لي حكايات عن البحر وأم الشعور وعن حرامية البحر الذي يسرقون السمك من الصيادين.. وكنت أستمع بحكاياتهما وأطلب منهما المزيد ولم تكن هذه هي المرة الأولى، وكان هذان العاملان يعرفان عني أنني أحب الحكايات فيحضرونها لي ويتسابقا معاً في الحكى لي.. وعلى فكرة لما جاءنا فتحي العائد من مصر جلس معنا حول الراكيه وتناول الطعام ولما دار الحديث بيني وبينه كان كل من رجب وبكري يستمعان معي لما حدث له في المصنع.. وقال كل منهما لما إنتهى حديثه.. طيّب كويّس إن مارحناش مصر.. وكان فتحي قد بدا عليه التعب فقال له رجب في ود:

- خش جوّه إستريح شويه على ما أبوك الحاج بييجي..

ولمّا دخل قلت لهما:

- مسكين.. هوّ لسه مابعش داره..

فقال رجب وبكري في نفس واحد:

- لسه داره في شارع حسين حنضل زي ما هيّ..

فقلت لهما:

- كويس إنه مابعش داره..

فقال رجب مغتبطاً:

- والله إنت يا حسن أفندي زي الفل..

- ليه يا رجب..

- إتكلمت مع فتحي وطلّعت اللي جواه.. أنا راجل أكبر منك
ماكنتش هاعرف أجرجره زيّك..

وضحكت كثيراً لشيئين.. حكاية يا حسن أفندي اللي طلعت علىّ من أنفار
الغيط وحكاية إنّي شاطر وباعرف أجرجر الناس.. وكان كل أنفار عمي محمود
ودردير ينادوني بحسن أفندي، وكان مبلغ سعادتي أن يناديني عمي الحاج حسن عبد
العال كلما رآني بحسن أفندي وهو من كبار رجال العائلة.. وفي يوم تساءلت مع
نفسي.. سبحان الله دا الكل دلوقتي بيقلولوا يا حسن أفندي.. طلعت علىّ خلاص
ولكن والله كلمة حلوة أوي.. ومن كثرة إندهاشي في يوم بعد القباله تحت الشجرة
الظليلة وكان معظم الأنفار قد ناموا تحتها كالعادة بعد الغداء وتناول الشاي كل يوم،
وجدت نفسي قريباً من رجل كبير في السن يعمل باليومية هنا وهناك ويدعى حسن
أبو طنش فقلت له:

- يا عم حسن ليه الأنفار بتقول لي يا حسن أفندي..

- علشان بيحبوك وعايزينك تبقيه أفندي بصحيح..

- طيب ليه مابيقولوش لعبد المنعم وعبد الرحمن ولاد عمي..
 - عبد المنعم طلع من المدرسة وأنت شايفه طول عمره رطل زي أبوه ماينفعش يتقاله يا فندي..
 - وعبد الرحمن..
 - عبد الرحمن من دلوقتي أتحزم بحزام التيل ولبس القميص الفلاحي ونزل الغيط يحرت بالمحرات وباين عليه مش هاكمل..
 - طيب والسيد ابن عمي..
 - السيد قالو له يافندي قبلك ولكن لما لقوه بعد كده بتاع غرز وشريب حشيش مابقوش يقولوله..
 - ياه هيّ كده يا عم حسن..
 - هيّ كده يا حسن أفندي..
 - طيب نام شويه يا عم حسن قبل ما تنزل الغيط علشان تقدر تشتغل.
 - بعد إذنك فعلاً عايز أنام..
- وتمدد الرجل على الأرض بعد خطوات مني وهو يضع تحت رأسه قالباً من الطوب..

.. عدت إلى بيتنا في البلدة مع أخوتي وقت دخول المغرب ووجدت أمي في حالة نفسية سيئة، وبمجرد أن دخلنا عليها هاجت فينا زاعقة:

- ما هو إنتو لو ليكم أم ماكنتوش تقعدوا في الغيط طول النهار..

فسرع لها عبد العزيز:

- أنا راجل هو أنا صغير.. بكيفي أروح وأجي هاقعد هنا أعمل إيه إنت بتخونقيني..

صعب عليها رده وقالت في خنق من سرسعة ولدها وهي تنظر إلى محمد:

- كده كويس يا محمد.. إنت زي عبد العزيز بقيت راجل..

.. سكت محمد ومال برأسه نحو الأرض وكأنه يقول لها.. لأ أنا مارضاش أزعلك.. وجالت بناظرها نحوي:

- كده يا حسن هاتأخذ على الغيط وتروح مني..

.. أقبلت عليها واحتضنتها فضمتني بذراعيها وبكيت على صدرها ورحت في نهضة مستمرة وكأن أحداً ضربني فأبعدتني عن صدرها في رفق وقالت في رجاء:

- يعني هاتروح الغيط تاني وتقعد طول النهار..

- بس مش زي النهاردة..

- خلاص يامه.. لكن إنت زعلانه ليه..

- زعلانه على طول من يوم أم إبراهيم ما ماتت وبعدها مشيت لبيبه وسابوني وحدي في البيت هُسْ هُسْ..

- وبنت أم إبراهيم حسنيه..

- دي تعبانة ماتجيش صفر جنب أمها..

- هات واحدة تانيه..

- قلت لأبوك وهايجيب لي واحدة من قبلي البلد..

.. وكانت الطلمبة منذ أن احتضنتني أمي وهات طرمبيد.. وكالعادة خلع
المسرّسع هدومه كاملة أمام أمه وجرى إلى حوض الطرنبة ليستحم فيه بالكوز.. لكن
محمد إستحى وخلع هدومه قرب الحوض وراح يطنبر الطرنبة لعبد العزيز الذي يأخذ
منها بالكوز ويدلق على جسده.. ثم جرى السرسوع عارياً إلى سبت هدومه ليرتدي
فانلة وسلب نظيفين بعدها إنقلب إلى الطرنبة ليطنبر حتى يستحم محمد بنفس
الطريقة التي إستحم بها..

"النجاح في القبول وحديث يُحزن أُمي"

لما نجحت في القبول الإعدادي كان الفرح شديداً عند أبي وأُمي خاصة أنني حصلت عليه من السنة الرابعة، وجاءني بعض الزملاء ليهنئوني ووقفت معهم قليلاً عند باب السور ولم أدخل أحداً حسب رغبة أُمي، كان هناك شيء يغمرني في داخلي ويهزني بقوة لعدم ذهابي إلى مدرسة صبحي ثانية وتخلّصي من بعض المدرسين والتلاميذ الذين يثيرون حنقي.. وكالعادة في صباح اليوم التالي ذهب أبي إلى الغيط وخلفه يجري عبد العزيز ومحمد وكانا يتسابقان جرياً مرة خلف الركوبة ومرة أمامها وكان عبد العزيز لا يكل وكلما قابله أحد في الطريق وحاول مهزراً إعتراض طريقه شتمه عبد العزيز بقسوة وكان أبي ينغز الحماره بقدميه حتى تجري ليلحق بعبد العزيز ليمنعه عن قباحته ولكن دون جدوى إنه يهوى تلفيح الناس بلسانه.. هكذا حُكي لي كما كان محمد دائم الحديث عما يحدث لهم منذ مغادرة البيت حتى يصلوا إلى الغيط، وفي هذا اليوم الثاني من ظهور النتيجة قررت أن أتخلص من الكتب والملخصات فقلت لأُمي:

- إنني أشعر بأنها ثقيلة على أنفاسي وأريد أن ألقها في التربة.

فانزعجت أُمي لسوء ما تفوهت به وقالت:

- لا يوجد تلميذ نبيه يلقي بكتبه.. إن التلاميذ النابهين يحتفظون بكتبهم فإذا ما احتاج إليها أحد في العام التالي نعطيها له كمساعدة، يابني إن هناك أهل تلاميذ غير قادرين على شراء هذه الملخصات التي دفعنا فيها خمسة وأربعين قرشاً، إننا سنخرجها مساعدة لمثل هؤلاء التلاميذ.. دعني أتصرف أنا..

.. سكّْتُ واقتنعت برأيها ولكنني قلت لها بأنني سوف أحتفظ بملخص

الجغرافيا والتاريخ..

فقلت:

- والتربية الوطنية..
- لا.. إن فيها شعارات وصوت عال وتتعير وإشعال للمشاعر زائداً عن اللزوم وقد ألقى بكتاب التاريخ لأنني أشعر أن نصفه كذب..
- لك ما تريد ولكن أحتفظ بالكتب ولا تتصرف فيها إلا بالنفع..
- إتفقت معك ولكني لن أحتفظ بها هنا في المدرسة..
- أين تحتفظ بها..
- في طاقة القاعة..
- إفرش جورنالاً قديماً تحتها وغطها بقطعة قماش حتى لا يملأها التراب.. ولكن هذه الكتب والمجلات تبقى هنا وأشارت إلى الكتب المرصوصة في شباكي المدرسة..
- آه يا أمي إن هذه الكتب هي التي ستجعلني أعبر بحياتي من مرحلة كان فيها غباءً كثيراً إلى جسر ينشلني مما أنا فيه.. إنني أتعشم أن أجد في هذه الكتب والمجلات ما ينور طريقي ويشع في داخل نفسي المتوترة شيئاً ولو قليلاً يأخذني من هذه القرية المملة..
- لماذا يابني لا تحب القرية ونحن منها أباً عن جد.. لابد أن تحب بلدنا حتى تعطيك.. إذا كرهت شيئاً لن تأخذ منه شيئاً، وإذا أحببت أرضاً ما أعطتك.. لماذا لا تألف قريتنا وهي التي ولدتك وأطعمتك..
- ليس بهذا الجحود أنا.. إنني أحب بلدي لأن أبي وأمي وأهلي منها وأنا نبتها ولكن ما أقصده أنني أريد أن أهاجر إلى بلد أخرى أجد فيها نفسي، إنني لا أألف أي أحد من زملائي ولا

أقربائي.. إنني أشعر أنني لا أتحمل رزالة كثير من الناس هنا
ولا أستطيع معاشرتهم والإنصهار معهم..

- لا أعرف لماذا أتك هذا التمرد.. أنت يابني غلام غريب.. ألم
يعجبك حقل أبيك والبحر والترعة وصفير مكنة الطحين ألم
تعجبك أمك وحنانها وحبها لك..

- يعجبني كل هذا ولكن يكفي قليل من العمر لأن أعيش وسط
هذه الأشياء..

- هل يأتي عليك يوم وتتركني أنا أيضاً.. لا أحد يعطيك حبي
وحناني إليك.. إلى من تذهب حتى يعطيك راحة كل هذه
الحياة التي حولك وأنا العامل الأساسي فيها. إنك يابني لو
رأيت حياة أولاد آخرين في هذه القرية لعرفت أنك تعيش في
نعيم.. شيء غريب ومخيف أن تتمرد على النعيم..

- أنت لا تفهميني يا أمي.. إنني لا أستطيع أن أوصل لك ما
أعنيه..

- إنني أخاف عليك.. هل تريد أن تذهب إلى الضياع وتترك هذا
الواقع الذي يوفره لك أبوك وأمك من طيب الطعام والحب
والحنان..

- أبداً.. أنا لست متمرداً على النعيم وعلى حبك وحب أبي.. ولكن
أنا أعني شيئاً آخر.. لا يا أمي.. إن ما أعنيه شيئاً آخر أنا
نفسي لا أستطيع تفسيره لك.. إنه شيء في نفسي.

- أخرج ما في نفسك حاول تفسر ما استطعت حتى أفهمك ولو
قليلاً..

- شيء في داخلي يمنعني من حب الكتب المدرسية والمذاكرة
فيها.. إنني أريد كتباً أخرى..

- ولكن هذا علم والناس عن طريق العلم تتوظف في الحكومة ويحصلون على المال..

- إنني أحب العلم الذي أختاره..

- اختر ما شئت من الكتب.. إقرأ في الأجازة ما استطعت منها

ولكن لا بد من كتب المدارس حتى ننهي دراستنا مثل كل

الناس.. بعد ذلك إقرأ ما شئت إمسك عصفوراً في يدك واذهب

إلى العصافير الأخرى دون أن تترك العصفور الذي في يدك..

- سوف أفعل ما نصحتيني به يا أمي ولكن..

- لكن ماذا؟

- إنني أشعر أنني تائه وجائع..

- أنت تائه لأنك تذهب إلى أشياء أكبر منك وكأن عقلك ذهب

إلى عالم آخر غير عالمنا.. إن هذا الشطط يابني لسنا في

حاجة إليه حتى لا تذهب إلى الجنون..

وهزّت رأسها وهي تتدهش وأكملت قائلة:

- أنت جائع.. إنه لا يوجد غلام في قريتنا أو في قرية أبي يأكل

مثل ما نأكل.. لقد جاء حظك بعد جوعة من العيال.. لقد مات

لأبيك من لبيبه إثني عشر ولداً وبناتاً ومات مني ولدان.. جئت

لأبيك بعد صبر ومعاناة ولولا أنه رجل مؤمن لنفذ صبره ومات

كمداً من هذا الاختبار الشديد الذي امتحنه الله به.. أنت لا

تدري بالنعمة التي تحيطك.. وأخاف عليك أن تكون من

المفترين..

- آه يا أمي لقد ذهبت بي إلى أشياء أخرى لا أعنيها..

- أنت تقول أنك جائع..

- لست جائعاً طعاماً أو شراباً.. ولكن أشعر أن عقلي وقلبي جائعان لأشياء ومعان أخرى في الحياة..
- .. جالت أُمي بناظرها إلى كتب سميرة المرصوصة في شباك المندرة وراحت تهز رأسها كأنها وصلت إلى حقيقة ما وقالت:
- هل قرأت هذه الكتب..
- قرأت بعضها مرة واحدة ولكن لم أفهمها جيداً.
- هذه الكتب هي التي فتحت عيناك على أشياء من هم في عمرك لا يجب قراءتها..
- من اليوم سوف أقرأها ثانية.. إنني الآن أستطيع أن أقرأ جيداً.
- هذا ما تريده..
- نعم يا أُمي..
- إقرأ ما شئت ولكن لا تظلم نفسك ولا تظلمني.. وإذا كانت هذه الكتب سوف تمنعك من التيه إقرأ.. وإذا كانت سوف تشبع جوع عقلك وقلبك.. إقرأ..
- سوف أبدأ الآن..
- وقمت إلى تلك الكتب لأضع بعضاً منها فوق المنضدة ورحت أقلب في أحدها واندمجت فيها دون أن أعي كل شيء فيها ولكن شعرت بأنني أخذ منها شيئاً جديداً..
- .. ولما راحت أُمي ترقب إندماجي في تقليب صفحات الكتاب قالت:
- سوف أتأملك يا حسن..
- تمدّدت أُمي على الكنبه وأحكمت وضع رأسها فوق مسند.. كانت ترقبني وتلاحظ قسمات وجهي وقالت وهي تتنأب:

- أنا جبّتك إزاي.. إنت جيت لي منين يا حسن.. يا رب يهديك
يا حسن..

بعدها أغمضت عينيها فتأملت وجهها وابتسمت.. بعدها ذهبت في شخيرها
المعتاد الذي تعودت عليه منذ طفولتي.. شعرت بأنني أنسجم مع نفسي خاصة لما
إنطلقت بعد ذلك صوت دربكة وشخشخة مكنة الطحين وبدأ صفيرها اليومي الذي
تعودت عليه مثل شخير أمي يجعلني أنسجم مع كل أسباب الحياة حولي..

.. أحببت البحر رغم ما فيه من عبث ولكن أحببت أكثر ما فيه من صيادين
ومراكب وزوجات تساعد أزواجهن في برهيت وتلوانه، وحفر في رأسي رنين طبله
الصيادين في طبشه الصيد كل صباح ومساء وحفر في نفسي معنى عميقاً للحياة
حولى، وسعدت بهروب أبي من برهيت والرجوع إلى بّره ومشروعه الذي كان سيفقده
الكثير من ماله وكان سبباً في ذلك إمراة طارده ثم كانت جلسة أبي محمود ودردير
معه.. وكم كان منظر الجاموس والبقر عندما يستحم مع أصحابه في البحر مبعث
تفقدى إلى كل معان وأعمال النشاط البشري في تلك المياه.. وحلّبات اللبن في
الزريبة وغرفة التبن وكاسات الهواء ثم كان بعد ذلك فكر أبي وفلسفته في علاقته
بنساء الحقل الجميلات وكيف كان يتزوج بهن دون أن يعلم أحداً وكيف تم إكتشاف
الناس لأسرار كلمة يا خال الحاج.. لقد كان أبي كتلة من الحنان فاخترت النساء
أرق الألقاب لتدعونه به.. ومن كان رفيقاً بالنساء الأرامل والمطلقات كانت النساء
أشد حساسية في معاملة من عطف عليهن، فلجأت النساء إلى التقرب منه ولماً
خاف على نفسه ألا يرضى عنه الله فتزوجهن واحدة بعد الأخرى، كان لأبي دولة
رأيتها بعيني.. كانت دولة بين الجدران أساسها ما يعتقد صحياً لحماية المجتمع
الذي حوله.. وساعده على ذلك أنه يملك إمكانيات فلاح موسر وأقام دولته في بيت
قديم ورثه عن أبيه وصرف عليه من ماله وأعانه على ذلك أن زوجتيه تدعانه فكان
هم أمي أبنائها ورعاية حسن وكيف تثبت أقدامها في تلك البلد التي تكره ولا تحب،
ولم يكن لأمي لبيب هدف بعد فشلها في أن تكون أماً.. كان كل هدفها أن تلقاه فوق
قبة فرن القاعة، وكان من عادات وأعراف تلك البيوت التي تملك بعض الأرض أنه

من العيب أن تراقب الزوجة زوجها أو تعاتبه كما تفعل نساء الحوارى بأي صورة من صور القبح.. وكل ما قابلني في مدرسة صبحي من تلاميذ ومدرسين لم يعجبني سلوكهم مسحته من ذاكرتي وكذلك مسحت ما لمستته في شارع أبو سمك وإهانة فتحي ستيته لي، وإن ما بدأت ألمسه في أن يكون لي صحبة من غلمان في عمري ممكن أن يكون مع أبناء الصاوي والقطان جيران بيتي.. ولكنني لم أعطي ذلك الذي قد يكون وقتاً أفكر فيه ويكفيني الآن قبل أن أذهب إلى المدرسة الإعدادي أن يكون صاحبي تلك الكتب والمجلات التي جاءتني من سميرة بنت لظيمة أول حب لي في حياتي، وكثير من الناس تقول.. وهل يحب طفل عمره خمس سنوات فتاة عمرها ثمانية عشرة عاماً، أم أنه كانت تلك الأحداث الجميلة ذكريات مرّت في حياة طفل لا أكثر..

.. ولما قامت أُمي من نومها أمامي في المنذرة شعرت براحة لأنني سأكون مع نفسي ولا أحد يشاركني وحدتي، قفلت الباب والشبابيك فأظلمت الغرفة.. تمددت فوق الكنبة ولم يبق يؤنس إنطوائي على نفسي غير صوت ماكينة الطحين.. هذا الصفيّر الذي يرسلني إلى شيء لا أعرفه ربما يكون المجهول، وقلت لنفسي بصوت خفيض هامس:

- يكفيني صوت ماكينة الطحين.. إنني لا أريد أن أسمع صوت غير صوتها.. إنني أشعر أن في هذا مكنون نفسي وقلبي وهو الصوت الذي أسكن الهدوء في داخلي منذ أن سمعته وحتى الآن.. لا أعرف إلى أي مدى يريحني هذا الصوت.. إنه الصوت الذي يعينني على تحمّل كل ما يقلقني حولي.. فإما أذهب في نوم عميق أو أسترسل في مذاكرة كتبي المدرسية وهو الآن يجعلني أستغرق في الإطلاع على هذه الكتب، إنّ صاحب هذه الماكينة لو عرف مقدار سعادتي بصفارة ماكينته لجاء إلى أبي وطالبه بالأجرة، وعندما كنت أرى صاحبها صدفة كان يخيفني.. صمته وعدم مشاركته لأحد من جيرانه

في أي شيء.. ولما كنتُ أرى أذنيه الكبيرتين تحيطان وجهه..
كنت أقول من صاحب هذه الأذن الضخمة المخيفة أسمع ما
يبعث عليّ سعادتي.. وسبحان جامع الأسرار.. بعد ذلك لما
كنت أراه كنت أتجنب أن أرى أذنيه حتى لا ينغص عليّ سماع
صوت ماكينته..

.. وقبل أن يدخل جو المغرب المخيم بظلمة الليل.. طرقت أُمي
الباب منادية:

- حسن.. حسن إفتح..

ولما فتحت لها كانت تحمل صينية عليها سلطانية بها دجاجة وطبقاً من
الأرز.. وضعتها على المنضدة قائلة:

- بسرعة بسرعة كل قبل بتوع الغيط ما ييجو.. إقفل بالتراس
ورايا..

ونسيت كل أفكاري ورحت ألتهم الدجاجة.. وقلت.. أي أم هذه.. إنني كبرت
ومازالت تعمل لي الطعام السري.. أليس في ذلك ظلم ولماذا أنا وحتى بعد هذه
السنوات وأنا أدخل على نهاية العام العاشر من عمري.. إنه حتى أبناء أعمامي لا
يلاقون هذه العناية الفائقة.. إنهم يأكلون مع الأنفار ولا يقدم لهم هذا الطعام
الخصوصي.. إلا أن عبد المنعم بن عمي دردير كان يلاقي تلك العناية ولكنهم كانوا
يضعون له الطعام في طشت وليس بهذه الشياكة التي تقدمها أُمي لي.

"الذين يضربون آباءهم"

لماً كان يأتينا عمي الحاج أمين كانت المندرة تتورّ في حضرته، وهو منذ أسبوعان لم يأتينا وعلمت من أبي أنه كان مريضاً وأن أبي قد زاره مرتين، وفي هذه الليلة جاء إلينا خصباً لتهنئتي بالنجاح وهو أول رجل يقبّلني تقديراً لنجاحي بعد أبي وأمي، وبعد أن قدّمنا له قهوته كان يبدو عليه التعب وكان في وجهه علامات حزينة فقال له أبي:

- شايك زعلان فيه حاجة..
- فعلاً زعلان..
- فيه حاجة حصلت..
- إنت عارف إسماعيل عبده.. وعارف إبنه محروس..
- أيوه مش قرايينا..
- يا ريتهم ما كانوا قرايينا..
- فيه إيه.. عملوا إيه..
- إبنه محروس ضربه بالقلم على وشه..
- آه أه.. بتقول إيه..
- محروس ضرب أبوه.. إزّاي دا يحصل وليه وعشان إيه..
- المفروض إنت عرفت ومين قالك ومين درّاك..
- أقصد أقول لو الأب حرق إبنه ورماه في التربة المفروض الإبن يناول أبوه بلغته وهو ينحني له ليضربه ثانية..
- طيب قولي التفاصيل..
- إسماعيل كان هايجيلك الأول بس مارضيش يعكّر عليك وأنت فرحان بإبنك.. الراجل منهار ونازل عياط وهوّ بيحكلي..

- دا لازم إبنه يتولّع فيه دي أول حاجة تتعمل..
- والحكاية إيه..
- محروس عايز فلوس علشان يسافر إسكندرية يصّيف مع شوية عيال بايظين أبوه قال له مامعايش وأحنا يابني مش بتوع مصيف ولا كلام فارغ من ده..قال له أنا يابني يدوبك بأكلّك إنت وإخواتك..
- بعد كده الواد ضربه على طول..
- الواد إنهار وزعّق في أبوه وقال له يلعن أبو فقرك واندفع على أبوه وضربه بالأقلام على وشه وكأنه يعطي علقة لسارق أمسك به.. يعني مش قلم واحد.. الواد رتّل لأبوه صفعات متتالية حتى وقع إسماعيل على الأرض مغماً عليه والنسوان في الدار نزلت صوات حتى إن الشارع كله إتلّم في دارهم وبقت فضيحة بجلاجل.
- يا نهار إسود دي فاجعة والواد راح فين..
- الواد بيقولوا إنه مألوف على مرات بتاع البطيخ بعد مصيبيته دي جري عليها ودارته ونام في العشة بتاعتها لغاية الصبح والناس مش عارفة راح فين بعد كده.. الواد اختفى ومش لاقين له أثر..
- لو فيه محكمة عرفية في البلد الواد ده يتحكم عليه فوراً بضرب الرصاص..
- الناس كلّها بتقول كده.. المفروض الواد ده يتقطعّ تحت..
- خلّينا في نفسنا دول ناس من العيلة واحنا كُبرات العيلة المفروض نعمل إيه..

- الأول أنا هاروح الليلة أجيب إسماعيل وآخذه عندي في الغيط
يقعد يومين بعيد عن داره وولاده وأهدّي نفسه وبعدين نشوف
حكاية الواد لما نلاقيه..
 - عل أد ما تقدر إعمل مع إسماعيل ولما الواد يرجع نشوف
هانعمل إيه معاه..
 - أنا مغموم حزين مقهور إيه اللي بيحصل ده ولا أيام الجاهلية
الأولى دا يحصل.. الواد ده مش ممكن يكون من ضهر أبوه..
 - ولا ابن الحرام يعمل كده.. ابن الحرام بيبقه وفي اللي بيرّيه..
 - والله أنا زكبي سابت ومش قادر أقوم بقه ده يحصل في بلدنا.
 - على العموم أنا هاقوم أمشي وتبقه تعال من يوم للتاني قولي
إيه اللي حصل في الموضوع..
 - على العموم أنا طالع بعدك على طول هاروح أجيب إسماعيل
وأروح بيه على الغيط..
 - على أد ما تقدر خد بالك من إسماعيل لأن لو سبناه مع نفسه
هايموت من مصيبتة..
- .. ولما إنصرف عمي أمين لذتُ بصدر أبي ورحت أبكي فقال لي:
- ربنا يهديك يابني ويصلح حالك.. آدي العيال وآدي التربية
حسرة ما بعدها حسرة.. يا رب ما تورّي حد تاني مصيبة
إسماعيل..
 - آجي معاك يابه عند إسماعيل..
 - لأ.. خليك المواضيع دي صعب عليك المفروض ما كنتش
سمعتها..

- خليني أعرف كل حاجة معاك يابه.. علشان أعرف إيه اللي بيحصل في الدنيا..
- إنت صغير دي حاجات فطبعة إحنا الكبار مش قادرين عليها ومش عارفين إيه اللي نعمله مع الواد ده..
- موّتوه يابه..
- يا ريت نقدر نموّته..
- مش فيه واحد الناس بتأجره يقتل..
- فيه..
- .. وانصرف أبي ومشيتُ معه حتى باب السور وقلت له وهو يدخل في الشارع يساراً متجهاً نحو الغرب:
- رّنا معاك يابه..
- ولما دخلت إلى غرفتي وجدت أمي حزينة فقلت لها:
- سمعتي..
- سمعت كل حاجة.. دي مصيبة يابني رنا يكفي كل دار شرها..
- يعني إنت زعلانه أوي..
- لو سبت نفسي أقوم وألطم لحد الصبح..
- علينا نستغفر.. مش كده..
- فعلاً يابني الاستغفار بيهدّي النفوس..
- تفتكري يامّه هايقتلوا الولد..
- يا ريت يختفي من الوجود أو يردموا عليه وهوّ صاحي..
- طيّب أنا مش هايجيلي نوم..

- تعال صليّ معايا العشا..

وكان عبده ابن الثامنة عشرة قد وصل به عقله منذ عامان أن يعيش بجسده، فاستخدام جسده يقضي له معظم حاجاته وتاجرة البطيخ فقيرة لكنها تاجرة ليست من دور السادة فهي أباً عن جد من ديار الفقراء الذين يسكنون حارات القرية ويتوارثونها من جيل إلى جيل، ولكن كيف تكون واحدة هي بنت رجل من تحت جميلة بهذا الجمال الرائع.. كان أبوها يعمل صياداً صغيراً للسمك وكانت أمها تعمل عند رجل ثري ولم تكن تغادر بيت سيدها خاصة بعد أن ماتت زوجته وتركته وحيداً.. كان السادة زمان في قريتي من يملك عشرة أفدنة فهو سيد.. كانت الطباخة والغسالة والوحيدة التي تدخل غرفة سيدها لتنظفها وترتبها وتبق معه في الليل حتى يغط في نومه، وكان هذا السيد من عائلة البقل أصحاب الوجوه البيض والعيون الخضراء.. عائلة يبك من وجوهها وأجسادها الدم الأحمر.. حملت زوجة الصياد وهي تعمل عند سيد البقل وهي تنتقل في الحياة والإقامة والنوم والعمل بين بيت سيدها وبيت زوجها الصياد.. أنجبت منه منيرة وقال الناس في قريتي عندما شبت منيرة في شوارع القرية.. هذه بنت البقل.. كبرت منيرة والجمال في وجهها وصرخة جسدها تكفي لتوزيع كاسات من الجمال لكل امرأة في حاجة إلى نثرة من جمال، ولو كان الجمال يباع للنساء غير الجميلات لباعت منيرة بعضاً من جمالها وعادت من الثريات.. ولما تزوجت في سن صغيرة من ولد حاف صايح يبيع البلح الأمهات في المساء على ناصية شارع ومدرسة العرب كل نهار وليل وفي كثير من أوقاته بعد بيع بلحه كان يهوى نقل الأخبار بين الأغنياء ويمشي بالنميمة بين الناس وكان هذا الولد بن رجل أعور لا عمل له غير طلب الحاجة من باق رجال عائلته الأغنياء ويجلس طول النهار والليل على مصطبته في شارع يحكي لكل من يجالسه عن أيام زمان ويتفرج على الناس الرّايح والجاي.. وكانت منيرة بعد أن تزوجت من عايد بن الرجل الأعور.. كان زوج در.. كانت تريد أن تتدارى وكانت في حاجة إلى رجل آخر يدفع عنها طمع الرجال حولها.. ولم يكن في القرية غير عبده إسماعيل الشاب الفتى

القوي الفقير يتقرب منها يوماً بعد آخر حتى أصبح حاميتها وفتوتها ومع الاثنين عاشقها.. أعطته جسدها بمزاجها وهو الذي رواه وهو الذي احتواها فما برح أحد يقترب منها خوفاً من فتوته وعلى عينك يا عايد يا ابن الأعور.. في الخصص المقام بجوار كومة البطيخ يجلس عبده معها قليلاً أمام الخصص كل ليلة ويقوم عايد زوجها بعمل الشاي لزوجته ورفيقها وهو كثير ممتن لجلوس عبده فتوة الغرب في عشته.. ولماً كان الليل ينتصف وتقل حركة بيع البطيخ يضطجع عايد عند كومة البطيخ الملاصقة للعشة وهو يكاد ينعس من شدة تعب النهار.. فتقول له زوجته أم الواجب.. عايز حاجة يا عايد.. فيقول لها أنا مدغدغ.. وترد عليه وكأنها قامت بواجبها.. طيب شويه عبده قاعد معايا جّوه.. فيقول لها يا بخت من كان عبده صاحبه..

.. ولماً انهال عبده ضرباً فوق وجه أبيه هرب إليها وأخبرها فأخذته في الليل خفية إلى مجيرية في عشة من البوص أقامها عايد وزوجته في وسط قطعة أرض زرعت بالبطيخ كان التاجر ومنيرة قد اشتروها منذ أيام من صاحبها المجيرياوي.. وفي العشة وبين مئات حبات البطيخ كان اللقاء ليل نهار مع منيرة التي تحرس البطيخ والتي تركت كومة البطيخ في بلدها لزوجها.. وكثير من عشرات رجال ونساء القرية سألوا عايد عن عبده.. فيقول لهم لا أعرف.. فيسألونه عن منيرة فيقول لهم سارحة بالبطيخ في مجيريه ويصدقها الناس ويذهبون إلى حالهم.. ولا أحد يصدق أن أكثر الناس اهتماماً بالحدث الألم كان لجماعة المدروشين بالقرية.. الدحدوح وعبده أبو حته كوز وعبده صديقه وبرهوم والهبله بنت البقل وكان يقودهم حلاق بطربوش مجذوب يدعى أبو نعناعة الشخلول.. كان أكثر الناس انشغالاً بالواد اللي ضرب أبوه هؤلاء أقل الناس في البلد عقلاً وتصرفاً.. لقد جزع هؤلاء الطيبون بألم الحدث واتفقوا جميعاً بلغتهم الخاصة على أن من يجد عبده إسماعيل الولد العاق والحقير سوف يكون له شأن كبير في القرية.. لكن أبو نعناعة الشخلول قال لهم.. لا يهمننا القرية.. سوف يكون له خير عند الله.. لأننا سنمسك بفاسق.. ولكن عبده أبو حته كوز قال.. هذا زان ومش بعيد على زان يضرب أبوه.. فقال عبده صديقه وهو أهبلهم وصاحب ريالة.. أنا سمعت إن منيرة شارية بطيخ من واحد من مجيريه وقاعدة في قلب

البطيخ تحرسه.. ليه مايكونش المطرود من رحمة ربنا هناك.. وكان عبده أبو حنة كوز من شروة حسن وهي ناحية قريبة من قرية مجيريه وهو يعرف كثيراً عن غيطان وأهل هذه القرية.. فقال لجماعته:

- أنا عارف مجيريه هاروح دلوقتي علشان أعرف هو فين وعند مين إذا كان الكلام دا صحيح..

وفي صوت واحد قالوا:

- روح يا عبده وإذا لقيتَه تعال على طول يا رب في نص الليل..

.. وكان عبده عمارة وفهمي عمارة من تجار البطيخ في العزبة أول الناس الذين تأكدوا من أن عبده إسماعيل مع منيرة بنت الصياد في عشة غيط عمر أبو راغب.. ولما جاء إلى البلدة بأول عربة بطيخ من مجيريه بعد العصر كان كل منهما يريد أن يخبر قريبه حداد بالخبر ولكن من تحت لتحت لأن كل منهما يخاف من عبده إسماعيل بعد ذلك عندما يعود إلى البلدة والأمور تنتهي.. إنهما يخافا من بطشه.. واستطاع فهمي أن يمرر الخبر الأكيد إلى قريبه حداد.. وأبلغ أبي الأب المكلوم والحزين على نفسه بالخبر ففرح الرجل والذي مازال يعيش في دارنا بالغيط مع الأنفار.. وأبلغ أبي عمي محمود بالأمر وهو الرجل الذكي في تدبير كيف يأتون بهذا الولد أمام الناس.. فقال عمي:

- ده لازم نفضحه الأول.. خد عربة الحديد والشب (الثور) والسلبة (حبل سميك) تربط به الشجرة أو النخلة النقلة التي يتم نقلها على العربة.

- يعني إنت عاوز تربطه على العربة بالسلبة ويجرها التور من مجيريه إلى العربة.

- أيوه.. عايز عايز ناس قوية يمسكوه صح ويكتفوه صح ويربطوه على العربة بالسلبة "الحبل السميك" كأن الناس أمسكت بلص كبير..

- طيب الدنيا دلوقتي ليل هانروح نجيبه بالليل ولا الصبح..

- يا حدّاد بالليل تعرفوا تمسكوه أحسن..

ولمّا ذهب عبده أبو حنة كوز إلى مجيريه كان يعرف الكثير من أهلها فوجد الخبر مشاع بين أهلها بأن الواد بتاع شنشور الليّ ضرب أبوه عايش مع تاجرة البطيخ في عشة الغيط بتاع عمر أبو راغب ولمّا رجع عبده يحمل الخبر كان كل ناس العزبة البحرية قد عرفوا كل شيء حتى خبر العربة التي ستحملة إلى هنا.. وقبل أن تنام القرية وتقفّل أبوابها كالعادة بعد صلاة العشاء راحت شلة المدروشين تلف البلد سُبُعة (يعني مَرّات ومَرّات) وتصفق هاتفة الواد عبده لازم يموت.. الليّ ضرب أبوه يموت.. وكانت الدموع تتفرّق في كل العيون ويصعب نداء الدراويش على رجاء الناس جميعاً.. وبعضهم من كان يراهم يمشون ويهتفون يقولون تأييداً أي والله.. ليكم حق.. كلامكم صح لازم يموت.. ولكن من كان يراهم يلفون العزبة رايح جاي كان يخجل من شيء واحد وهو أن الهيلة بنت البقل تمشي عارية دون أي شيء يستر عورتها وكانت هذه عادتها كل يوم تمشي في البلد من بحريها لقبليها عارية تماماً.. وكان الناس جميعاً يخلطون خاصة النساء قائلات:

- طيّب لبسوها حاجة..

وكانت بعض النسوة تقذف فوقها بملاية أو جلباباً ليسترها.. لكنها لم تكن تبالي فتقذف به إليهن وهي تبصق في وجوههن.. وكانت بنت البقلي هيّ وبرهومه بتاع قبلي البلد بيمشوا كده من زمان في قبلي وبحري وإذا تقابلت واحدة مع الأخرى عند ناصية شارع بالصدفة ضحكت كل منهما للأخرى وتابعتا سيرهما في شوارع البلدة وكان ذلك من العادات اليومية التي ألفت القرية عليها منذ سنين..

.. رحل أبي من العزبة يركب حمارته وخلفه بعض الرجال الأقوياء وآخر القافلة تمشي مجموعة من العيال والصبية والشباب حول العربة الحديدية التي يجرها الثور.. وقد ترك الجميع المدروشين يدورون ويلفون شوارع العزبة هاتفين بأعلى صوت.. الواد لازم يموت.. ولمّا دخل الجميع قرية مجيريه بنفس الترتيب كان قد سبق الناس جميعاً إخوته الثلاثة ومعهم شماريخهم وحبالهم ليمسكوا بأخيهم وهو

أكبرهم لينالوا منه حق أبيهم ويعودوا به إلى دارهم ليتصرّف فيه أبيهم كما يريد.. ولماً وصل أبي إلى عشة البطيخ وخلفه من تبعه كان الإخوة الثلاثة قد جروه خارج الخس وراحوا يضربونه على وجهه بأيديهم بعد أن وضعوا شماريخهم بالأرض بناء على نصيحة أبي حتى لا يموت.. حيث قال أبي.. يا ولاد إضربوه بأيديكم بس ولماً نسلّمه لأبوه هوّ الليّ يّموته.. وكان الدم ينزف من وجهه بغزارة فزعق أبي.. كفاية كده.. أربطوه على العربية.. وكانت منيرة بنت الصياد عندما رأت الناس من بعيد قادمون نحوها أيقنت أنها لابد أن تفر.. وهربت إلى دور مجبريه بجلابية مقطعة تكشف عن مفاتن جسدها المثير حتى دخلت دار تعرفها فأدخلوها وداروا عليها بحكم علاقتهم الحميمة بها. وراح ولد صغير في هذه الدار يقف فوق سطح بيتهم ويغني على حكاية هروب منيرة عندهم ويقول:

- وأنا مالي ومالك يا رضا يابو جلابيه مهريدة.. وكان يقصد منيرة فتقول له أمه معلّش دي غلبانة لو ماخبّنّهاش هابقتلوها..

وأقعدوه فوق مقدمة العربة الحديدية التي يجرّها الثور وربطوه بالحبال وجرّه الثور من أرض الغيط حتى أول ساقية على اليمين بعدها أول الطريق المؤدي إلى بلدنا.. وتقدم أبي الناس بحمارته ومعه مجموعة من الرجال يركبون حميرهم وبعد ذلك كانت العربة وفوقها عبده إسماعيل يقعد فوقها ويتدارى بجلاباب وضعه أحد الصبية فوق رأسه، وكان إخوته الثلاثة يمشون بجانب العربة يحرسونه حتى يسلموه لأبيهم.. وكنا نحن الصبية وأغلبهم عيال من العزبة وأنا معهم نهزول خلف العربة الحديدية ولنرى جموع الناس على جانبي الطريق من فلاحين وفلاحات يتأملن وجه من عاق أبيه في أسف قائلين:

- هوّ ده.. جتك حسرة على الليّ خّلفتك..

- يا شوم عليك من بدري..

- هوّ إنت ابن حرام..

- هو إنت يا حمار البعيد مالك ومال التصييف.. عمرنا ما شفنا حد بيسافر علشان يصييف في بحر إسكندرية.. هيه ما البحر عندنا ببلاش.. جتك خيبه في اللي خلفوك..
- تصييف إيه يا منعاك النيلة روح شوف أمك أم شمار.. دا أمك لغاية دلوقتي ماتعرفش تلبس شبشب وتمشي بيه.. آه يابن الحافية..
- لو كنت عندك شوية دم صغيرين.. فكر شويه أبوك راجل غلبان وبيجيب لكم اللقمة بالعافية.. تيجي تقولي أصييف.. طيب إشبع الأول بالعيش القمح وخدها واحدة واحدة..
- طيب ياخيبة بلدكم هاتصييف بإيه.. فين المايوه اللي هاتلبسه علشان تنزل البحر.. هاتنزل باللباس يابن سرح.. دا إنت هاتخلي البحر كله يطفش من لباسك يا عرة البلد..
- هو إنت لما تصييف هاتجيب لأبوك عيش وبتاو.. أبوك قال لك مافيش تبقة مفيش.. تضرب أبوك.. على فكرة إنت ابن حرام.. معلش يابه إسماعيل ماعرفتش تربّي..
- دا بكتيره زي أهل البلد كلها عايزين نرقه عن نفسينا نقعد في الدكانة نشرب كوباية شاي وكروسي معسل.. دا كويس أوي ونبقه برضه مفتربين.. آه من الأنتكة والفلكة.. المثل بيقول لما تحب تتأنتك إتأنتيك من جيبك مش من جيب أبوك..
- موتوه يابه الحاج..

كلام كثير وسخرية وتهكم من الناس على الصفين حتى وصلت القافلة إلى المشروع.. وهي ترعة كبيرة في أول البلد من ناحية الغرب، وكان من أهم الناس هناك المدروشين الذين راح كل منهم يبصق في وجهه ومنهم من ألقى بالتراب فوق رأسه إلا أن عبده أبو حنة كوز إندفع نحوه وضربه بقبضة يده في وجهه.. وكان من

أهم ما قاله عبده صديقه وهو يحاول أن يلّم ريأته حتى تخرج كلماته من فمه
مفهومة:

- زاني وساكتين وفتوة وسايبيك.. ومفتري على الناس وبتدعي
عليك حسبي الله عليك.. بعد كده تضرب أبوك يا ملعون..
لازم تموت.. لازم يموت يابه الحاج..

.. وكان أبي يفكر في تعقل ولم يكن من حقه أو من حق غيره أن يحقق
طلب الناس في موته.. إن دوره انتهى، وكان علي إسماعيل الرجل المطلوب أن
يأتي إلى البلدة ليتسلم ابنه منه ويفعل به ما يشاء لكنه لم يأت لقد قرر أن يبق في
غيط أبي ويعمل وكأنه نفر أكرم وأحفظ له أن يعود إلى داره والتي فيها أهين.. وكلما
دخل الناس البلدة واقتربت القافلة من شارع عمي إسماعيل كلما قلّ الناس على
الجانبين الذي يتفرجون على الفضيحة التي تحملها العربة الحديدية.. حتى ما إن
وصلت إلى الدار فكّه إخوته من حباله وجروه إلى داخل البيت وألقوا به في أحط
غرفة في البيت وهي زريبة البهائم.. وإنصرف الناس كل إلى حاله بعد أن اطمأن
الجميع أنه في بيت أبيه وعلى أبيه أن يأتي يفعل به ما يشاء..

.. وكانت السيدة سرح كشكه قورني الجحش وهذا إسمها ثلاثي وهي أم عبده
إسماعيل كقلب أي أم حتى ولو كان ابنها فاسقاً.. خافت من حكم الناس ومن أن
زوجها قد ينفذ حكم الناس عليه ويقتله.. هلعت سرح كشكه منذ صباح اليوم الذي
ذهب فيه الجميع إلى مجريه.. هلعت إلى الطريق المؤدي إلى الخصرة حيث قررت
أن تتنقذ ما يمكن إنقاذه لتركب الرفأص (المركب النهري) ولتذهب إلى مصر تطلب
النجدة من أخيها إستوماج قورني والذي يعمل منذ صغره في تصنيع أغطية المجاري
في إحدى ورش شبرا الخيمة.. حكّت لأخيها كل ما حدث من وقت أن ضرب أبيه
حتى أن ذهبت البلدة كلها للقبض عليه فقال لها إستوماج وهو الجاهل الذي لا يقرأ
ولا يكتب هو يصلي بالفطرة ويعرف ربّه بالفطرة:

- من الأساس إسماعيل جوزك غلطان..

- إِرِّي.. هوَّ فيه أب غلطان لإبنه..
- إنت عارفه عبده ضلَّ طريقه من إمتى..
- مش عارفه..
- مش إبنك ده منذ بلوغه وهو على علاقة بتاجرة البطيخ..
- وش عَرَّفك إنه مخلوط بيها..
- أنا عارف كل حاجة في البلد وأنا قاعد هنا.. وأقولك حاجة كمان.. وإنت فرحانة بيه علشان كبر وبقه ليه علاقة بالنسوان.. مش كده يا سَرَّح.. هوَّ دا يرضي رِّبنا.. راجل ومراته عارفين إن إبنهم ماشي غلط وسايبينه يزني..
- كل الناس ساييه ولادها لما بتكبر.. القليل لما بيكبر بياخد في وشه.. أهه إلليَّ بيمشي صح والليَّ بيمشي غلط والهداية من الله.. الإبن المهدي مهدي من نفسه ودي بتبقه نعمة من عند رِّبنا..
- شوف بقه أهو إنت إِعترفتي بأن إبنك ماشي غلط من كذا سنة والناس كلها في العزبة عارفه كده..
- وعرفت إيه كمان..
- عرفت أن عبده بقه فتوه وأي واحد مش عاجبه يضربه إِفترى وظلم على الناس وأبوه وإنت سايبينه تتُّ لما ضرب أبوه..
- يعني عبده ماكانش داري وهوَّ بيضرب أبوه..
- الليَّ بيزني وبيعش حياته كلها في الزنا رِّبنا بيعميه عن النور وبيضل يوم بعد يوم.. يعني الزاني لو ماحدش حاشه بيقه بعد كده فاجر ومجرم يعمل كل الموبقات الليَّ في الدنيا.. بيقه حرامي ونصَّاب وعاق لوالديه.. كل حاجة وحشة يعملها..

- يعني إحنا الليّ وصلّنا إبننا لكده..
- أيوه لأنكم مارّيتهش من الأول وكنتم بتتفرجوا عليه أول ما افتري إفتري على أبوه وضربه وبكره هايضربك..
- والحل إيه يا ستوماج.. أنا جايه علشان تيجي تاخده من البلد وتنقذه أحسن أبوه يطاوع الناس ويقتله..
- أنا مش هاقصّر في أي حل أقدر أعمله ليك..
- طيّب ياخويا الله يرضى عليك تعال معايا خده..
- هوّ فين دلوقتي..
- زمانهم جابوه من مجيريه..
- وفين إسماعيل..
- إسماعيل من ساعتها قاعد عند الحاج حداد في الغيط..
- ياستيّ بكفاية الحاج أمين والحاج حداد هايحلّو الموضوع أحسن مني..
- لأ أنا ماضمنش.. دا الحاج حداد هوّ الليّ راح على راس الناس علشان يمسكوه ويجيبوه لأبوه..
- أنا دلوقتي عندي شغل وهاجبيه فين.. كل ولادي بنات هايعيش إزّاي في وسطهم مش هايנفع ياسرّح..
- هاته يشتغل في مصر في أي شغلة تشوفها له وسكّنه لوحده بعيد عنّك..
- إذا كان كده ماشي ورّنا يهديه بعد كده..
- إنت عارف أهم حاجة إنكّ تحبيه من البلد.. السيرة والفضيحة تتقطع، ويبعد عن تاجرة البطيخ لأنه طول ما هو في البلد مش هايسيبها..

- طيب أنا جاي معاك.. إستريحى شويه مع البنات ونتعدى ونروح آخر النهار..
- الله يرضى عليك يا ستوماج..

"تأثير الزفة والمرابي في نفسي"

في مساء اليوم الثاني للزفة جاءنا كالعادة عمي أمين ولماً جلس مع أبي كان حزيناً وجلست على كنبه في مقابل هذا الرجل التقي لأسمع في شغف كلامه مع أبي خاصة بعد الفضيحة التي تساقطت فوق رؤوسنا.. ولماً شرب فنجان قهوته قال في تدبير:

- إنت عارف المذاري أسخم من حكاية عبده مع أبوه وعلاقته ببنت الصياد..
- ياه أد كده فيه في البلد..
- إنت عارف المشكلة في إيه.. إن الأمهات بتربي ولادها على دلع مرء.. دلع خايب.. يقول العيل لأمه يا وليه تضحك.. يلعن أبوك تسخسخ.. يشتم ولاد الجيران تفرح إن الواد كبر وبقه يشتم.. يخلو العيل والبنت يناموا معاهم ويعاشروا بعض جنب العيال رغم إن فيه غرف تانية في البيت والعيال بتدري بكل حاجة.. العيال والبنات تطلع سايه فاكرة إن الحاجات دي عادية..

.. راح أبي يضحك وبعد أن فرغ من قهقهته قال:

- فيه واد صغير جنبنا دمه خفيف وحداني أبوه وأمه وأنا عارف إنهم بينيموه معاهم خوفاً عليه.. في يوم الواد وقفني في السكة وقال لي:
- إنت عارف يابه الحاج أبويا وأمي إمبراح عملو الحليسة..
- وش عرفك بالكلام ده يابني..
- دا كل يوم بيعملوها وأنا شايفهم..
- وبعدين بتعمل إيه..

- إمبارح كنت عطشان أوي وهمّ شغالين.. قلت بالراحة وكأني نايم عايز أشرب.. عايز أشرب.. سكتو شويه وبعدين مش عايزين يسمعوني ويجيبولي أشرب..
- وبعدين عملت إيه..
- قمت مزعق أوي.. وقلت أنا عايز أشرب ياللي بتعملوا الحليسة..
- مُت على نفسي من الضحك وقلت له تبقة نام في قوضة تانيه.. فكانت المفاجأة أن قال في شقاوة:
- أنا متعود أسمعهم من زمان وباعمل نايم.. بصراحة يابه الحاج بابقه مبسوط أوي وأنا شايفهم وسامعهم..
- .. وراح عمي أمين يضحك بابتسامته العريضة التي ملأت وجهه وكنت أكثر منه إبتسامة وقلت في داخل نفسي.. طيب مانا ياما سمعت أبويا وهو بياخد أمي القاعه.. وشفت أمي لبيبته كتير وهي بتتسبط على أمي.. كل دار عندها من ده بس بأشكال مختلفة..
- .. وسعدت وأنا أسمع أسراراً من قريتي.. وشبع كل منهما ضحكاً على الأحوال.. وهز عمي أمين رأسه كعادته عندما يريد أن يحكي شيئاً جديداً وقال:
- الجديد النهاردة.. إنت عارف الواد شاكر بن نبوت الدبور..
- أيوه.. الواد اللي ماكنتش عايز تعلّم القرآن..
- بدأ يقرأ هنا وهناك ورّينا فتح على أبوه بعد ما كان مش لاقى ياكل شبع من الأكل بعد صومه.. إنت عارف أول حاجة عملها أبوه بعد ما الفلوس بقت في إيده..
- لأ مش عارف..
- بيطلّع فلوس بالربا..

- يا نهار إسود.. طيّب دا بيقرا قرآن وعارف يعني إيه الربا هوّ الواد ماقالشي لأبوه عن الربا..
- معنى إن الواد ساكت إنه راضي عن تطليع الفلوس بالربا..
- طيّب برضه نقول للواد ونقول للنبوت..
- يا ريت.. قولهم يمكن يرجعو..
- إنت كان ليك حق لما كنت بترفض تعلّم الولد.. وقلت لي دا أبوه حرامي..
- الولد في الغالب بيطلع لأبوه زي البنت ما بتطلع لأمها..
- على فكرة يا حاج أمين فيه ناس تانيه بتطلع في العزبة..
- عارف وفيه ستات كمان..
- طيّب نقول للكل..
- ماخليتش واحد وواحدة إلّا لما قعدت معاه وقلت له كل حاجة عن الربا ومافيش حد رجع.. بيقه باق ده.. هي الخطورة إنه بيقرا قرآن..
- على العموم الليّ بيقرا غير عالم القرآن.. معظم القراء في القرى بيقروا عشان الفلوس ومافيش حد فيهم عالم وبيتناحروا مع بعض زي السباكين والحلاقين وبينهم حكايات..
- شوف موضوع الربا مش محتاج لحافظ أو قارئ أو عالم قرآن.. معظم العامة عارفين الحرام وبيبعدوا عنه بقلبهم وإحساسهم وبمجرد إنه منهى عنه في كتاب الله.. على فكرة كل الناس تقريباً عارفين الحرام والحلال ومش محتاجين العلم بالقرآن..

- الموضوع في الآخر بيئة وتربية ونشأة وفطرة سليمة ولأ مريضة..

- يابو حسن إحنا كده مش هانعمل حاجة مع نبوت وإبنه..

- شاكر زي نبوت في كل حاجة الفرق الوحيد إن ده لابس كاكولا وعمة الشغل كمقرئ وأبوه لابس الجلابية الزرقا واللبدة الزرقا والطالونه الغبرا اللي مايلبسهاش بني آدم فيك يا بلد.. العجينة واحدة.. الرغبة بيطلع للدقيق والعجينة بتطلع من إيدين نضيفة بنعمل منها كعك وبسكويت..

- إنت هاتخليني أروح أقول مافيش فايده..

- لو راحت للنبوت البلد كلها تمنعه عن الربا مش هابيرجع..

- طيب واحنا واجعين دماغنا من الصبح ليه..

.. وهَم عمي أمين من جلسته ووقف وهو يمد يده نحوي:

- سلام يا حسن مافيش فايده يابني.. سلام يا حداد..

.. وخرج أبي معه حتى باب السور كالعادة وأنا أتبع أبي.. كنتُ أحبُّ أن أسمع كل كلمة ينطق بها عمي أمين.. كان الرجل الوحيد في قريتي الذي يأتي لأبي ليحكيا عن مشاكل ومشاكل الناس وكيفية إيجاد الحلول لها.. وكما كان سناط القرية يحترف سماع النساء مع أزواجهن فأنا الذي إحترفت التتصت على كل كلمة وحكاية يلقياها عمي أمين ويحكياها مع أبي.. ولم يكن أحد يأتي لأبي رجل أو امرأة إلا إذا كان يريد:

البقرة لتساعده في الري أو الحرث.. أو جنيه سلف أو شوية قمح يُردُّهم لما يحصد زرعته أو حفظ كمبيالة أو كتابة عقد شركة مواشي وكان أبي لا يرد أحداً ما استطاع.. وكانت كثير من النساء يطلبن الطلاق من أزواجهن وأن أبي الوحيد بدون اللجوء إلى المحاكم هو القادر على إتمام الطلاق عرفياً لقوة تأثيره على الرجال، وفي هذه الفترة كان أبي يحرص على وجود أمي مع أي امرأة تدخل بيتنا لتعرض

مشكلتها.. كان حريصاً على ألا يفتن وكانت أمي سعيدة بذلك وكانت في بعض الأحيان تقدم الحلول الإيجابية لصاحبة المشكلة.. وكان أبي حريصاً في هذه الفترة من الزمن ألا تقول له امرأة يا خال فقد كان يردها في صرامة:

- بلاش يا خال.. أنا مش خال حد.. خال دي كانت زمان..

فتقول له المرأة أمال نقولك إيه:

- قولي يابو حسن..

.. وكنت أرى أبي حكيماً وكان يصبر على أي شيء يبنتلى به ورأيته أنه من أوائل الناس الذين يدفعون الأذى عن الطريق.. يقطع فروع الأشجار التي تعوق الماشية والمارة والمائلة فوق رؤوس الناس ويردم الطرق المقطوعة ويطارد الكلاب الضالة بعصاته أو يُسلط عليها صبيّاً ويدافع عن الضعفاء.. ولماً بدأت أشب وأكبر وأترك مرحلة الطفولة وجدت أن أبي يترك غيظه وحقله للأنفار دون إدارتهم ويقضي معظم وقته في قضاء حاجات الناس وحل مشاكلهم وكان معظم أهله من الرجال يقولون عنه أنه راجل خايب لا يعرف مصلحته وأن الناس لا تستاهل، وكان أبي محمود ينصحه بشدة في قوله كلاً ما رآه.. الشريك مخالف إذا تركته ليعمل بنفسه فلا يعمل وينهبك.. مافيش ضمير في إنفار الغيط دول عايزين ياكلوا ويشربوا وياخدو أجره وبس.. أرضك يا حداد بتطلع نص زرع.. ماعرفش إنت جاي لمين.. ونفس الكلام تقوله أمي ولا يحيد الرجل عن طريقه.. ورأيت بنفسي وأيقنت أن أبي يضيع وقته في المجالس بين الناس لأنه محترف حل مشاكل ويشعر براحة نفسية في الصلح بين الناس وهو في نفس الوقت مش بتاع فلاحه، وأن أخيه دردير بتاع دكاكين بيموت في جلسات دكان زهران وإذا ذهب إلى الغيط فإنه لا يعرف كيف يُشغل الأنفار.. وأهم شيء عنده النفر يعملُه نار الراكيه علشان يشوي دره ويشرب شاي ويحبسها بكرسي معسل عنتبلي.. وبدأت أشعر بأن جدي تعب وعمل لهما هذه الأرض وكان يجب عليهما زراعتها بقوة كما كان يفعل أو كما يفعل أخيه محمود.. لكن كل واحد فيهما في واد بعيد والأرض في واد آخر لا تجد فلاحاً يعتني بها..

.. وكان أبي يهرب من تشطيب منزل الغيط رغم إكتمال بنائه لأنه كان يعرف أن أمي سوف تتدخل في رعاية الأرض ومراقبة عمل الأنفار.. وفي يوم ذهبت أنا وأمي إلى بيت جدي في تلوانه لتشتكي أبي لأبيها.. ورغم أن جدي قد اشتد به المرض إلا أنه أرسل بعد ذلك في طلب أبي وشدّد عليه في سرعة تشطيب بيت الغيط، وكان أبي دائماً حريصاً على إطاعة جدي، وفي خلال أسبوعين كان بيت الغيط جاهزاً للسكنى.. منزلاً كبيراً مكوناً من ستة غرف ومطبخ وحمام وأمامه طلمبة مياه.. وكان على أمي أن تجهز ما تنقله من أثاث إلى هذا البيت وكانت جد سعيدة لأنها ستكون بجوار معاش الأرض وهي بذلك سوف تعالج ما أهمله زوجها وأنها سوف تجعل من الأرض مثل أرض فلاح شاطر.. إنها سوف تنقذ حال أولادها من الإهمال.. وكانت أمي قد ورثت مهنة إدارة أي شيء حولها من أبيها وكان أهلها في تلوانه يقولون عنها هذه مثل أحمد فوده وكانت هي تسعد بذلك وتتمنى أن تكون في نصف شطارة أبيها..

.. كانت أيام بدء الدراسة في المدرسة الإعدادي قد اقتربت فأخذني أبي إلى مدينة منوف لشراء شنطة مدرسية وبنطلونان وقميصان وحذاء وملابس داخلية.. ذهبنا إلى هذه المدينة وكل مناً يركب حمارته ويمسك بشمسيه فوق رأسه لتحميها من أشعة الشمس.. كانت الأيام منتصف سبتمبر أواخر عام ١٩٥٧.. وكان من أسعد أيام حياتي أن نتسوّق أنا وأبي حاجياتي من عدة محلات ثم دخلنا بعد الظهر مطعم أبو النور نتناول الفول والطعمية والسلطة المشهور بها هذا المحل وابتسمت لماً رحْتُ أقرأ لافتة للمطعم كُتب عليها.. فول أبو النور إن خُلص الفول مش مسئول.. وراح أبي يضحك معي قائلاً:

- ماتخافش الفول مش هايخلص.. دا هوّ بيضّك الناس..

.. كان الفول والطعمية في هذا الزمن وعند أبو النور بتاع منوف حكاية جميلة حكيتها لكل غلمان القرية من حولي ولم يكن غلمان قريتي بالنسبة لي إلا أولاد القطان عبد الحميد وحداد ورشاد وأولاد عمي عبد الرحمن وعادل وإخوتي عبد العزيز

ومحمد. وانبهر الجميع بحكاياتي عن هذا اليوم وكانوا يستمعون إليّ في شغف وتمنوا جميعاً أن يذهبوا مثلي إلى منوف ويأكلون فول أبو النور..

.. فرحت أُمي ومحمد بما إشتراه أبي لي عدا عبد العزيز الذي راح يصرخ بصوت عال ويقول:

- وأنا.. أنا عايز زيها..

فيقول له أبي وأُمي:

- الإعدادي فيه اللبس ده.. يابني الابتدائي مافيش بناطيل..
يابني الابتدائي بجلاليب.. لما تخلّص وتروح الإعدادي هانجيب لك..

.. إقتنع محمد الصغير وارتدى الحذاء الجديد وراح يمشي به وسط الدار غير أن عبد العزيز أمسك ببوْجة الملابس الجديدة وقذف بها قرب باب السور الخارجي، ولم يسكت عن سرسعته وصراخه إلى أن أخذه أبي في يده وذهب به إلى الدكان ليشتري له الحلاوة التي يلتهى بها.. وكان أبي يقول عنه دائماً:

- عبد العزيز لا ينتمي إلى أهل تلوانه بصلة.. هذا سيكون من حَوْش (عجر) أبو عافيه..

وكانت أُمي تضحك دائماً على هذا القول الذي كان أبي يقوله عنه دائماً عندما يسرع..

.. بدأت أخاف من الناس حولي وشعرت بأنني كلّمًا كبرت ظهرت لي أشياء فظيعة مثل زفة عبده سليمان وأن في الحياة أعمال لا يراها الطفل ولكنه يراها عندما يبدأ في الكبر، وتمنيتُ أن أعود صغيراً وأن أرى الدنيا حولي جميلة كما كنت أراها.. ودخل أعماق نفسي سحابة ضبابية تثقل على قلبي الصغير.. وبدأت أرى ماء الترعة يزمجر رغم أنها مياه راكدة، وأن كل من حولي يخفون كثيراً من السوء في داخلهم، ولما أفتح نوافذ المندرة يأتيني من البر المقابل هواءً خانقاً وليس كما كان من قبل فإن حديقة عنب زكي أبو شنب التي تقع خلف بيته لم يكن هواءها إلا منعشاً ونقياً

وبارداً.. وعادت الأشياء ثقيلة حتى أن صفير ماكينة الطحين لم يعد ينفذ إلى أعماقي وعاد الآن لا يبعث في ذلك المجهول الذي كان يمتعني وأنا أسمعه..

.. العربة الحديدية التي صنعت من قضبان حديدية مثل قضبان السكة الحديد.. صنعها حَداد أسود غليظ الطبع.. صنعها لعدد محدود من فلاحي البلدة يستخدمونها في نقل الأشجار الضخمة المقطوعة من حقل إلى آخر ويجرها ثور شديد القوة.. عجلاتها من حديد مستطيلة الشكل تعلو عن الأرض قليلاً وعندما يجرها الثور ينبعث منها صوتاً غليظاً مخيفاً نتيجة احتكاك قضبانها بالعجلات وكحت العجلات بالأرض.. ولم يكن يملك هذه العربة غير الأغنياء من فلاحي البلدة ففي الناحية البحرية عربة عند أبي محمود وعربة عند أولاد الجندي وثالثة عند عبد العزيز الصاوي..

.. أمسكت قلبي بيدي وأيقنت أن كثيراً من الناس في بلدي قلوبها أشد قسوة من صوت عجلات هذه العربة المخيفة.. وكان الشيء الثاني المخيف الذي أخفى فرحتي باقتراب العام الدراسي هو حكاية عمي أمين عن المرابي والربا.. كانت الأمور حولي أكبر مني وكلمًا حاولت أن أنسى أحداثها تذكّرتها ثانية.. ورحت أقلب تلك الكتب المرصوصة في الشباك وسحبت منها كتاباً بدون عنوان ورحت أقرأ..

.. الناس في كل قرى الكنانة يحبون الهيصة أيّاً كان نوعها.. هيصة الفرح تخص أهلها أما هيصة الفضيحة تخص البلدة كلها.. وكما يقول المثل البلدي الناس عايزة فضيحة وتشبع فيها لطم.. وفي كل قرية عدد أصابع اليد من الهبل والمخبولين والمرضى عقلياً.. إن هؤلاء يحدثون في قراهم توازن اجتماعي لا يشعر به أحد وهم أسرار قريتهم ولدوا فيها لحكم وعظمت لا يعيها أهل القرية، إن أهل القرية يتخذونهم سخرياً ولكن لا يدركون أسرارهم، وإن أطفال القرية نشأوا على ذلك مثل أهلهم والحقيقة إن من يتخذ من هؤلاء سخرية فإن الله يخلق من ذريته من هو أكثر منه عبثاً ولو قلب الناس لماذا رزق الله بعض الناس في البلدة مثل هؤلاء ستجد أن الناس أو آبائهم أو أجدادهم اتخذوا الناس سخرية ومعيبة.. إنه السلف والدين الذي يرده الله ولو بعد عمر طويل.. والناس في حياتهم عموميين تفكيرهم وذكائهم صدك ردك.. بمعنى إن الناس تنص في بعضها على طول بدون تفكير ولا روية، وقليل

من الناس يعيش في عمق وفي حكمة وإذا زاد في حكمته إتهمه الناس بالفلسفة وعدم الواقعية وأنه علينا جميعاً أن نأخذ الحياة بالعنف والنهب ومن سبق يلهم ومن فطن إلى شيء خبأه في مخبأه لا يراه أحد حتى يناله وحده.. والناس في قرى الكنانة كثيرى الكلام والقعاد على المصاطب والدكاكين وفي النميمة والخبص والعجن نمرة واحد.. وفي كل قرية ينتشر الخباصين ومطلقى الإشاعات على الناس وكما رزقت كل قرية بالهبل والمعتوهين بعدد أصابع اليد ففي كل قرية مثلهم من العجائين والخباصين وفي ركن آخر كان المرابين عددهم خمسة أو يزيد والسماصرة كثيرين وتجار الحمير والمعيز من الناس الهلافيت أكثر، وفي كل قرية عدد أصابع اليد من الشباب والرجال المشهورين كما يشتهر الركييس وهذه مصيبة أكبر من كل المصائب أن يكون الرجل ركيساً ولكن هو لا يدري بنفسه.. والذي جعل الناس من الرجال في أي قرية كذلك.. هو الخدم والعبيد والأنفار ولعب الأطفال مع الكبار وفي كل قرية مخابئ كثيرة لممارسة ذلك في حقول الذرة والقمح والبوص وفي مياه البحر والترعة وأخطر ما يسحبُ الطفل أو الغلام إلى ذلك هو لعبات القرى الفاضحة مثل لعبة.. لا يُنزل ولا يزنزل، واستغماية، وفر يا عصفور وسرّح كشكه فيها يحتك الكبير والصغير حتى يوقع به.. وأنصح القرى وأهل القرى بأنهم يبطلوا عبط وهبل ولكن من أين جاء الهبل والخبص والعجن والتركييس.. أقول لكم مش الفاضي يعمل قاضي.. الناس بدون عمل.. بدون عمل حقيقي، الناس في القرية لا ينقصون.. بل ويزيدون، الدار زمان كان فيها خمسة الآن فيها ثلاثين والدخل والأرض والريع زي ما هو.. ينفلت الناس إلى أعمال لا تغني من جوع، وإذا هاجر الناس من بلادهم إلى بلاد أخرى أو إلى مدن أخرى فإنهم يعودون بعد حين وأكبر ما حصل عليه المهاجر أنه أطعم نفسه وعاد بجديد واحد فقط هو الجلابية الجديدة واللاسة حتى يظهر أنه أمام أهله وبلده أنه عمل شيئاً وهو في الأصل يضحك على نفسه، الناس المزيّفين كثير بس همّ مزيّفين غصب عنهم لأنهم مالقوش حاجة يعملوها.. وأخاف أن يأتي يوم الكنانة كلها تتسحر والأرض تجذب وتباع المباني فوق الأرض وتلك المصانع الجوفاء التي شيدها عبد الرؤوف الزلباني بدون داع لأنه أقامها حتى يقولون أن الكنانة أصبحت كلها مصانع.. نحن في بلد يشيد من هم في مثل عبد الرؤوف الشكل والزيف والضحك على الدقون بعده سوف ينهار كل شيء وياخسارة كل قرش إتصرف في

إقامة هذه المصانع.. إن هذه السلسلة من الزلباني لا تنتهي والناس سوف تصبح غير الناس وكل الأشياء سوف تتبدل وسوف يُفعل فينا ما صنع الحدّاد، وفي يوم سوف يقول من هاجر من بيته إلى بلد أخرى ليأتي بالقوت لعياله.. مش مهم يركبوني حمار بس أرجع بلقمة لعيالي.. هكذا سيصل هدف ابن الكنانة.. لا أرزاق ولا دخول.. سوف تنهار كل الزراعات وتبقى مباني المصانع ويخرب المكن ثم تباع بتراب الفلوس.. وسوف يركع الناس للذل ويكفي أن أحصل على لقمة عيش لي ولعيالي وأضريني على راسي.. هكذا سيصل الناس إلى أعلى مراتب الفقر وأحقر درجات الذل.. إذا لم يخترق الناس أرضاً جديدة ويزرعوا زرعاً كما كان وقيموا مصانع الغزل والنسيج من جديد وينشأوا مصانع قائمة على زراعتهم.. وليس بكثرة المصانع ولكن بكثرة الإنتاج والتعمير.. إنني أرى ما لا يراه أحد ويا قارئ هذا قم وأنقض من الآن حتى لا يأتي هذا اليوم..

.. إنتهيت من قراءة الصفحات.. من كتبها؟ وماذا يريد أن يقول.. أنا لا أفهم شيئاً.. هل هذا الكاتب يتنبأ بشيء أم أنه يهزي.. لا أعرف.. إن بعض ما يقوله أراه الآن في قرأتي ولكن الكثير مما قاله أريد أن أفهمه.. طويت الصفحات ووضعت فوقها علامة.. لا بد أن أعطيها لأبي ليقراها.. إنني أريد أن أفهم ماذا يريد أن يقوله صاحب الكلمات..

.. نمت فوق الكنبه وكانت رأسي تحمل حزناً على حزن لكنني نمت.. ولماً جاء أبي من الحقل بعد العشاء أيقظني فلماً قمت من نومي.. قلت له هامساً في أذنه.. فيه حاجة ضروري عايزك فيها.. هزّ أبي رأسه وقال.. لماً العيال تنام.. لما سرسعة عبد العزيز تتخرس...

"بعد أسرار الكتب يموت جدي"

في صباح اليوم التالي تناولت الفطور مع أبي قبل طلوع الشمس، ومن عادة أبي أن يصلي قبل هذا الوقت وكذلك كانت عادة أمي.. وكان ما قرأته في الكتاب المجهول قد وُلد في عقلي شرارة عدم النوم فبعد سماعي لصوت آذان الفجر نمت قليلاً، وكان أبي بصوته الأخف ونحنحته وسعاله وقوله بعد سماع آيات القرآن التي يسمعا من الراديو.. الله.. الله يا شيخ رفعت.. لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله هكذا كان يقول فينبعث الدفء في نفسي وأطمئن وأشعر بأنني شيء صغير بجانب هذا العالم الكبير حولي في بيتي وفي خارجه.. ولو استطعت أن أطاوع نفسي لما خرجت إلى شوارع قريتي مرة ثانية خاصة بعد حدث رقة عبده سليمان وأن هناك الكثير من المرابين والسماصرة والخباصين والزناة يمخرون في عظام البلدة.. وكان من عادة أمي بعد أن تصلي تتصرف إلى داخل البيت لتخض القربة وتصنع الجبن والزبد وتشعل النار في الكانون لتسخين ما تبقى في الحلل من طبيخ.. حتى إذا طلعت الشمس وبذغت يركب أبي حمارته ويذهب إلى الغيط وكان أحياناً يذهب إلى حقله بعد الفجر ويتناول فطوره مع النفر الدائم الذي يعمل في حقلنا.. لكن في هذا اليوم عندما لحقت بأبي وتناولت طعام الفطور معه وراح يرقبني ويندهش ثم قال:

- إيه صحّاك بدري كده..
- علشان الكلام اللي قريته إمبارح في الكتاب..
- قريت إيه.. هات الكتاب.. كملّ أكلك الأول..

.. كان الخبز "عيش القمح" الذي يأكل منه أبي مقدداً ناشفاً رغم أنه قام بتقميزه.. يهوى أن يدخل قاعة الغموس كل صباح ليلتقط بيده كل ما تبقى من الخبز.. اللقم.. حتى لا يلقي بها أحد في شوال النفایات ويضع في صحن غسل أسود وصحن آخر قطعة من الجبن الأبيض "جبن الحصيرة" ويحمل كل ما جمعه من طعام في طبق من الخوص ويجلس عند فتحة الباب الكبير ويأكل.. وكنت أقول

له دائماً.. حُط اللُّقْم للكلاب في الغيط.. فيقول وأنا أكل منها قبل أن تأكل الكلاب..
فأقول له لا أفهم فيرد على قائلاً:

- يا بني أكل اللقم تزيح النقم.. إنه حكمة الدواء في كل ما تبقى
من النعم..

- وأنت بتعمل كده من زمان..

- العادة دي ورثتها أباً عن جد.. إن تاريخ أجدادي جميعاً
معروفين بالحفاظ على نعمة ربنا.. واللي نعرفه كل الإنسان ما
يعرف يحافظ على نعمة ربنا.. ربنا بيديه وبيارك في رزقه..

- في يوم شُفت الأنفار مش راضيين ياكلوا اللقم.. ومتكبرين
عليها.. وعلشان كده هايتنهم أنفار على طول.. بكرة هايجي
يوم الناس مش هاتلاقي فيه اللقم..

- بتقوللي أنا يابه..

- بقولك وبقول لغيرك حافظوا على نعمة ربنا.. أنا مش شايف
من الجيل ده حد بياكل اللقم..

- على فكرة يابه أنا قرئت في كتاب من الكرتونة حاجات
غريبة.. زي ما يكون واحد بيتتبأ باللي هايحصل بكرة..

- هات الكتاب..

وهرولت إلى كتبي ونزعتُ الكتاب من بين الكتب وأنقلبْتُ به إلى أبي
ووضعتَه بين يديه، وراح يتصفحه من الغلاف حتى آخر ورقة.. لم يكن بالغلاف أية
كلمات ولم يكن له غلاف خلفي.. وأشرت إليه بصفحات الكلام الذي قرأته وانغمس
يقرأ في شغف ومَرَّت دقائق وقطب بين حاجبيه كأنه عقد على شيء ثم طفق وقال
ولا يزال الكتاب مفتوحاً بين يديه:

- إنت عارف أبو سميرة.. هو اللي كاتب الكلام ده.. وده مش
كتاب مطبوع دا خط إيده.. دي نسخة كربونية بخط إيده ودا

كلامه وأسلوبه.. الرجل ده كان زي عشرات من الناس في مصر بيكتبوا أفكارهم وفلسفاتهم وتنبؤاتهم ولكن بينهم وبين أنفسهم.. إنت عارف مين اللي خلى أبو سميرة كتب كده..

- لأ مش عارف.. هو كان منجماتي..
- كان بيفكر وكان صاحب ثقافة عالية.. الرجل ده كان فرحان أوي بمحمد ياسين.. وسكت..
- مين محمد ياسين..
- رائد صناعة الزجاج في مصر صاحب مصنع ياسين..
- مش فاهم..
- الرجل ده قبل ما يكون راجل صناعة كان يملك كثير من الرفاصات في النيل.. المراكب الشراعية.. التي كانت تنقل المحاصيل الزراعية من القرى إلى المدن الكبرى..
- برضه مش فاهم..
- الرجل ده كان له قصة كفاح حارب فيها المصريين الخائنين مع الإنجليز فأفشلوا له مشروع النقل الداخلي بعدها فكر في صناعة الزجاج..
- وأنا هاستفيد إيه من حكاية ياسين..
- ياسين ده قبل ما يعمل صناعة الزجاج في عام ١٩٣١ سافر إلى جولة أوروبية حتى استقر بعض الوقت في ألمانيا ليتعلم كل أمور وفنية صناعة الزجاج..
- كان أبو سميرة يعرفه..
- كان يعرفه واشتغل معاه في مصنعه.. وحكى لي عن حكايته مع بنك مصر عندما تقدّم للحصول على قرض لإنعاش

وتطوير مصنعه.. كان قرض بثمانين ألف جنيه ورفض
سكرتير عام البنك طلب سلفته حتى تدخل طلعت حرب
مندهشاً.. كيف لرجل باع كل ما يملك لإنشاء صناعة مصرية
وقال بالحرف.. كيف تبدأ الصناعة في مصر إلاً بمجازفة
مدروسة وتمت الموافقة له على القرض لأن طلعت حرب كان
يتابع أفكار الرجل وكيف أنه باع كل ما يملك من أجل إنشاء
المصنع..

- وبعدين يابه.. والورقة دي علاقتها إيه بالحكاية دي..
- إنت عارف بالإصرار الوطني وبإنشاء صناعة حقيقية في البلد
وبمعاونة وتشجيع طلعت حرب من أجل معاونة أي رجل
صناعة حقيقية تنهض بالبلد.. نجح ياسين واستطاع عبر
سنوات أن يعلو قمة في الاقتصاد المصري قبل عام ١٩٥٢..
ولما جاءت حركة ١٩٥٢ وأممت المصنع خرب كل شيء
وسقط..
- وما علاقة هذه الحكاية بكلام والد سميرة..
- والد سميرة اشتغل مع هذا الرجل سنين طويلة.. عاصر فيها
الخائنين والموالين للإنجليز وعاصر الوطنيين والمخلصين
وكانت هذه مذكراته وتوقعاته.. عرفت يابني دا كلام أبو سميرة
ودي صورة بالكربون مما كتبه.. وكل واحد حر يكتب اللي
شافه..
- وإنت إيه رأيك..
- روح شوف مصنع ياسين من يوم للتاني بينزل على تحت..
ماسكينه شوية عسكر لابسين مدني.. أهم حاجة فيه وقت
الحضور والانصراف.. وتمام يا أفندم.. وكله تمام..

- برضه مش فاهم كل حاجة بتقولها..
- على العموم يا حسن اللي تفهمه إفهمه وبكره تفهم اللي مش فاهمه..
- يعني أقرأ باق الكتاب..
- أنا مش حايشك إقرأ كل الكتب.. إقرأ كل حاجة.. بس خللي بالك ماتقولش لحد إنت بتقرأ إيه.. قوللي أنا بس..
- ليه..
- الناس هاتحسدك لأنك بتقرأ.. كمان الناس مش هاتفهم حاجة..
- إنت عارف الناس دي كلها زي الناس في كل بلد..
- يعني إيه..
- مافيش حد في البلد عنده كتب الكرتونة والعيال من دورك على شاكلة شارع أبو سمك.. الكارثة والمصيبة إن البلد كلها بتقول تحيا عبد الرؤوف الزلباني..
- على فكرة يابه أنا من أول يوم في المدرسة كنت بقول تحيا مصر بس.. ولما يقولوا تحيا عبد الرؤوف الزلباني أسكت وأحس إن قلبي بيتخفق ومش قادر أتتفّس..
- أنا يابني زي أبو سميرة وإن بكره مش هاييقه كويس.
- هي المدرسة قرّبت..
- باق أسبوع..
- المدرسة الإعدادي مدرسينها زي مدرسين مدرسة صبحي..
- يابني قضيتها بأي شكل زي كل التلاميذ.. خللي دماغك كبيرة وأطلع من البلد دي..
- هوّ بعد كده هاطلع أروح فين بعد الإعدادي..

- هاتروح المدرسة الثانوي..
- هيّ المدارس مابتخلص هاتنيّ طول عمري في مدارس..
- عيبك إنكّ عجول.. وعلى فكرة إنت لو قرّيت كتب الكرتونة كتاب ورا كتاب هاتقدر تتغلبّ على أي مشاكل في المدرسة..
- لأن الأفكار الكبيرة في الكتب تعين الإنسان على حل أي مشاكل صغيرة.. وعلى فكرة إنت لو فكّرت كويس وشفّت حال المدرسة والمدرسين هاتلاقهم كلّهم أغلب من الغلب عايزين ياخذو مرتبهم وبس والناس تقولهم يا أستاذ..
- في المدرسة الإعدادي بيقولوا تحيا عبد الرؤوف الزلباني..
- وأكثر من كده.. وفيه طبله وطرنبيطه ومدرس ألعاب ماشي بالخرزانة ورا التلاميذ الليّ مايقولش تحيا عبد الرؤوف يلسعه بالخرزانة على ضهره..
- وفيه مدرس زي أنيس الأعرج بيشحت من التلاميذ.
- لأ مافيش كده.. أنيس موجود في مدرسة العرب بس..
- أنا عايز أروح الدكان.. إنت ليه مابتروحش زي الأول..
- أنا كبرت على الدكاكين.. روح إنت..
- مع مين.. أتكسف أروح الدكان لوحدي..
- روح مع ولاد القطان..
- والله فكرة نعمل رجّالة ونروح الدكان أحسن من اللعب في التراب على جسر التربة.
- .. ذهب أبي إلى الغيط بعد حديثي معه وكان الرجل مندهشاً لما حدّثته به، وفي لطف قال وهو يركب حمارته:

- اليومين دول قبل المدرسة.. فرصة تقرا في الكتب وبالليل روح
الدكان بس مش مع أي حد تروح.. أولاد القطان هاديين
وبيشربوا شاي بس..

.. دكان أحمد عبد الله يقع خلف دارنا وفي مواجهة بيوت القطان، صاحبه
يقدم لزبائنه الشاي الذي يتم عمله على وابور الجاز، وبعض الزبائن يهوى عمل
الشاي فوق نار القصعة، ومن القصعة يتناول شرببي الجوزة نار الحجر.. قعدة
الوابور في ناحية وقعدة القصعة في ناحية وشرببي الجوزة يتوسطون القعدتين، ولم
يكن يرتاد الدكاكين الأطفال أو الصبية وحدهم ولكن مع آبائهم، وكان الصبية مثلي
وأبناء القطان لا يذهب أحد وحده الدكان لأن جو الحانوت كبير على الصبية.. ولما
حلّ المساء تملكنتي الشجاعة وذهبت إلى دار عبد الحميد ومن على عتبة الباب
ناديته فجاءني وصافحني فقلت له في فرح:

- تروح معايا الدكان.. دكان أحمد عبد الله..
- ياه معقولة إنت هاتروح الدكان..
- وليه ماروحش..
- خلاص أقول لإخواتي.. وتعال بعد ما تتعشى نروح مع
بعض..

.. وكان لعبد الحميد إخوة.. عبد الواحد شقيقه وحداد ابن خاله ورشاد ابن
خاله.. وأولاد القطان يعتبرون في دورهم أن ابن العمّة والخالة والخال أخ فلا يقول
ابن خالي أو عمي ولكن يقول أخي..

.. بعد العشاء تسلّلت خفية من عبد العزيز ومحمد بعد أن أخبرت أمي
وخرجت من باب الطرنبة إلى دار عبد الحميد التي تقع في الشارع الخلفي فوجدت
ثلاثتهم يضحكون في فرح ويقفون أمام باب البيت ينتظرونني في لهفة.. صافحتهم
واحدًا بعد الآخر في حرارة وكان عبد الواحد يحمل حصيرة تحت إبطه.. خطوات

كان دكان أحمد الذي يقع مقابل دار بديعة التي تقوم بخض اللبن كل صباح لزبائنهما.. لم ندخل الدكان ولكن عبد الواحد فرش حصيرته على جانب من باب الدكان وأبدى الجميع بما فيهم أنا أن قعادنا خارج الحانوت يجعلنا نتجنب الرجال الكبار ومحترفي شرب الجوزة مشاركتهم أي شيء مما يشربونه أو حتى الحديث معهم.. كنا صبية صغاراً أكبرنا حداد بعامين وأصغرنا رشاد.. جاءنا صاحب الدكان بقصعة صغيرة وأشعل في خشبها النار وكان يبتسم لزبائنه الصغار وقال وكأنه يخاطب كباراً:

- تطلبوا إليه يا رجاله..

ضحكنا جميعاً ثم قال له حداد:

- هوّ فيه غير الشاي يا أحمد.. هات خمسة شاي..

- تحت أمرك يا حداد أفندي..

إصطلت النار واحتضن عبد الواحد القصعة وعابير أكواب الشاي ووضعها في الكوز وقال مقلداً الكبار:

- ثلاثه.. ثلاث أدوار..

فقال له عبد الحميد:

- زي الناس يا عبد الواحد..

.. كان كل منّا قرح بالآخر وفرك حداد أصابع يديه وقعد مقرّفاً

وقال لي:

- أول مرّة تقعد في الدكان..

- أيوه..

- مش هانقعد على جسر الترعة ثاني إحنا كبرنا..

فضحك عبد الحميد وقال:

- كل يوم بعد العشا نقعد في الدكان إحنا رجّاله دلوقتي..

وكان رشاد صامتاً لا يتكلم وهو أصغرنا سناً ويبدو أنه يعمل بالمثل القائل لما الكبار يتكلموا الصغيرين تسكت.. عبد الواحد ينهمك في تلقيم الشاي ومعايرة السكر وتقليب البرّاد فوق النار ويبتسم كلما تكلم أحد منا.. وكما هي عادة أهل الغيط في عمل الشاي ثلاثة مرات في أكواب صغيرة عملنا.. وكانت أكواب الشاي في الدور الأول ثقيلة والثاني أخف منها والثالثة رابقة..

.. وكان في رأسي أسئلة كثيرة أريد أن أعرفها من الصبية جبراني حتى لا أرهق أبي في كثير من أسئلتي فقلت:

- عبده سليمان الليّ ضرب أبوه راح فين..

فيقول عبد الحميد وهو يشوّح بذراعه لأعلى:

- أنت لسه فاكر.. إخوانه كانوا عايزين يموتوه وحاشت عنه أمه..

- حداد- خاله خده مصر في عز الليل والدنيا ضلّمة.. أحسن واحد زي ده مالوش مكان في البلد..

- عبد الحميد- وتاجرة البطيخ هاتلاقي مين بعده..

- عبد الواحد- الليّ زي دي ماتتوبش.. خدت واد من غرب البلد معاها في غيط مجبريه..

- رشاد- وعلى عين جوزها إلليّ قاعد في البلد يبيع بطيخ وسايب مراته في عشة غيط البطيخ مع عاشق تاني..

- عبد الواحد- لا هيّ ولا عبده سليمان ولا واد غرب البلد آخر ناس فاجرين في البلد.. البلد مليانه..

ويلهفة قلت لعبد الواحد:

- يا نهار إسود هوّ فيه تاني..

- عبد الحميد- فيه كثير بس ناس شغالة في الدرا.. بعد نص الليل..
- في البلد ولا في الغيط..
- عبد الحميد- في البلد أد الغيط عشر مرات.. إنت مش عارف حكاية تاجرة البلح..
- مين.. همّ كل النسوان البطالة تجار..
- عبد الحميد- وستات بيوت..
- حداد- تعال نقعد عند النقطة (قسم الشرطة) بعد نص الليل..
إفتحي يا أمينة..
- أمينة تفتح إيه..
- حداد- تفتح الباب لعشيق نص الليل..
- وجوزها..
- عبد الحميد- جوزها بيشتغل في العزة..
- وعيالها..
- حداد- العيال صغيرين وبيناموا في قوضه وهي بتاخذ حافظ في قوضه تانية وهات لقرب الفجر ولا حد يقدر يقول تلت التلاته كام..
- عبد الحميد- طالما جوزها ساكت وراضي وأنت مالك يا قاضي..
- عبد الواحد- إنت عارف حافظ ده ليه إثنين بتاع البلح وواحدة تانية بتروح الغيط تحلب بهائمهم قبل الشمس بيقلبها في الزريبة على الفرن بعد ما تخلّص حلابه وبعد ما تاخذ الوجبة تتكحل وتاخذ اللبن وتروّح..

- حداد- حافظ ده كتف جامد.. إنت عارف بتاع الغيط تطلع مين..

- مين..

- عبد الحميد- بنت أصغر من بناته.. لكن غاوية وحلوة وفاجرة وهو غاوي يصيد اللي عايزه.. راجل زي الطور بيحلب في البحرايه زي الناس ما بتقول..

وشعرت بأني كنت في قوقع وأن في الدكاكين أسرار تفوق أسرار الكتب وأن ما في الكتب فلسفات وأفكار عميقة وأنه يجب على أن أخرج من بيتي كل ليلة إلى هذا الدكان مع هذه الصحبة الداخرة بأخبار البلدة.. وكنا جميعاً نشرب الشاي في أكواب الدور الأخير فقلت وأنا أجيل بناظري في وجوههم:

- هوّ مافيش في البلد غير كده..

- حداد- البلد مليانة ناس تانية كويسه.. بس المشكلة الناس في الدكاكين مابتتكلمش عن الناس الكويسة.. الناس بتحب تتكلم عن الفضايح..

- زي مين كويس في البلد..

- عبد الحميد- في كل شارع فيه عشر دور كويسين ودارين وحشين.. في كل بيوت البلد وحواريها فيه في كل شارع قحبه وعلى ناصية كل شارعين راجل أو إثنين لمين الدنيا.. وعلى فكرة فيه حنتت بالكامل ودور مرصوفة ماتعدش ناس كويسين جداً وصالحين.. اللي في البلد كويس أكثر بكثير من الوحش.. بس سليوة الناس وحكاياتهم عن الفضايح أمال قعدات الناس ييقه ليها طعم من غير الفضايح..

- حداد- هي دي الدنيا في كل بلد.. الدكاكين والغيطان وأسواق النسوان وعرز أسواق الرجال في قلب سوق البهايم مايحلّش الدنيا ويخليها حلوة غير الكلام الوسخ..

- عبد الواحد- على فكرة فيه واحد عندنا في رحيله طول عمره مافاته صلاة فجر.. قبل الفجر بعشر دقائق تلاقيه واخذ في وشه وعلى جامع أبو عافيه وأحلى حاجة في الرجل ده إنه وهو ماشي صوت كتانلته يتسمعها كل دار على الناحيتين من الترة والناس اللي بتصلّي الفجر حاضر في بيوتها بتقوم عل مشيته وأحلى حاجة في كل صباح هي مشية الرجل ده للجامع وتلفه وأحلى ما في سكة رحيله قرايته للقرآن حتى يصل الجامع..

- حداد- وعلى فكرة دا راجل عادي مادخلش غير الكتاب ولا إمام ولا خطيب لكن الإيمان في قلبه ثقيل أوي وأحسن من كل الناس اللي بيتكلموا في الدين..

- عبد الحميد- إنتوا ناسيين الشيخ بكري مؤذن الشعبة وأخلاقه وعلاقته بين الناس رغم إن الرجل ده ساكن في الخارجه اللي ساكنها ناس يتولعوا بجاز..

وتكلم رشاد لأول مرة قائلاً:

- إنتوا ناسيين الشيخ محمد عبود.. شوفوا الرجل أعمى لكن حافظ القرآن عن ظهر قلب ولكن عيبه إنه بيطول في الصلاة وقليل اللي بيصلّي وراه..

- عبد الواحد- على فكرة محمد عبود والشيخ بكري من يوم ما وعيت على الدنيا الشيخ بكري على طول واخذ إيده في أي سكة يروحها..

- عبد الحميد- إنتو ناسيين إن محمد عبود ساكن برضه في
الخارجة..

- حداد- والشيخ الجريسي محفّظ القرآن الأعمى والإمام الشيخ
سليمان أبُو دَخَّان والصالح فهيم أبُو دَخَّان وقبلي البلد فيها
ناس كتير صالحين والكفر على أد ما فيه من فرجة لكن فيه
ناس كويسين أوي..

.. كان عبد الواحد قد أطفأ نار القصعة ووضع عدة الشاي في الصينية وقال
وهو يدعك أصابع يديه:

- عايزين شاي ثاني..

فقال له حداد:

- على أد مانقدر نيجي نقعد قاعدة الرجّالة دي..

وأكمل عبد الحميد:

- والله لأول مرّة أحس بأن بقينا رجّاله كُبار..

وقلت وأنا أيضاً.. فابتسم الجميع وانصرف كل منا إلى داره سعيداً
بقعدة الدكان..

.. الشعبة هي مبنى يقع في جوار بيتنا وهي مشيّده بالطوب الأحمر على
هيئة بيت أفرنجي ولها سور يحيطها من جميع الجهات وقد شيّدها الحاج
عبد الرسول القطان لجماعة الإخوان المسلمين منذ نشأتها في البلد.. وكان من
ضمن جماعة الإخوان قبل ١٩٥٢ مناع القطان وجمال فوزي عبد البر وكثيرين من
شباب ورجال القرية ولما جاءت حركة الإنقلاب العسكري سكن الجميع في الجحور
وهربوا في داخل الوطن وخارجة ومنهم من هرب إلى السعودية مثل مناع القطان
وسافر قبله للعمل في السعودية الشيخ عبد الرزاق عفيفي وكان من ضمن جماعة
الإخوان قبل عام ١٩٤٨ حتى سافر إلى السعودية بعد أن تم إختياره ضمن مجموعة
من العلماء الشُّبان للسفر إلى الحجاز لتكوين هيئة علماء وتأسيس دار إفتاء في

السعودية.. وظلّ هذا الرجل في السعودية حتى حصل على الجنسية وكان الرجل الثاني في مجموعة كبار العلماء ودار الإفتاء بعد الشيخ الباز.. وظلّ هناك في الرياض حتى توفي بها عن عمر بلغ الخامسة والتسعون تماماً، ولا أعرف حتى الآن لماذا سموها الشُعبة وعن باق جماعتها لا أعرف شيئاً عنهم لأنني كنت صغيراً وقتها لم أبلغ السادسة من عمري وظلت هذه الحكاية يتداولها الناس في البلد حتى الآن.. غير أن جمال فوزي عبد البر أحد كبار الإخوان في مصر ذلك الوقت أعرف أنه قضى بقية حياته في معتقلات عبد الرؤوف الزلباني وذاق مرارة الذل والتعذيب بين جدران السجون حتى مات وعرفت فيما بعد أن حسن جمال فوزي زميلي في السنة الأولى الابتدائية هو ابنه.. هذا إسم الشُعبة ذلك المبنى المميّز في القرية والذي تم سـنـكـرتـه بـعـد ذـلـك إلـى الـآن حـتـى تـم هـدمـه في عام ٢٠٠٩....

في صباح اليوم التالي جاءنا عبد المنعم ابن خالي عبد الحميد ليبلغ أمي بأن أبيها في حالة متأخرة وأن أمها تدعوها أن تكون بجوار أبيها من اليوم مثل بقية أخواتها البنات فהלح أبي إلى الدولاب لارتداء ملابس أخرى وهو يقول لأمي:

- قومي واحنا هانستني إيه.. يالّه أنا جاي معاك..

وراحت الدموع تنهال بغزارة من عين أمي وهولت إلى غرفتها لترتدي ملابسها وتضع في سبت ملابس أخرى لها.. كانت تتوّح.. يا روعي يابه.. يا حبيبي يابه.. فيقول لها أبي.. هدي.. إن شاء الله هاخف.. فيعلو صوت نحيبها ومناداتها لأبيها.. وكان أبي قد خرج إلى ابنته سعاد لتأتي إلى البيت وتظلّ مع إخوتها حتى يعودا من تلوانه ولكن زوجها رفض بحجة أنه لا يستطيع الاستغناء عنها.. فذهب إلى دار عبد اللطيف أبو حربه ليأتي بزوجته أم سلامة ابنة عمتي لتكون في البيت مع الأولاد حتى يعودا.. جاءت معه مهرولة.. وكان كلّ من عبد العزيز ومحمد قد ذهبا إلى الغيط قبل الضحى.. ولما كنت أقف بجوار أمي وهي تعد حاجياتها للذهاب قلت لها في رجاء.. عايز آجي.. لازم آجي معاكم.. لازم

أشوف جدي.. وتحت إلحاحي سمعني أبي فقال لها.. ناخده.. فأومأت برأسها ناخده.. وارتديت ملابس أخرى وربطتُ حذائي على قدمي ووضعت أُمي ملابس تخصني معها في السَّبت.. وكان في البيت حمارة الدرجة الأولى "الركوبة" فركبتها أُمي وركبت مع أبي الحمارة درجة ثانية وركب عبد المنعم حمارته التي جاء بها.. ووصلت قافلتنا إلى بيت جدِّي، ونزلنا قرب الباب الخارجي للمنزل.. وكانت أُمي تضرب صدرها بكفي يديها وهي تقول.. أبويا.. أبويا.. وتقدمتنا وحمل عبد المنعم متاعنا وهو يمشي خلفنا حتى الباب الداخلي وعند العتبة.. صرخت امرأة.. يابه.. وتبعها أخرى يابه.. وثالثة لأ يابه.. ثم علا رجل بصوته.. لسه بدري يابه.. وكادت أُمي تقع ولكن سبقتها صرخة ثم علت بصوتها.. أبويا مات.. أبويا مات.. يابه وصرخت وقابلها النسوة من القريب قبل أن تدخل إلى الدار وأمسكن بها.. لاتصرخي.. لا تصوّتي.. الصوات حرام.. أبوك بقه مع الله الصوات حرام.. عمي أحمد بقه مع الله.. الصبر قولي.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. حتى أدخلناها وهي منهارة إلى حيث جمع النساء الباكي وارتمت في حضن أمها تبكي وراحت في نوبة بكاء شديدة كانت تهزها وتهزُّ أمها هزاً شديداً..

.. انقلبت إلى حيث يرقد جدي في المندرة لكن من يقف أمام المندرة منعني بعد أن إحتضنني قائلاً:

- لأ يا حبيبي خليك برّه إنت صغِير والمنظر صعب عليك..

حاولت أن أفك ذراعيه فلم أستطع وحملني إلى دكة خشبية مقابلة للطرنبة قائلاً:

- أقعد هنا.. وماتدخلش برضه عند الحريم..

.. علا صوتي ببكاء يهزني مثل بكاء أُمي على صدر أمها وراحت سيدة تربت على ظهري قائلة في عطف شديد:

- معلّش يا حبيبي أد كده بتحب جدّك..

وأخذتني إلى حوض الطلمبة لتغسل وجهي وتعيدني مرةً أخرى لأجلس على الدكة ورحت أتأمل الرجال والنساء الداخلين إلى البيت.. بدأت أفيق وكلماً سمعت صوت عربة على الطريق هرولت إلى الصوت لأجد معظم المركبات متجهة إلى السكة التي تقع عليها سرس الليان ثم مدينة منوف.. ثلاث عربات من ماركة شيفرليه مركونة بجانب السور.. لقد وصل بعض أهل جدي من مصر.. وكان موعد الظهر يقترب.. رجال من الذين يحضرون الكفن والمغسل وتصريح الدفن والمقرئ الذي سيقراً القرآن في الدار ورجال آخرين يربطون عجلًا بقرياً ضخماً ليوقعوا به كي يذبحوه ويسلخوه ويقطعوه.. بدأ هؤلاء كخلية نحل يدخلون ويخرجون إلى أن وصل شيخ من القرية ومعه أربعة من جماعته.. جلس كبيرهم في الوسط على مصطبة كبيرة مقابل باب المنذرة وقرب باب البيت الداخلي حيث تجلس النساء.. وراح الرجل وجماعته يقرأون القرآن بصوت عال.. وهجعت النساء وشمل كل من في الدار صبر جميل.. واقتربت من هؤلاء وجلست قريبهم واندعشت لأن ذلك ليس في بلدي ورحت أنتظر الرجل الذي يدق الطبل للإعلان عن الموت.. لقد تأخر الطبل وهرولت إلى الباب الخارجي كي أراه فلم أجد أحداً.. ولكني وجدت عربات أخرى تركن حول البيت وقد قدم أهلها من مصر ودخلوا تبعاً فرادى وجماعات إلى الدار.. ومضى وقت طويل حتى تم إحضار كل شيء لتجهيز جدي وإنتهى الجزار من تقطيع لحم الذبيحة ولم يأت بعد قارع الطبل.. إمتلأت الدار عن آخرها برجال كثيرين من أهل القرية وآخرين من أهل مصر الذين يرتدون الحِلُّ والقمصان السوداء وكان قد دخل وسط هذه الزحمة إلى النساء امرأة واعظة من أهل فوده لتوعظ النسوة وتنهين عن البكاء.. كان صوت الواعظة نافذاً إلى أذني وكان صوت جماعة القرآن قد علا فوق أصوات الجميع.. وكان أبي قد خرج مرتين من المنذرة ليطمأن على.. وقبل العصر بساعة خرج النعش يحمله أربعة وقد توقفوا به وسط الفسحة الخارجية وخرجت جدتي وأمي وخالاتي والنسوة تبعاً ليندفعن نحو النعش لكن رجالاً أقوياء أوقفوا النساء ورفع شيخ قارئ جماعة القرآن صوته عالياً:

- قولوا جميعاً.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. وراح يكررها.. ثم هتف كل نفس ذائقة الموت.. ولن يبقى إلا وجهه.. لن يبقى إلا الله..

.. وراح الرجل يقرأ الفاتحة ليردُّدها الجميع خلفه.. وتقدَّم النعش الجميع ومشى من في داخل البيت من الرجال يتبعون النعش حتى خرج الجميع من بوابة البيت لينضم إلى الجنازة عشرات من رجال القرية وشبابها وكهولها.. كانت الجنازة صامتة.. يتقدَّمها النعش وخلفها الرجال ويرفع رجل صوته عالياً: لا إله إلا الله.. فيردُّ الجميع خلفه لا إله إلا الله.. وكنت أمشي مهرولاً باكياً بجوار من يرفعون النعش وكلما سارت الجنازة في شوارع القرية كي تصل إلى المقابر انضم إليها العشرات من الرجال عند كل ناصية وشارع.. حتى كانت المقبرة لأجد بابها مفتوحاً وتقدم أهل جدي نحو الباب ودخل النعش ووضعوا الخشبة تحملها أعمدتها الأربعة ورفعوا الرجل من فوقها حيث حملته أياد كثيرة إلى فتحة المقبرة ليتلقفه التراب ومن معه في داخل القبر الصامت.. وهنا علا صوت الجميع.. لا إله إلا الله.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. ولما تم الدفن وقفل الباب على جدي إلى الأبد.. راح رجل يدعو له ويقرأ من الآيات والمواعظ حتى قال الجميع آمين وختموا المشهد الأليم بقراءة الفاتحة..

.. كان الحزن الذي جثم على قلبي بعد موت جدي ثقیل، والخوف الذي بدأ ينتابني من قسوة أحداث الحياة كبير، وتحركت الأيام بعدها ببطء، ولما كنا نعود أنا وأبي وأمي إلى بلدنا في الليلة الثالثة بعد موت جدي.. كانت السحب تخنق السماء وكنت أرى أن صفحات من السماء شبيهة بأمواج البحر.. كانت شواطئ البحر الأعمى التي تجمع بلدي أبي وأمي وقوارب الصيادين ودق طبول طبشة السمك لا صوت لها ولا حراك، كان السكون يشمل البحر وما حوله كما كان سكون الحزن في قلب أُمي.. ومَرَّت أيام أخرى وأمي لا تقدر على عمل شيء في البيت وابنة عمتي أم سلامة بقيت معنا في المنزل حتى أصبحت أُمي قادرة على الحركة.. لزمْتُ المندرة وانكفأت على قراءة صفحات الكتب التي مازلت أحبُّها، وكان في رأسي شيء أبحث عنه.. أكان الموت.. ما سر الموت وكيف ينقلب الناس واحد بعد الآخر إلى أبواب المقابر المفتوحة.. لم أجد هذا السر في الكتب، فاتحت أبي فيما أبحث عنه

فقال لي كلام من كتاب الله لم أستطع فهمه ولكنه أوقفني عن الشطط.. كان عليّ أن أفكر وحدي.. ولم تكن أُمي تستطيع أن تجيبني عن شيء.. كانت أُمي تصلي فقط وتعرف الحلال والحرام بالفطرة كما كانت كل النساء اللاتي مثلها، وفي صباح أحد الأيام فتحتُ شبابيك المنذرة فكان صوت الرجال والنساء الذين يذهبون إلى سوق الخميس كفيل بأن يأخذني من جنون أفكاري.. خرجت إلى الناس وهم ينصرفون في مجموعات وفرادى إلى السوق.. وقفتُ عند الجميزة وكان صوت صفير ماكينة الطحين كالمنادي الذي ينزعني نزعاً ممّا جثم على قلبي، وفجأة وجدت أولاد الصاوي يلتفون حولي ويواسوني في موت جدي وأضفى ذلك على نفسي كثيراً من قسوة الموت.. وقالوا جميعاً وهم يشدونني نحو شارع أبو خليفة.. تعال والله لازم نشرب شاي.. تعال الدكان نقعد ونتكلم علشان تنسى.. أحنا كلنا هانموت يا حسن.. ذهبْتُ معهم.. كنت في حاجة إلى أولاد طبيين مثلهم لأحكي لهم.. كيف كان موت جدي قاسياً؟....

إنتهت بحمد الله وعونه

في ٢٠١٠/٧/١٩ صباحاً